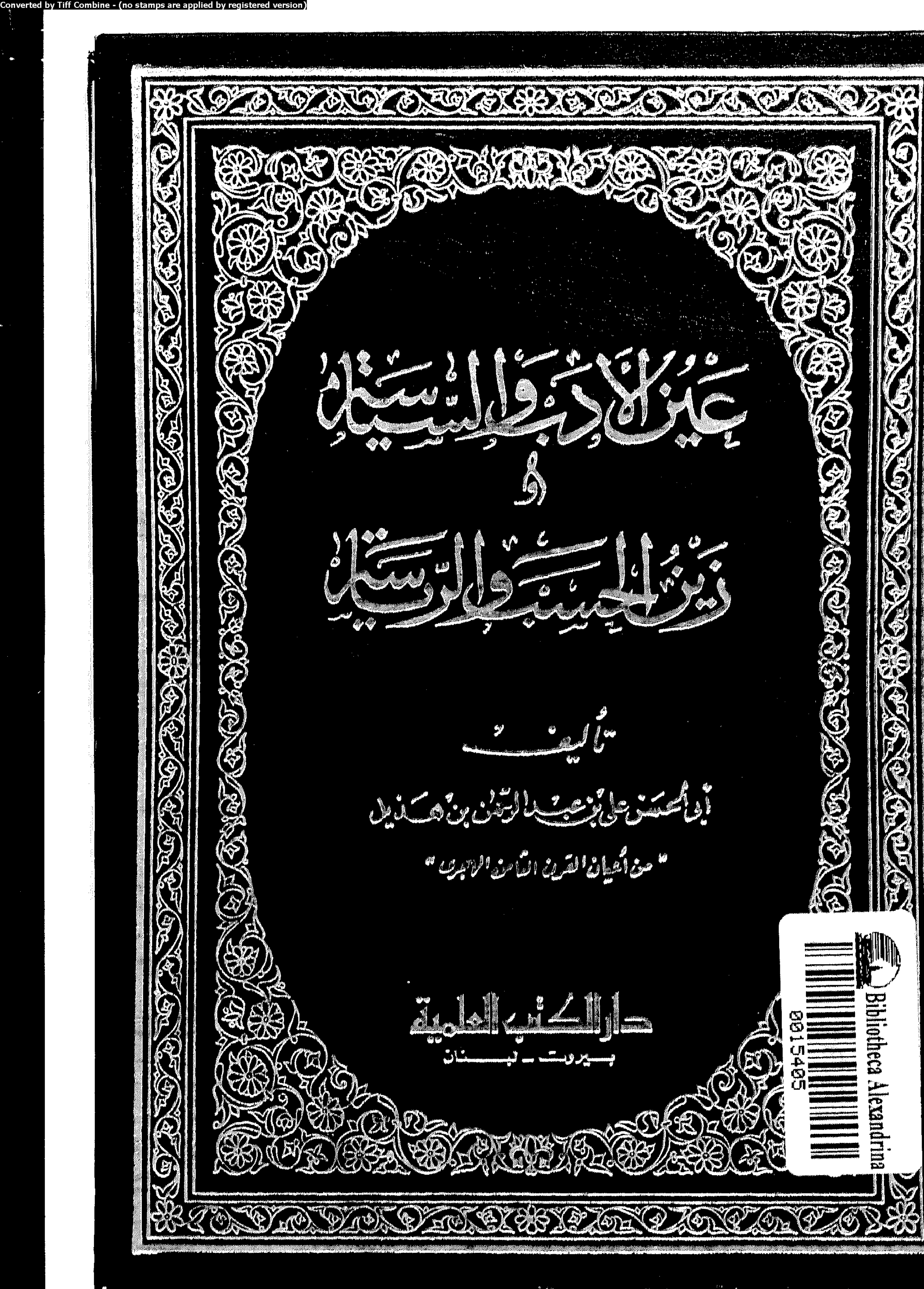
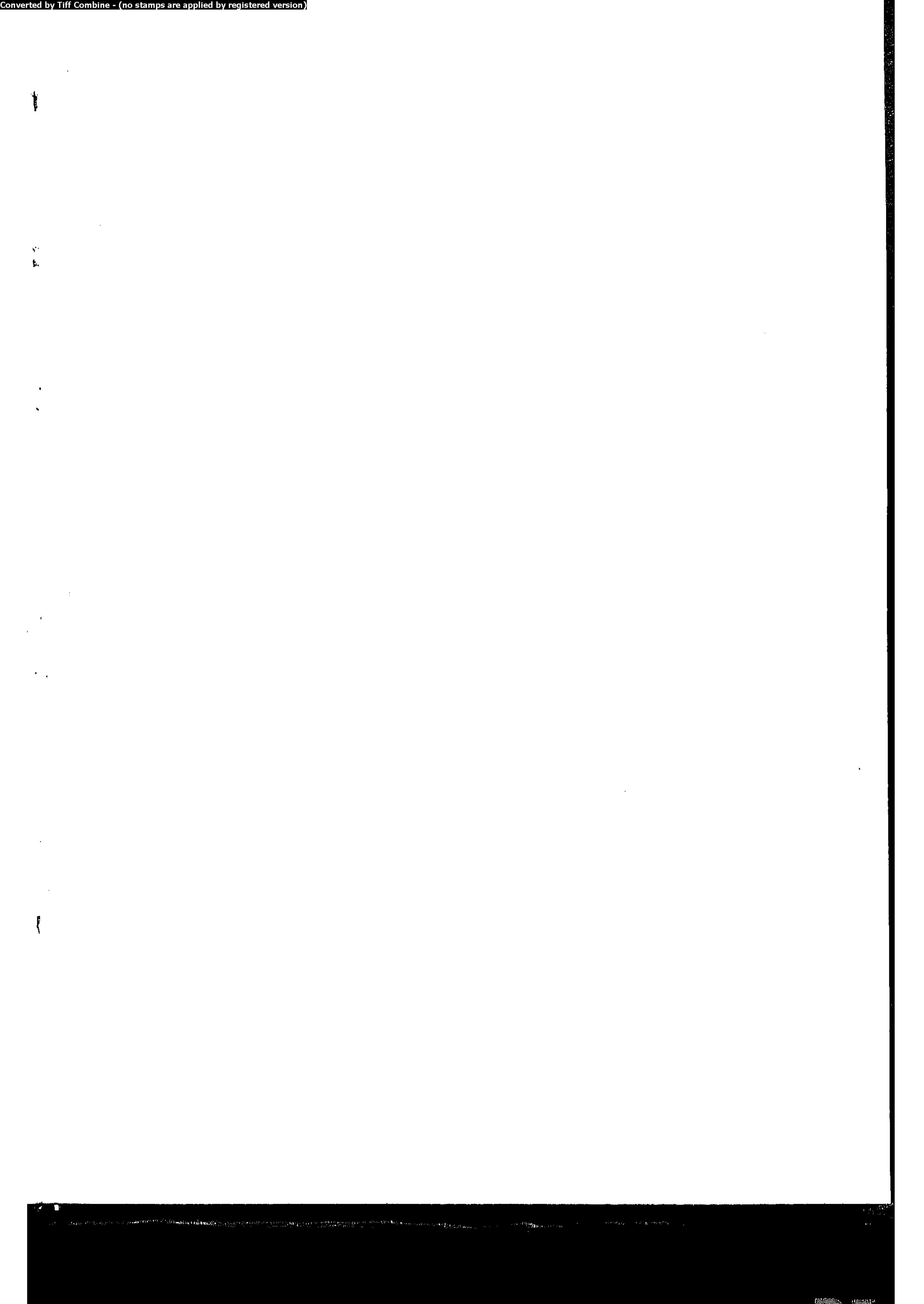

عين الأدب والسياسة
و
زين الحسب والرياسة
تأليف
أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل
" من أعيان القرن الثامن الهجري "
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0015405



عين الأدب والسياسة

أو

زين الحسب والرياسة

الطبعة الثانية

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

عين الأدب والسياسة

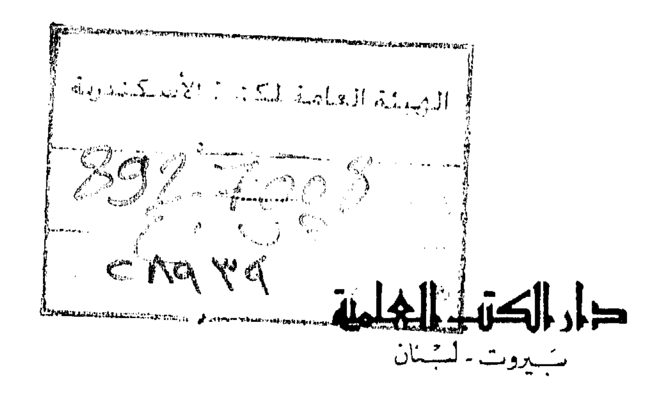
أو

زين الحسب والرياسة

تأليف

أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل

" من أعيان القرن الثامن الهجري "



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد ابن عبدالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

بين أيدينا كتاب من أنفس وأمتع ما كتب في الأدب والسياسة . للأديب الأندلسي على بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري . وهو من علماء الاجتماع المعروفين والمشهود لهم بسعة الاطلاع ورجاحة الرأي وقدأسماه: عين السياسة وزين الحسب والرياسة . وكان حافزه لهذا العمل هو أن يكون تقدمة إلى السلطان محمد بن يوسف عام ٧٦٣ ه . وقد صدّره بالآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي تخدم الموضوع ، وتضع له الأطر السليمة ، وضمنه آراء العظماء ، والحكماء ، والعقلاء ووزعت في ثنايا الكتاب بأسلوب رائع ومشوق . ولم يغفل كاتبنا دور الشعراء في هذا البحث القيم ، فها هو يدرج لهم أشعارهم ، ويناقشها ، ويستنبط منها أجمل الحكم ، وأبلغ المواعظ ، بحيث تعيش مع هذا الكتاب وأنت تستعرض أجمل الحكم وأبلغ المواعظ وأجدى النصائح ، التي لو تقيدت بها لوجدت نفسك تصعد في سلم الرقي ، والرفعة ،

والعزة ، التي نشرها لنا الكاتب من خلال عباراته الجزلة ، وأسلوبه المشوق ، الذي يشد القارىء ، ولا يستطيع ترك هذا السفر النفيس ، حتى ينهيه قراءةً وتفهماً ، في الوقت الذي يشعر فيه أنه بحاجة إلى إعادة قراءته مرات ومرات ...

هذا وللمؤلف آثار كثيرة منها :

١ ــ حلية الفرسان وشعار الشجعان (مطبوع) .

٢ ــ مقالات الأدباء ومناظرات النجباء (مخطوط) موجود في ملحق المتحف البريطاني برقم ١١٤٤ .

٣ ــ الفوائد المسطرة في علم البيطرة [1] (مطبوع)

٤ ــ تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مطبوع)

٥ ــ تذكرة من اتقى (مطبوع)

الناشر

(1) هناك بعض الشكوك حول نسبة كتاب الفوائد المسطرة في علم البيطرة . فانه في علم البيطرة ، وأجدر بهذا ان يكون من تأليف يحيى بن احمد (ابن هذيل) الطبيب .

إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحراً
وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً

حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وهب لنا العقول والأذهان ، ومنحنا فصاحة اللسان وألهمنا التبيان ، وحضنا على التحلي بالحلى الأدبية ، والتخلق بالمكارم العلية ورغبنا في الاقتداء بالسنن السنية ، والاهتداء بالأقوال المرضية الزكية المتكفلة بالسعادة الدينية والدنيوية ، وأرشدنا إلى الطريق الأسنى ، وأمرنا بالإحسان والأفعال الحسنى ، ونهانا عن الأخلاق الدنيئة اللئيمة ، والأفعال الرديئة الذميمة . وأنعم علينا بالبلاغة والبيان . فقال جل وعلا في محكم القرآن (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)[1] فبالبيان تستخرج الحقائق ، وتنمق الحكم والرقائق ، ويتوصل إلى معرفة الخالق ، ويستعان على شرح العلوم ، ويتفنن في الكلام المنثور والمنظوم ، وبمكارم الأخلاق ، يستدل على فضل الطبع وكرم النجر وطيب الأعراق ، وبالاستمساك بحبل المروءة والآداب . تظهر نتيجة العقل وثمرة الألباب ، فهدانا سبحانه ، وما كنا لنهتدي لولا عونه وفضله ووفقنا ولم نكن نتوفق لولا امتنانه وطوله ، نحمده تعالى والحمد من إحسانه الجسيم ، ونشكره والشكر من إنعامه العميم ، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

الكريم ، المخصوص في الأنبياء بمزيــة التفضيل والتقديم . المحفوف بالعصمة ، المؤيد بالحكمة ، الذي أوتي من البيان الحظ الأوفى ، والقسم الأفضل الأعلى ، فلا كلام يعدل بكلامه ، ولا بيــان كبيانه في حكمه البالغة وأحكامه ، فبذ في فصاحة اللسان الناطقين ، وحاز في الفضل ومكارم الأخلاق قصب السابقين ، صلى الله عليه وعلى آله وعلى جميع النبيين والمرسلين كثيراً .

وبعد ، فإن التأليف غير موقوف على زمان ، والتصنيف ليس بمقصور على أوان لكنها صناعة ربما قصرت فيها سوابق الأفهام،وسبيل ربما حادت عنها أقدام الأوهام قال بعض الحكماء : لكل شيء صناعة ، وصناعة التأليف صناعة العقل .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : لولا تفسير العلماء ونقلهم آثار الأوائل في الصحف ، لبطل أول العلم وضاع آخره ، ولذلك قيل ، لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر .

قال أبو الحسن بن فارس، صاحب كتاب « مجمل اللغة » : لو اقتصر الناس على كتب القدماء ، لضاع علم كثير ، ولذهب أدب غزير ، ولضلت أفهام ثاقبة ولكلت ألسنة لسنة ، ولمجت الأسماع كل مردد ، ولفظت القلوب كل مرجع .

قال الشاعر :

إذا تحدّثتَ في قوم ٍ لتؤنِسهمْ   مِنَ الحديثِ بما مضى ومَا يأتي
فلا تُعاودْ حديثاً إن طبعهم   موكلٌ بمعــاداةِ المعــاداتِ

والذي عليه في التأليف المدار، وهو حسن الانتقاء والاختيار ، مع الترتيب والتبويب والتهذيب والتقريب. قال بعض العلماء: اختيار الكلام، أشد من نحت السهام . وقالوا : اختيار المرء وافد عقله ، ورائد فضله .

وفضيلة هذا التأليف هي في جمع ما افترق ، مما تناسب واتسق ، واختيار عيون وترتيب فنون ، من أحاديث نبوية ، ومكارم أدبية ، وحكم باهرة ، وأبيات نادرة وأمثال شاردة ، وأخبار واردة ، ووصايا نافعة ، ومواعظ جامعة ، ومروءات سرية ، وسياسات سنية ، ومعان مستظرفة ، وحكايات مستطرفة ، وجميع ذلك مطرد بكل شعر جزل ، سهل ، بريء من الغزل والهزل .

قال الشاعر :

للجدِّ ما خُلِقَ الانسانُ فالتمسن بالجدِّ حقكَ لا باللهوِ واللعبِ

لا خيرَ في الهزلِ فاتركهُ بجملتهِ واهربْ بعرضكَ منهُ غايةَ الهربِ

ما يلبثُ الهزلُ أن يجنى لصاحبهِ ذماً ويُذْهِبُ عنهُ بهجةَ الأدبِ

وإنما يذم ويكره من الكلام ما كان لغواً غير نافع ، وهزلاً عن منهج الجد مانع ، وأما ما ينبه به غافل ، ويعلم به جاهل ، ويذكر به عاقل ، فذاك مما يحسن ويجمل ، ويرجح به عقل سامعه وينبل ، ويقرب ما بعد مأخذه عليه ، ويسهل ما صعب تناوله بالتنبيه والإشارة إليه ، إذ الشكل مضاف إلى شكله ، والجنس إلى جنسه ومثله ، أجعله إن شاء الله مختصراً جامعاً ، وتصنيفاً مفيداً نافعاً ، تصغي إليه الأفئدة والأسماع ، ولا تمله القلوب والطباع ، لأن التطويل داع إلى الملل ، كثيراً ما يقع فيه الخطل والزلل ، وأقسمه على أربعة أقسام :

القسم الأول : في نبذ من الأحاديث والحكم والأمثال ، التي يقوى الشاهد بها ويعظم الاستدلال .

القسم الثاني : في السودد والمروءة ومكارم الأخلاق ، ومداراة الناس ، والتأدب معهم في حالتي الغنى والاملاق .

القسم الثالث : في طرف من الحكايات والآداب ، الصادرة عن أولي الألباب والأحساب .

القسم الرابع : في جمل من الوصايا والمواعظ الحسان ، العظيمةالفائدة والمنفعة لكل إنسان .

وفي كل ذلك ما يحتاجه المتأدب العاقل ، ويحظى بمراعاته المبتدىء والمتدرب الفاضل، فالناظر فيه يجالس صاحباً لا يمل بمجالسته، ويحاضر منه مأموناً غيباً ومشهداً ، يمتعه بفوائده ومؤانسته ، وإني أنبه به ولدي ، وفلذة كبدي، لعل الله عز وجل يرشده به ، ويجذبه إلى سبيل الخير بسببه، إذ في جواز الغفلة على البشر ، ما دعا إلى التنبيه، والتذكير للفطن والنبيه .

قال بعض العلماء : وفي حكم الحكماء، وفي كلام الألباء العقلاء ، من أئمة السلف وصالحي الخلف، الذين امتثلوا في أفعالهم وأقوالهم آداب التنزيل ، ومعاني سنن الرسول ، ونوادر العرب وأمثالها ، وأجوبتها ومقاطعها ، ومباديها وفصولها ، إلى ما صووه من حكم العجم ، وسائر الأمم ، وتقييد أخبارهم ، وحفظ أمثالهم ، وأشعارهم التي هي صوب ألبابهم ، وثمار آدابهم ، ما يبعث على امتثال طرقهم واحتذائها ، واتباع آثارهم واقتفائها، وفي معرفة الأمثال والتمثيل وفهمها ، معادن من العلوم وينابيع من الحكم ، واستكشاف لأسرارهما ، وبلوغ إلى حقائقهما .

روي عن الشعبي [1] أنه قال : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة واحدة ينتفع بها فيما يستقبل من عمره ، ما رأيت أن سفره قد ضاع .

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري من التابعين (١٩ ـ ١٠٣ = ٦٤٠ ـ ٧٢٠ م) ، يضرب المثل بحفظه وهو من رجال الحديث الثقات . كان فقيها وشاعـرا .

ـ الاعـلام ـ

وقد جمعت بعون الله عز وجل في كتابي هذا من الكلام الذي يحصل الانتفاع به ، أنواعاً جمة في فنون مختلفة ،وضروب متفرقة ومعان مؤتلفة، وحسبنا وكفى ما نقلت فيه من آيات التنزيل وكلام النبي المصطفى ، وسميته « بعين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة » والله تعالى الموفق لما فيه له الرضى ، والنجاة لنا في الآخرة والأولى .

وهذا حين ابتدائي بذكر الأقسام وتقييد الكلام ، بحسول الله تعالى وقوته .

القسم الاول

في نبذ من الاحاديث والحكم والامثال
التي يقوى الشاهد بها ويعظم الاستدلال

اعلمْ أن كلام الحكماء ، أكبر من أن يدركه الاحصاء ، ويستوفيه الاستقصاء لكني أورد هذا القسم من الحكم المأثورة، والأمثال المشهورة، والفقر المنظومة والمنثورة ، ما فيه مقنع وكفاية ، وإن كنت لا أدرك من ذلك غاية ، ولا أبلغ إلى نهاية . قال بعضهم : من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ، وإن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة ، والحكمة شجرة تنبت في القلب وتثمر في اللسان ، وهي موقظة للقلوب من سنة الغفلة ، ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة ، ومحييه لها من موت الجهالة ، ومستخرجة لها من ضيق الضلالة ، وقد أثنى الله سبحانه على الحكمة فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) [1] ووصف بها لقمان عليه السلام فقال عز من قائل (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد) [2] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب ليس فيه من الحكمة شيء كبيت خراب ولا عامر له » وقال عليه السلام « الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها قيدها ،

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩ .   (٢) سورة لقمان آية ١٢ .

ثم اتبع ضالة أخرى » . وقال لقمان : إن القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة ، كما تحيا الأرض بوابل المطر .

وقال أبان بن سليم : كلمة حكمة من أخيك خير لك من مال يعطيك ، لأن المال يطغيك ، والكلمة من الحكمة تهديك . وقال بعض السلف : القلوب تحتاج إلى قوتها ، كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الغذاء. وقال بعض الحكماء : الحكمة خلة العقل ، وميزان العدل ، ولسان الإيمان ، وعين البيان . وروضة الأرواح ، ومزاح الهموم عن النفوس ، وأنس المستوحش ، وأمن الخائف ، ومتجر الرابح ، وحظ الدنيا والآخرة ، وسلامة العاجل والآجل .

وقال بعضهم : الحكمة نور الأبصار ، وروضة الأفكار ، ومطية الحلم ، وكفيل النجح ، وضمين الخير والرشد ، والداعية إلى الصواب ، والسفير بين العقل والقلوب ، لا تندرس آثارها ، ولا تعفو ربوعها ، ولا يهلك امرؤ بعد عمله بها .

قال أفلاطون : كما أن لهذه الدنيا شمساً يستضاء بها ، ويعرف بها الليل من النهار ، والأوقات والأشخاص والأجرام ، فكذلك للنفس نور تميز به بين الخير والشر ، وهو الحكمة ، فإن الحكمة أشد ضياء من الشمس ، وإن للنفس صحة وسقماً وحياة وموتا ، فصحتها بالحكمة ، وسقمها بالجهل ، وحياتها بأن تعرف خالقها ، وتتقرب إليه بالبر ، وموتها أن تجهل خالقها وتتباعد منه بالفجور .

وقال بقراط : من اتخذ الحكمة لجاماً ، اتخذه الناس إماماً . قال بعض الحكماء : صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح أسقام البدن ، لفضل الناس على البدن ، لأن البدن آلة للنفس والنفس باقية ، والبدن فان مضمحل ، ومصلحة الباقي والعناية به وتعديله أفضل من إصلاح الفاني ، ومع ذلك فإن اصلاح أنفسنا أسهل وأخف من مؤنة إصلاح أبداننا ، لأن صلاح النفس

إنما هو بالحكمة ، واتباع الآداب بعقلية ،ولزوم العادة الفاضلة المؤدية لمن تمسك بها إلى سبيل الفلاح وطرق النجاح ، لا بدواء مشروب ولا غير ذلك من أصناف العلاجات التي لا تتهيأ إلا بالكلفة العظيمة في البدن والمال ، وإنما هي نتائج العقول والأذهان، وفوائد التجارب في مرور العصور والأزمان ، وأولاها بالتقديم ، وأحقها بالتكريم ، والتعظيم ، ما صدر عن النبي المصطفى الكريم ، وكذلك أيضاً للأمثال مواقع ، في نفوس الأنام، ولذلك ضرب الله سبحانه الأمثال في كتابه الكريم، ويرتبط الكلام في هذا القسم في عشرين فصلاً من المقال : عشرة راجعة إلى بعض حروف المعاني المصدرة بها الآداب والأمثال وعشرة من الأعداد التي تقوم للمستشهد بها مقام الاحتفال . والقصـــد في ذلك الاختصار وترك الاكثار ، ومن الله تعالى نسأل الإعانة والتوفيق ، والهداية إلى سواء الطريق .

فصل إن

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، إن من الشعر لحكمة ، [1] وإن من البيان لسحرا.[2] إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار ، إن الأرواح جنود مجندة . فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف [3] . إن مكارم الأخلاق من أعمال أهل الجنة . إن حسن العهد من الإيمان . إن أحساب أهل الدنيا هذا المال . إن أحسن الحسن الخلق الحسن . إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس . إن لكل دين خلقاً ، وإن خلق هذا الدين الحياء . إن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه . إن الله يحب الرفق في الأمر كلة . إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها . إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء . إن الله عند لسان كل قائل. إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المؤمن. إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من اتقاه الناس لشره . إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض . إن الله حيى كريم يستحي أن يمد العبد يده إليه فيردها خائبة . إن لله عباداً يفزع الناس إليهم في حوائجهم

---

(١) اخرجه البخاري في كتاب الادب . ومسلم في كتاب الايمان .

(٢) أخرجه البخاري في باب النكاح . ومسلم في باب الجمعة .

(٣) اخرجه البخاري في باب الانبياء . ومسلم في كتاب البد .

أولئك الآمنون من عذاب الله. إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. إن لله خزائن للخير والشر مفاتحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير ، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير . إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، وإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله ، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يغنيكم الله . إن الناس لم يعطوا شيئاً أفضل من العفو والعافية فاسألوهما الله . إن الله حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه : رحمتي تغلب غضبي. إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . إن لكل ساع غاية ، وغاية كل ساع الموت. إن الله يحب الملحين في الدعاء . إن ذا الوجهين لا يكون عند لله وجيهاً . إن الصبر يأتي العبد على قدر المصيبة . إن الله يبغض الخصم الألد . إن لله عند قوم نعماً يقرها عليهم ما كانوا في حوائج الناس فإذا ملوها نقلها من عندهم إلى غيرهم إن العبد ليبدي من نفسه ما ستره الله حتى يمقته الله . إن الرجل ليتكلم بالكلمة يرضي بها جلساءه يهوي بها في نار جهنم . إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم . إن المؤمن إذا أنفق على أهله نفقة ، وهو يحتسبها كانت صدقة . إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير .

ومن الحكم المأثورة عن السلف وغيرهم :

إن حب الخير فعل وإن عجزت عنه المقدرة. إن الصواب في الأسد لا الأشد . إن امرأ ليس بينه وبين آدم أحد لمعرق في الموت . إن في ذهاب الذاهبين لعبرة للقوم الغابرين . إن للأمور بغتات فكن منها على حذر . إن ولاية المرء ثوبه ، فإن قصر عنه عرى منه وإن طال عليه عثر فيه . إن من قضاء الحاجة تعجيل اليأس إذا أخطأك قضاؤها . إن الطلب وإن قل أعظم من الحاجة وإن كثرت . إن العدو الشديد الذي لا تقوى

عليه لا ترد بأسه عنك بمثل الخضوع له . إن قديم الحرمة وحديث التوبـة يمحوان ما بينهما مـن الاساءة . إن القدرة تصغر الأمنية . إن العلم عوض كل لذة ومغن عن كل شهوة . إن من السياسة للراعي أن يجز غنمه جزاً لا غنمه جزاً لا يذهب معه الصوف ولا تضيع له الغنم . إن لك في مالك شريكين الحدثان والوارث ، فإن استطعت أن لا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل . إن أضعف الرأي ما سنح في البديهة . إن أحق ما صبرت عليه ما لم تجد سبيلاً إلى دفعه إن المصيبة إذا نزلت إنما هي واحدة ، فإن جزع صاحبها كانت إثنتين . إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ومدبر مربوب ،أن يتبلد رأيه في بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب . إن لكل قوم كلباً فلا تكن كلب أصحابك . إن الله عز وجل وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ، وليعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعقل ولا حيلة . إن أشد الناس غماً الذي نزل غيره في المكان الذي هو أحق به منه .

إن لكل فضل زكاة ، وإن زكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج ، وإن زكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم ، وإن زكاة البلاغة القيام بحجة من قد عجز عن حجته ، وأن زكاة الجاه أن يعاد به على من لا جاه له ، وأن زكاة العلم التعليم لمن قصر علمه .

إن أهل البيت إذا كثروا كان فيهم الغرر والعرر . إن في صلاح مالك بقاء عزك ونماء عرضك. إن من علاقة المؤمن قوة في دين ، وحزماً في لين وإيماناً في يقين ، وحكماً في علم ، وكيساً في رفق ، وعطاء في حق ، وقصداً في غنى ، وغنى في فاقة ، وإحساناً في قدرة وطاعة في نصيحة ، وتورعاً في رغبة ، وتعففاً في جهد ، وصبراً في شدة . إن الرجل ليكون ، أميناً فإذا رأى الضياع خان . إن الوعظ الذي لا يمجـه سمع ، ولا يعدله نفع ، ما يصمت عنه لسان القول ، وينطق بـه لسان

الفعل . إن النفس لأمارة بالسوء ، فإذا جاء العزم من الله كانت هي التي تدعوك إلى الخير . إن الآمال قطعت أعناق الرجال ، كالسراب غر من رآه وأخلف من رجاه . إن الركون إلى الدنيا مع ما يعاين من الموت جهل ، وإن التقصير في حسن الأعمال مع معرفة الثواب عليها عجز ، وإن الطمأنينة إلى كل أحد قبل الإختبار حمق . إن بقاءك إلى فناء ، فخذ من بقائك الذي لا يبقى لفنائك الذي لا يفنى . إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بخلقه وخف على الناس وأحبوه وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على الناس وملوه . إن المرء لن ينال ما يحب حتى يصبر على كثير مما يكره .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إنّ الليالي للأنامِ مناهلٌ ... تُطوى وَتبْسطُ بينَها الأعمارُ
فقِصارهُن معَ الهمومِ طويلةٌ ... وطِوالهنّ معَ السرورِ قِصارُ

غيره :

إنّ الشدائدَ قَدْ تغشى الكريمَ لأنْ ... تبينَ فضلَ سجاياهُ وتوضحهُ
كمبرِّد القينِ إذْ يعلو الحديدَ بهِ ... وليسَ مقصدهُ إلا ليصلحهُ

غيره :

إنّ المروةَ ما علمتَ لفي القناعةِ والخمول
تغدو وليسَ على يديكَ يَدٌ تصولُ ولا تطولُ

غيره :

إنّ للدهرِ صولةً فاحذرَنْها ... لا تبيتَنّ قدْ أمنتَ الدهورا
قدْ ينامُ الفتى صحيحاً فيردى ... ولقد باتَ آمناً مسروراً

غيره :

إن الأهلّةَ للشهورِ خناجرٌ ... بشفارِها تتقرضُ الأعمارُ

فبمـــا يهى بعضُنا بعضـــاً بِهـَا   ومجيئهـــا بذهابِنـــا إنـــذارُ

غيره :

إنَّ الحوايـــجَ ربمـــا أزرى بهـــا   عندَ الذي تقضي لها تطويلها
فإذا ضَمِنتَ لصاحبٍ لكَ حاجةً   فاعلمْ بأنَّ تمامهـَا تعجيلـُها

غيره :

إن في نيـــل المـــنى وشك الردى   وقياس القصد عند السرف
كسراجٍ دهنـــهُ قـــوتٌ لـــه   فإذا غرقته فيـــهِ طفـــى

غيره :

إنَّ المعلـــمَ والطبيبَ كـــلاهُما   لاينصحان إذا هُما لم يُكرما
فاصبرْ لدائكَ إنْ جفوتَ طبيبهُ   واصبرْ لجهلكَ إنْ جفوتَ معلماً

غيره :

إنَّ منْ غضتِ الكلابُ عصـــاهُ   في انتجاعِ الخيامِ والأبوابِ
ثم أثـــرى فكيـــفَ يمنـــحُ شيئاً   فاتقوا اللهَ يـَا ذويِ الألبابِ

غيره :

إنَّ في صحةِ الإخـــاءِ منَ النا   سِ وفي خلـــةِ الوفاء لقله
فـَالبس الناسَ ما استطعتَ على النقصِ وإلا لم تستقمْ لكَ خلـــه

غيره :

إن أخاكَ الصدقُ منْ لمْ يخدعكَ   وإنْ رآكَ طـَالباً سعى معكَ
ومـــنْ يضـــرَ نفسهُ لينفعـــكَ   ومنْ إذا ريبُ الزمانْ صدعكَ
شتتَ شملَ نفسهْ ليجمعكَ

غيره :

إنَّ الهديـــةَ حلـــوةٌ   كالسحرِ تجتلبُ القلوبـــا

تَدني البعيدَ منَ الهوى حتى تصيرهُ قريبا

غيره :

إنَّ معَ اليومِ فاعلمنَّ غداً فانظرْ بما يقتضي مجيءُ غدهِ
ما ارتدَّ طرفُ امرىءٍ بلذته إلا وشيء يموتُ من جسدهِ

غيره :

إن المرايا لا تُريكَ خموشَ وَجهِكَ في صداها
وكذاكَ نفسكَ لا تُريكَ عيوبَ نَفسكَ في هواها

غيره :

إنَّ الرشادَ وإنَّ الغيَّ في قرنٍ بكلِ ذلكَ يأتيكَ الجديدانِ
لا تأمننَّ وإنْ أصبحتَ في حرمٍ إنَّ المنايا بجنبي كلَّ إنسانِ

غيره :

إنَّ النساءَ كأشجارٍ نبتنَ لنا منها المرار وبعضُ المرِ مأكولُ
إنَّ النساءَ متى ينهينَ عنْ خلقٍ فإنه واجبٌ لا بدَّ مفعولُ

غيره :

إنَّ العدو وإنْ أبدى مودتهُ إذا رأى فيكَ يوماً فرصةً وثبا

غيره :

إنَّ المقدمَ في حذقٍ بصنعتهِ أنّى تقدَّمَ فيها فهوَ محرومُ

غيره :

إنَّ الرياحَ إذا ما أعصفتْ قصفتْ عيدانَ نجدٍ ولمْ يعبأنَ بالرتمِ

غيره :

إنَّ الغصونَ إذا قوّمْتَها اعتدلتْ ولنْ تلين إذا قوّمْتَها الخشبُ

غيره :

إنَّ المسرةَ للمساءةِ موعد حقاً ورهنٌ للعشيةِ أو غدِ

غيره :

إنَّ الطبيبَ بطبهِ ودوائهِ لا يستطيعُ دفاعَ محـذورٍ أتى

غيره :

إنَّ الليالي لمْ تُحْسِنْ إلى أحدٍ إلا أساءتْ إليهِ بعدَ إحسانِ

غيره :

إنَّ السماءَ إذا لمْ تبـكِ مقلتها لم تضحكِ الأرضُ عن شيءٍ من الزهرِ

غيره :

إنَّ التباعـدَ لا يضـرُ إذا تقـاربتِ القلـوبُ

غيره :

إنَّ الكريمَ ليخفي عنكَ عسرتهُ حتى تراهُ غنياً وهوَ مجهودُ

غيره :

إنَّ الكـريمَ إذا نابتـهُ نائبـةٌ ألفيتهُ وجميلُ الصبرِ في قرنِ

غيره :

إنَّ الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا منْ كانَ يألفهم في المنزلِ الخشنِ

غيره :

إنَّ السعيدَ لهُ منْ غيره عظةٌ وفي التجاربِ تحكيمٌ ومعتبرُ

غيره :

إنَّ المقامَ على الهوانِ مذلـةٌ والعجزُ آفةُ حيلة المحتـالِ

غيره :

إنَّ من أضعفِ الضعـافِ لـدى اللهِ قويٌ يستضعفُ الضعفـاءِ

غيره :

إنَّ العبيدَ إذا أذللتهمْ صلَحوا على الهوانِ وإنْ أكرمتهم فسدوا

غيره :

إنَّ المنيـةَ والفـراقَ لواحدٍ أوْ توأمانِ تراضعَا بلبـانِ

فصل إنمـــا

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل. إنما شفاء العي السؤال. إنما الأعمال بالنيات [(١)] . وإنما الأعمال بالخواتم [(٢)] . إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم. إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه . إنما أخشى عليكم شهوات الغنى في بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء . إنما يرحم الله من عباده الرحماء إنما يدرك الخير كله بالعقل ولا دين لمن لا عقل له » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

إنما لك من مالك ما أمضيته في حياتك . إنمـــا هو درهمك وسيفك فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك . إنما تأكل ما تشتهي ، والذي لا تشتهيه يأكلك . إنما يرضى بالدون من رضي بالدنيا . إنما يعز الذهب في معدنه . إنما الدنيا شرك فانظر أين تضع قدميك منها . إنما المرء لا يولد عالماً ، وإنما العلم بالتعلم. إنما الكيس الماهر من استسلم في قبضة القاهر . إنما الجزع والإشفاق قبل وقوع الأمر ، فإذا وقع وقع بالرضى

(١) اخرجه البخاري في باب بدء الوحي ، ومسلم في باب الامارة .

(٢) اخرجه البخاري في باب القدر .

والتسليم . إنما تطلب الدنيا لتملك ، فإذا ملكت فلتوهب . إنما يختبر ود الرجل عند الحاجة . إنما اباد القرون انقطاع الحركات والسكون . إنما السلطان سوق ، فما نفق عنده حمل إليه . إنما الناس رجلان : شامت بنكبة أو حاسد لنعمة . إنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها ، ومطية تحسن وتقبح بمتطيها . إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك ، وإنما سمي العدو عدواً لعدوه عليك إذا ظفر بك . إنما يستحق إسم الإنسانيه من حسن خلقه . إنما يحبك من لا يتماق لك ويثني عليك من لا يسمعك . إنما يختبر ذو البأس عند اللقاء وإنما يختبر ذو الأمانه عند الأخذ والعطاء ، وإنما يختبر الأهل عند الفاقه ، وإنما يختبر الأخوان عند النوائب .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إنّمَـــا دنيـــاكَ ساعـــة   فاجعـــل الساعـــةَ طاعـــة
واحذرِ التقصـــيرَ فيهـــا   واجتهـــدْ مقـــدارَ ساعـــة
وإذا أحببـــتَ عـــزاً   فالتمسْ عـــزَّ القناعـــة

آخر :

إنّمـــا الدنيـــا هبـــاتٌ   وعـــوارٌ مســـتردَه
شدةٌ بعْـــدَ رخـــاءٍ   ورخـــاءٌ بعد شـــدّه

آخر :

إنّمـــا هـــذه الحيـــاةُ متـــاعٌ   فالظلومُ الجهولُ منْ يصطفيها
ما مضى فـــاتَ والمؤملُ غيبٌ   ولكَ الساعةُ التي أنتَ فيهـــا

آخر :

إنّما نعمـــةُ دنيـــا متعـــةٌ   وحياةُ المرءِ ثوبٌ مستعارُ
وصروفُ الدهـــرِ في إطبـــاقهِ   خلقة فيها ارتفـــاعٌ وانحدارُ

بينما الناسُ عَلى عليائِهَا إذْ هووْا في هوّةٍ منها فغاروا

آخر :

إنّما للناسِ مِنّا حسنُ خلقٍ ومزاحِ
ولنا ما كان فينا منْ فسادٍ وصلاحِ

آخر :

إنّما تعرفُ الصديقَ إذا ما جئته منْ خلافِ ما يشتهيهِ

آخر :

إنّما الجودَ أنْ تجودَ على منْ هوَ للجودِ منكَ والبذلِ أهل

فصـل إن

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

إن أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا وأطيعوا ما قادكم بكتاب الله[1] . إن دعيتم إلى كراع فأجيبوا . إن يكن شيء مما تعاجون به شفاء ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة من نار تصيب ألماً ، إن أحببتم الله ورسوله فاصدقوا إذا حدثتم ، وأدوا الأمانــة إذا اؤتمنتم ، وأحسنوا جوار نعم الله ، ومن جاوركم .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

إن عجز مالك عن المسكين ، أو دواؤك عن المريض ، أو حيلتك عن استخراج المسجون ، فلا تعجز عنهم رحمتك وعيادتك . إن قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر ، إن شئت أن تعلم كيف صاحبك لك ، فانظر كيف كان لغيرك . إن سفه عليك فاحلم . إن قارضت الناس قارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . إن شوورت فانصح ، وإن عدي عليك فاصفح . إن أردت أن تصل إلى ذروة المجد ، فعليك بحفظ العهد . إن سكت الجاهل يكن عالماً . إن لم تمت لم تفت . إن كان

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا واطيعوا وان استعمل حبشي كان رأسه زبيبة » .

ـ رواه البخـــاري ـ

في الكلام بلاغة ، فإن في الصمت عافية . إن لم يساعدنا القضاءْ ساعدناه . إن يكن الشغل محمدة ، فإن الفراغ مفسدة . إن لم تصلح على تقدير الله عز وجل لم تصلح على تقديرك لنفسك ، إن أحببت أن تطاع ، فلا تحمل ما لا يستطاع . إن شئت أن تكون غنياً وتعيش هنياً مرضياً ، فاقتن العلم .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إنْ شِئْتَ أنْ تفوزَ بمطلوبِ الكرام غدا
فاسلكْ مِنَ العملِ المرضي منهاجـاً
واغلب هوى النفسِ لا يغررْكَ خادعهُ
فكلُ شيءٍ يحيـطُ النفسَ منهاجاً

غيره :

إنْ خانكَ الدهـرُ فكنْ عائذاً بالبيدِ والظلمـاءِ والعـيسِ
ولا تكـنْ عبـدَ المنى إنـهُ رءوس أمـوالِ المفاليسِ

غيره :

إنْ يحسدوني فإني لا ألومهمْ قبلي من الناسِ أهلُ الفضلِ قد حسدوا
فـدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرُنا غماً بما يجـدُ

غيره :

إنْ تأدبتَ يا بُنيَ صَغـيراً كنتَ يوماً تُعَدُ في الكبراءِ
وإذا ما أضعتَ نفسكَ ألفيـتَ كبيراً في زمرةِ الغـوغـاءِ
ليس عطفُ القضيبِ إنْ كانَ رَطباً وإذا كانَ يابساً بسواءِ

غيره :

إنْ كنـتَ متخـذاً خليلاً فتنـق وانتقـدْ الخليـلاَ
مـنْ لـمْ يكنْ لكَ متصفاً في الـودِّ فابغِ بـه بديلاَ
وعليـكَ نفسـكَ فارعهـا واكسبْ لها خُلُقاً جَميلاَ

غيره :

إنْ كانَ مقصدكَ الكمالُ فلا تكنْ أبداً بمَا تَلتذه متهمما
وانصبْ لاحصاءِ العلوم ورعيها تنلِ السعادةَ والمفازَ الأعظما
فأبوكَ آدم قبلَ آثـــر شَهـــوة فإذا بها قد جرعتهُ العلقمـــا

غيره :

إنْ كانَ لا يغنيكَ ما يكفيكـــا فكلُ ما في الأرضِ لا يغنيكا

غيره :

إنْ شئتَ أنْ يسودَ ظنك كلهُ فأجلهُ في هذا السوادِ الأعظمِ

غيره :

إنْ أردتم حوائجاً مـــنْ أناسٍ فتقفوا لهَا الوجوهُ الصباحـــا

غيره :

إنْ تحلى الفتى بمـــا ليس فيهِ فضحَ الإمتحانُ ما يدعيـــهِ

فصـل مـــا

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ما نزعت الرحمة إلا من شقي . ما رزق العبد رزقاً أوسع عليه من الصبر [1] ما نقص مال من صدقة [2] . ما عفا الرجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً [3] . ما هلك امرؤ عرف قدره . ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن . ما كان الرفق في شيء قط إلا زانه ، وما كان الخرق في شيء قط إلا شانه . ما زان اللهعبداً بزينة أفضل من عفاف في دينه وفرجه . ما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مؤنة الناس عليه. ما من عبد إلا وله صيت في السماء ، فإذا كان صيته في السماء حسناً وضع له في الأرض ، وإذا كان صيتـــه في السماء سيئاً وضع لـــه في الأرض. ما من عبد يسلكطريقاً يلتمس به العلم إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة . ما من مسلم ينصر مسلماً إلا نصره الله. وما من مسلم يخذل مسلماً إلا خذله الله . ما من مسلم اطلع على عورة فسترها إلا كان حقاً على الله أن يدخله في ستره . ما من زينة تزين العباد بها أفضل من العقل . ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة . ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من

(١) اخرجه الامام احمد في مسنده .

(٢) أورده الترمذي بلفظ « ما نقص مال عبد من صدقه » .

(٣) اخرجه الامام احمد في مسنده .

أعمالكم فإن يك خيراً فآها آها ، وإن يك شراً فواهاً واهـــا . ما أهدى المرء المسلم لأخيه المسلم هدية أفضل من حكمة يزيده بها هدى ، أو يرده بها عن ردى . ما انتقصت جارحة إنسان إلا كانت زيادة في عقله . ما المبتلي وإن اشتد بلاؤه بأحق بالدعاء من المعافي الذي لا يأمن البلاء » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ما ودك من أهمل ودك ، ولا أحبك من أبغض حبك . ما عصى الله كريم، ولا آثر الدنيا على الآخرة حكيم . ماذاب عن الأعراض كالصفح والاعراض . ما يظهر الود المستقيم إلا من القلب السليم . ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ،أو بهيمة مهملة.ما استنبط الصواب بمثل المشاورة ، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر ما يزيد متزيد في أمره إلا لنقص يجده في نفسه . ما أقرب النقمة من أهل البغي . ما كنت كاتمة عدوك، فلا تطلع عليه صديقك . ما رأيت تبذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع.ما أنصفك من كلفك إجلاله ، ومنعك ماله . ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إذا لم يصدها الهوى . ما الدخان على النار ، ولا العجاج على الريح بأدل من ظاهر الإنسان على باطنه . ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل . ما أعطى رجل من الدنيا شيئاً إلا قيل له خذه ومثله مـــن الحرص . ما مات من أحيا علماً ، ولا افتقر من ملك فهماً . ما عفا عن الذنب من يقرع به . مـــا أكثر من يعرف الحق فلا يطيعه . ما أكثر الدفاتر ، والعمل بها فاتر . ما ظفر من ظفر به الإثم.ما أحب أحد الرياسة إلاحسد وبغى وطغى ، وتتبع عيوب الناس وكره أن يذكر أحد بخير . ما أقبح التكبر عند الإستغناء ، وما أفضح الخضوع عند الحاجة . ما من شيء إلا وهو يحتاج إلى فضوله يوماً ما ، إلا فضول الكلام . ما لا ينبغي أن تفعله إحذر أن يخطر ببالك . ما تواضع في ولايته إلا من كبر عنها ،و لا تكبر

فيها إلا من كبرت عنه . ما فجر غيور قط . مـــا بقي للشيخ من مناسك الحج إلا الوداع . مـــا أسهل الموت عمن أيقن بما بعده ، وأصعبه على من شك فيما بعده .

ومن الشعر في هذا قولهم :

ما ذاقَ طعمَ الغنى من لا قنوعَ لهُ ولنْ ترى قانعاً منْ عاشَ مفتقرا
والعرفُ منْ يأته يحمــد عواقبهُ ما ضاعَ عرفٌ وإنْ أوليتهُ حجرا

آخر :

ما كنت أوفى شبابي كُنه عزته حتّى انقضى فاذا الدُّنيا لهُ تبعُ
ما كانَ أقصرَ أيامِ الشبابِ وما أبغي حلاوةَ ذكراه التي بدعُ
ما واجهَ الشيبُ من عينٍ وإنْ رمقتْ إلا لها نبوة عنهُ ومرتـــدعُ

آخر :

ما هذه الدُّنيــا لطالبهـــا إلاّ بلاءٌ وهوَ لا يدري
إنْ أقبلتْ فسدتْ أمانتـــهُ أو أدبرتْ شغلتهُ بالفكرِ

آخر :

مامن رأى أدباً ولم يعملْ بهِ ويكف عن بعضِ الهوى بأديبِ
حتى يكونَ بما تفهم عامـــلاً من صالح فيموت غير معيبِ
ولقلمـــا تغنى إصابة واعـــظٍ وفعاله أفعالُ غـــير مصيبِ

آخر :

ما مياقُ العالمِ إلا الـــذي يخبرهُ العالـــمُ في المياقِ
ذاكَ الذي يفضحُ أسرارهـم فيظهرُ الفاجـــرُ والمتقـــي

آخر :

ما أرسلَ الأقوامُ في حاجـــةٍ أمضى ولا أنفعُ منْ درهمِ

يأتيكَ عفواً بالذي تشتهــي نعم رسولُ الرجلِ المسلمِ
ما أحسنَ الدنيــا وإقبالـها إذا أطاعَ اللهَ منْ نالَها
منْ لم يواسِ للناسِ منْ فَضْلِها عرض للاقبالِ إدبارها

آخــر :

ما الناسُ إلا معَ الدنيــا وصاحبها وكيفما انقلبتْ يوماً به انقلبوا
يعظمونَ أخا الدنيا فإنْ وثبــتْ يوماً عليه بما لا يشتهي وثبــوا

آخــر :

ما ضاقَ بالمرءِ أمر واستعدَ لهُ عبادةَ اللهِ إلا جاءهُ الفــرجُ
ولا أناخَ ببابِ اللهِ ذوْ ألــمٍ إلا تزحزحَ عنه الهمُ والحــرجُ

آخــر :

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ

آخــر :

ما أنعمَ العيشَ لو أنَّ الفتى حجــرٌ تنبو الحوادثَ عنهُ وهوَ ملمومُ

آخــر :

ما أقتلَ الحرصُ في الدنيا لصاحبهِ وأسمجَ الكبرُ ممن صيغَ منْ طينِ

آخــر :

ما يحرزُ المرءُ منْ أطرافهِ طرفاً إلا تخوفهُ النقصانُ منْ طرفِ

آخــر :

ما كدتُ أفحصُ عنْ أخي ثقــة إلا ذممتُ عواقبَ الفحــصِ

آخــر :

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدركهُ تجري الرياحُ بما لاتشتهي السفنُ

آخــر :

ما في زمانكَ ما يعــزُّ وجودهُ   إنْ رمته إلا صديقٌ مخلصُ

آخــر :

ما كلّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقتها   ولا تجودُ يدٌ إلا بما تجــدُ

آخــر :

ما بينَ طرفةِ عــينٍ وانقلابتهـا   يُقَلَّب الأمر منْ حالٍ إلى حالِ

آخــر :

ما الذلُّ إلا تحمّــلُ المــنَنِ   فكنْ عزيزاً إنْ شئتَ أو فَهِنِ

آخــر :

ما استقامتْ قنــاةُ رأيــي إلا   بعدَ أنْ عوّجَ المشيبُ قنــاتي

آخــر :

ما للطبيبِ يموتُ بالداءِ الــذي   قدْ كانَ يشفي مثلهُ فيما مضى

آخــر :

ما المرءُ إلا كعيرِ السوءِ يضربهُ   سوطُ الزمانِ فلا يجري على السننِ

آخــر :

ما عوّضَ الصبرُ امرءاً إلاّ رأى   ما فاتهُ دونَ الذي قدْ عرضا

فصـــل لا

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« لا يرد القضاء[1] إلا الدعاء . لا يزيد في العمر إلا البر[2] . لا حليم إلا ذو تجربة[3] لا فقر أشد من الجهل ، ولا مال أعون من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة . لا عقـــل كالتدبير ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا ورع كالكف ، ولا عبادة كالتفكر ، ولا إيمان كالحياء والصبر لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له . لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار . لا يغني حذر عن قدر . لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه . لا تصلح الصنيعة إلا عند ذي حسب أو دين ، كما لا تصلح الرياضة إلا في النجيب . لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه : لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً . لا تحقرن من المعروف شيئاً . لا تواعد أخاك معروفاً فتخلفه . لا خير في صحبة من لا يرى لك مثل الذي ترى له . لا أحد أحب اليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك بعث الرسل . لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . لا يوسع في المجلس إلا لذي علم ولذي سلطان .

---

(١) اورده الامام احمد في مسنده بلفظ « ولا يرد القدر الا الدعاء » .

(٢) اخرجه الترمذي وابن ماجة .

(٣) اخرجه الترمذي والامام احمد بلفظ « لا حليم الا ذو عثرة »

لا جزاء للنعمة مثل الشكر . لا تنظروا إلى من هو فوقكم ، وانظروا إلى من دونكم ، فإنه أحرى أن لا تزدروا نعمة الله عليكم . لا يقبل دعاء من قلب لاه أو غافل ، لا يكثر همك فإنه ما يقدر يكون ، وما ترزق يأتيك . لا ينبغي العاقل أن يشغل نفسه بما ذهب عنه ولكن بحظ ما بقي له . لا ترج السلامة لنفسك حتى يسلم الناس منك. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . لا يستقبل العبد يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله. لا تبتذل عرضك فتشتم . لا تظنوا بمؤمن سوءاً . لا تعصوا العقل فتندموا. لا يجتمع الرجاء والخوف في قلب مؤمن إلا أعطاه الله مارجا وآمنه مما يخاف » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

لا يوجد العجول محموداً ، ولا المغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا الملول ذا إخوان. لا يفسدك الظن عن صديق قد أصلحك اليقين له . لا تحقرن شيئاً من الخير وإن كان صغيراً ، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن كان صغيراً فإنك إذا رأيته ساءك مكانه. لا تجهدن فيما لا درك فيه تريح التعب ولا تدخرن المال لبعل عرسك، ولا تظهرن إنكار ما لا عدة معك لدفعه ولا تلهينك قدرة عن كيد وحيلة، ولا تتهاون بالأمر الصغير إذا كان يقبل النمو ، ولا تلاح رجلاً غضبان فإنك تغلقه باللحاج، ولاترده إلى الصواب ، ولا تفرح بسقطه غيرك فإنه لا تدري ما يحدث الزمان بك . لا تضيعن حق أخيك . إدلالاً منك عليه فتبقى بلا أخ. لا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك . لا تطمع في كل ما تسمع. لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فإن الناس لا يسألون في كم فرغ منه وإنما يسألون عن جودة صنعته . لا تطلبن الحاجة إلى كذوب فإنه يقربها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة ، ولا إلى أحمق فإنه يريد نفعك

فيضرك، ولا إلى من له إلى صاحب الحاجة حاجة فإنه يجعل حاجتك وقاية لحاجته. لا تمازحوا فيستخف بكم، ولا تدخلوا الأسواق فتدق أخلاقكم، ولا تترجلوا في العساكر فيزدريكم أكفاؤكم. لا تستنصح مأثوراً وإن استنصحته، ولا تبارز محرجاً وإن كنت أعد منه، ولا تشاور معدماً، وإن وثقت بمودته، ولا تلابس ضنيناً، وإن كنت ضده. لا فائدة أشرف من التوفيق، ولا ميراث أنفع من الأدب، ولا سجية كرم من حسن العبادة. لا تعمل شيئاً من الخير رياء، ولا تتركه حياء، لا تعد الشحيح أميناً فإنه لا عفة مع الشح، ولا تعد الكذاب حراً فإنه لا مروءة مع الكذب. لا تحدث من تخاف تكذيبه، ولا تسأل من تخاف منعه، ولا تعد بما لا تقدر على إنجازه، لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب. لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته. لا تلومن من أساء بك الظن إذا جعلت نفسك هدفاً للتهمة. لا تنكح خاطب سرك. لا تسرع إلى أرفع موضع في المجلس فالموضع الذي ترفع اليه خير من الموضع الذي تحط عنه. لا تذكر الميت بسوء فتكون الأرض أكتم عليه منك. لا حسرة أعظم من نعمة أسديت إلى غير ذي حسب ولا مروءة، لا تصطنع من خانه الأصل، ولا تصحب من فاته العقل لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح، ومن لا عقل له يفسد من حيث يصلح، لا تبت على غير وصية، وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة، فإن الدهر خائن، وكل ما هو كائن كائن. لا تترك الأمر مقبلاً، وتطلبه مدبراً، فإن ذلك من أضعف العقل وقلة الرأي. لا تمكن الناس من نفسك بطول المجالسة، فإن أجرأ الناس على السباع أكثرهم لها معاينة. لا يمنعنك من فعل الحسنة من يزدريها. لا تنال الراحة إلا بالتعب، ولا تدرك إلا بالنصب. لا تؤخر عمل يومك لغدك. لا يدرك الشباب بالخضاب، ولا الغنى بالمنى، ولا العلم بالادعاء. لا تلومن أحداً

على ما يهوى فإن لومك له إغراء . لا يقوم عن الغضب بذل الاعتذار . لا جود مع تبذير ، ولا بخل مع اقتصاد. لا تخرج الغيبة إلا من نفس معيبة. لا تتكلف ما كفيت فتضيع ما وليت . لا تعمل عملاً لا ينفعك . لا كنز نفع من العلم . لا مال أربح من الحلم ، ولا كسب أزين من الأدب ، ولا قرين أشين من البخل ، ولا عقل أحسن من التفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا ردة أليق من الرفق، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا خليل أنصح من الصدق، ولا غنى أشفى من الجمع ، ولا ذليل أذل من الفقر ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهادة خير من القنوع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . لا تشاتم رجلاً ، ولا ترد سائلاً ، فإن هو كريم تسد خلته ، أو لئيم تشتري عرضك منه. لا تقطع أخاك على ارتياب ، ولا تهجره دون استعتاب . لا يعد الغنم غنماً ، إذا ساق غرماً ، ولا الغرم غرماً ، إذا ساق غنماً. لا تحقرن الرأي الجليل ، وإن أتاك به الرجل الحقير ، فإن اللؤلؤة الفائقة ، لا يستهان بها لهوان من أخرجها. لا خير في لذة تعقب ندماً. لا يحملنك الخروج من أمر تخاصت منه على الدخول في أمر لعلك لا تتخاص منه . لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية، ويطيعه في السر .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم : -

لا ييأسُ المرءُ أنْ ينجيـــه ... الناسُ إذا جاءَ بغتة عطبهُ
يسركَ الشيءُ قدْيسوء وكمْ ... نوه يوماً بخاملٍ لقبـــهُ

آخــــر :

لا تُحقـِّر المرءَ إنْ رأيتَ بهِ ... دمامةً أو رثاثةَ الحلـــلِ
فالنحلُ لا شكَ في ضئولتهِ ... يشتارُ منه الفتى جنى العسلِ

آخــر :

لا تمدَحنَّ امرأً حتى تجربــهُ ولا تذمنّهُ منْ غــيرِ تجريبِ
فرُبَّ خدن وإنْ أبدى بشاشتهُ يضحي على خدنهِ أعدى من الذيب

آخــر :

لا تتبعِ النفسَ كل فائتةِ في اللهِ منْ كلّ فائت عوض
واعملْ لأخراكَ غيرَ منخدعِ فإنّ دنياكَ هذهِ عرض
إنْ صحّ أمرٌ من الأمورِ بها لا بدّ أنْ يصيبه مرض

آخــر :

لا تكرهِ المكروهَ عندَ حلولهِ إنّ العواقبَ لم تزلْ متباينة
كم منْ يدٍ لا يستقل بشكرِها للهِ في طي المكارهِ كامنة

آخــر :

لا تذهبنَّ في الأمورِ فرطــاً لا تسألنّ إنْ سألتَ شططا
وكنْ من الناسِ جميعاً وسطاً

آخــر :

لا تحقرنَّ امرأ إنْ كانَ ذا ضعة كم من وضيعٍ من الأقوام قد رأسا
فربَّ قومٍ حقرناهمْ فلم نرهمْ أهلاً لخدمتنا صاروا لنا رؤسا

آخــر :

لا بدَّ للعسرِ منْ يسرٍ يعقبه فخابَ سعى ضعيفٍ ضاقَ مذهبهُ
هونْ عليكَ وكنْ للخيرِ مرتقباً فأبعد الأمر إنْ فكَّرتَ أقربــهُ
ليسَ الحريصُ على رزقٍ بمطلبه كــنْ تيقنَ أنّ الرزقَ يطلبــهُ

آخــر :

لا تغبطنَّ عاملَ السلطانِ في ولايةٍ قد آذنت بحتفــهِ
تراه يحكي دهــره سفينة في البحرِ لا أمنَ لها من خوفهِ

إنْ أدخلتَ من مائهِ في جوفها   أدخاها وماؤها في جوفه

آخــر :

لا شيءَ أسرع من مرِّ الزمانِ فلا   يغررْكَ منه بتأميلِ البقا خدعُ
إذا نظرتَ انصرامَ الدهرِ مثـل لي   أن السنينَ شهورٌ والشهور جمعُ

آخــر :

لا يصلح الناسُ فوضى لا سراةَ لهمْ   ولا سراةَ إذا جهالهم سادوا

آخــر :

لا تعرفنَّ أحــداً فلستَ بواجد   أبداً أضر عليكَ ممن تعرفُ
أما نظيركَ فهوَ حاسدُ نعمةٍ   أو دونَ فذاكَ سؤالٍ يلحفُ
أو فوقَ ذلكَ حالَ دونَ لقائهِ   بواب سوءٍ واليفاعُ المشرفُ

آخــر :

لا تصحبِ الكسلانَ في حاجاتهِ   كم صالحٍ بفسادِ آخرَ يفسدُ
عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ   كالنارِ توضعُ في الرمادِ فتخمدُ

آخــر :

لا تدخلنكَ هجرةُ من سائلٍ   فلخيرِ دهركَ أنْ ترى مسئولا
لا تجبهنَّ بالردِ وجهَ مؤملٍ   فبقاءُ عزكَ أن ترى مأمولا
يلقى الكريمَ فيستدلُّ ببشرهِ   ويرى العبوسَ على اللئيمِ دليلا
واعلمْ بأنكَ لا محالةَ صائرٌ   خبراً فكن خبراً يروقُ جميلا

آخــر :

لا تلمِ المرءَ عـلى فعلـهِ   وأنتَ منسوبٌ إلى مثلهِ
مَنْ ذَمَّ شيئاً وأتى مثلـهُ   فإنمـا يزري على عقلهِ

آخــر :

لا تضرعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ   فإنَّ ذلكَ نقصٌ منكَ في الدينِ

واسترزقِ اللهَ ممـــا في خزائنه ِ   فإنما الأمر بينَ الكافِ والنونِ

آخــــر :

لا تعجــبنَّ لأحمــقٍ   نالَ الغنى من غير كـــدهِ

ولعـــاقلٍ مـــا يستقلُّ   فكلاهــم يسعــى بجــده

آخر :

لا تأمَنِ الدهرَ الخؤو   نَ وخفْ بوادرَ آفته

فالموتُ سهمٌ مرسلٌ   والعمرُ قدرٌ مسافتَــهُ

آخر :

لا ترسلنَّ مقالةً مشهورة   لا تستطيعَ إذا مضتْ إدراكَها

لا تبدينَّ نميمةً أنبئتها   وتحرزنَّ من الذي أنباكَها

آخر :

لا تجلسنَّ ببابِ مــنْ   يأبى عليكَ دخولَ دارهِ

وتقولُ حاجاتي إليــهِ   يعوقُها إنْ لم أدارهِ

واتركهُ واقصدْ ربها   تقضى وربُّ الدارِ كاره

آخر :

لا تمزحنَّ فانْ مزحتَ فلا يكنْ   مزحاً تضافُ به إلى سوءِ الأدبِ

واحذْر ممازحةً تعودُ عداوةً   إنَّ المزاحَ على مقدمةِ الغضبِ

آخر :

لا تغتربَ عنْ وطنٍ   واذكرْ تصاريفَ الجوى

أما ترى الغصن إذا   ما فارق الأصلَ ذوى

آخر :

لا تشاورُ منْ ليسَ يصفيكَ وداً   إنهُ غيرُ سالك بك قصـــدا

واستشر في الأمور كلَّ لبيبٍ   ليسَ يألــوكَ في النصيحة جهـــدا

آخر :

لا تخف بؤساً ولا حرجاً   وانتظرْ منْ سيدٍ فرجاً
وادعهُ ثمَّ ارجُ رحمتهُ   لم يخفْ عبدٌ دعا فرجاً

آخر :

لا تقنطنَّ فانَّ الله ذو كرم   وما عليك اذا تلقاهُ منْ باسِ
إلاَّ اثنتينِ فلا تقربهُما أبداً   الشرك باللهِ والإضرارِ بالناسِ

آخر :

لا تيأسنَّ وإنْ تصعبتَّ المنى   فالصعبُ قد يرتاضُ بعدَ نفارِ
قدْ تَصغُرُ الأشياءُ وهي كبيرةٌ   وتهون وهي عظيمةُ المقدارِ

آخر :

لا تحسب الناسَ سواءً متى   قد اشتهوا فالناسُ أطوارُ
وانظر إلى الأحجار في ضِمنها   ماءٌ وبعضٌ ضمنهُ نارْ

آخر :

لا تغضبنَّ على امرئٍ   أصبحتَ محتاجاً إليهِ
واغضبْ على الطمعِ الذيّ   أرجاكَ تبغي ما لديهِ

آخر :

لا تسألِ المرء عن خلائقه   في وجهه شاهدٌ مِنَ الخبرِ

آخر ؟

لا يبلغ الأعداءَ مِنْ جاهلِ   ما يبلغ الجاهلُ من نفسه

آخر :

لا تجد بالعطاءِ في غير حقٍ   ليس في منع غيرِ ذي الحقِّ بخل

آخر :

لا تنكري عطلَ الكريم منَ الغنى   فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالي

آخر : :

لا تعدنَّ للزمانِ صديقاً　　وأعد الزمانَ للأصدقاءِ

آخر :

لا ترجُ شيئاً خالصاً لكَ نفعهُ　　فالغيثُ لا يخلو منَ العيثِ

آخر :

لا يملأ الأمرَ صدري قبل موقعهُ　　ولا يضيقُ بهِ ذرعي إذا وقعا

آخر :

لا أركبُ الأمرَ ترديني عواقبهُ　　ولا يعاب بهِ عرضي ولا ديني

آخر :

لا عذرَ للشجرِ الذي طابتْ لهُ　　أعراقهُ إلا بطيبِ جناهُ

آخر :

لا تطلبنَّ معيشةً بمذلةٍ　　فليأتينكَ رزقكَ المقدورُ

آخر :

لا تنهِ عنْ خلقٍ وتأتي مثلهُ　　عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

آخر :

لايشبعُ النفسَ شيءٌ حينَ تحرزهُ　　ولا يزال لها في غيرهِ وطرُ

آخر :

لا أسأل الناسَ عمّا في ضمائرهمْ　　ما في ضميري لهمْ مِنْ ذاكَ يكفيني

آخر :

لا تصحبنَّ رفيقاً لستَ تأمنهُ　　بئسَ الرفيقُ رفيقٌ غيرَ مأمونِ

آخر :

لا تجزعنَّ على ما فاتَ مطلبهُ   فلستَ عمركُ للماضي بمرتجع

آخر :

لا تنطقنَّ بما كرهتَ فربّمـــا   نطقَ اللسانُ بحادثٍ فيكون

آخر :

لا تتركُ الحزمَ في شيءٍ تحاذرهُ   فانْ سامتَ فـما في الحزمِ مِن بأس

فصل إياك

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« إياك وما يعتذر منه. إياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله طالباً . إياك ومشارة الناس فانها تظهر العرة ، وتدفن الغرة . إياك واللجاجة فانها ندامة . إياك والمجادلة فانها تحط اعمال . إياك والمعصية فانها من سخط الله . إياك والمزاح [1] فانه يذهب بهاء الوجه . إياك والحرص فانه أخرج آدم من الجنة . إياك والمراء فانه لا تعقل حكمته ، ولا تؤمن فتنته . إياك أن تطيع آثماً . إياك أن تعق آباك . إياك والكلام فيما لا يعنيك . إياك والطمع فانه فقر . إياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب » .[2]

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

إياك والدالة فإنها تفسد الحرمة . وإياك وشرب الدواء ما حملتك الصحة إياك والجزع عند المصائب فإنه مجلبة للهم ، وسوء ظن بالرب وشماتة للعدو . إياك والبخل فإن البخيل خازن لاعدائه . إياك والسلامة في طلب الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها . وإياك والعجز فإنه أوطى مركب . إياك والشفيع المهين فإنه أضعف وسيلة . إياك والإنفاق مع

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمار اخاك ولا تمازحه » أخرجه الترمذي .

(١) اخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ « لا تكثروا الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب » .

الإخفاق إياك ونسيان الحدثان مع أمان الزمان . إياك وإخلاف العدة مع إسعاف الجدة . إياك وسوف مع الخوف . إياك والإسترسال مع الأسفال إياك والطعام مع الطعام . إياك والإغفال مع الإغفال . إياك والسكنى مع ذوي الشحناء ، فخيرك فيهم يطوى ، وشرك يروى . إياك والإخوان الخوان . الطاغين عليك ، الضاحكين إليك ، الحافظي هفواتك أيـــام مصادقتك عدة لأيام مفارقتك . وإياك والمسئلة فإنها آخر كسب الرجل إياك والغضب فإنه يضطرك إلى سوء الإعتذار . إياك ومخاصمة اللجوج الحجوج . إياك ومعاداة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم . إياك وخدمة من شبع من الرياسة ومل من السياسة فإنه يرى كبير مـــا تصنعه في حقه صغيراً وصغير ما يصنعه في حقك كبيراً . إياك والتسويف فإنه بيومك ولست بغدك ، فإن كان غد لك فكس فيه وإن لم يكن لك لم تندم على ما فرطت فيه . إياك والرأي الفطير . إياك والمقام ببلد ليس فيه نهر جار ولا سوق جامعة ولا سلطان عادل . إياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة . إياك والكبر وليكن مما تستعين به على تركه علمك بالذي كنت منه والذي تصير إليه . إياك وإخوان السوء فإنهم يخزنون من وافقهم ويخونون من صادقهم . إياك والعجلة فإن العرب كانت تكنيها أم الندامة . إياك ومفارقة الإعتدال فإن المسرف مقصر . إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن وتورث المحائن . إياك ومشاورة شاب معجب برأيه أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه . إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره إياك وكل جليس لا يفيدك علماً ولا تصيب منه خيراً ، إياك أن تكون ممن يقول بالعقل ، ويعمل بالهوى إياك وصاحب السوء فإنه يحسن منظره ويقبح مخبره » .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إيّاكَ من زللِ اللسانِ فإنّما   عقلُ الفتى في لفظهِ المسموعِ

والمرءُ يختبرُ الإناءَ بنقــرهِ ليرى الصحيحَ به مِن المصدوعِ

آخر :

إياكَ والنخوةَ في ملبــسٍ والبسْ من الأثوابِ أسمالها
تواضعُ الإنسانُ في نفســهِ أشرفُ للنفسِ وأسمى لهــا

آخر :

إيّاك أنْ تحقّرَ الرجالَ فما يدريكَ ماذا تكنهُ الصدفُ
نفسُ الكريمِ الجوادِ باقيةٌ يوماً وإنْ كانَ مسهُ العجفُ
والحرُ حرٌ وإنْ ألمَّ بهِ الضرُ ففيهِ العفــافُ والأنــفُ

آخر :

إياكَ والدنيا الدنيــةَ إنّهــا دارٌ متى سالمتها لم تسلــمِ
تجنّبِ الظلمَ الذي هلكتْ به أممٌ، تودُّ لو أنها لمْ تظلمِ

آخر :

إيّاكَ أنْ تعظَ الرجالَ وقدْ أصبحتَ محتاجاً إلى الوعظِ

فصـــل إذا

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه [1] إذا أحب أحدكم أخـاه فليعلمه [2] . إذا تقارب الزمان انتقي الموت خيار أمتي كما ينتقي أحدكم الرطب من الطبق [3] . إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه ، وأهل بيته . إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم حتى ينفذ قضاؤه وقدره . إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها فيها حاجة . إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد . إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته . إذا خفت الله خوف الله منك كل شيء ، وإذا لم تخف الله خوفك الله من كل شيء . إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين . إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه رشده . إذا أراد الله بعبد خيراً عسله ، وهو أن يذكر بذكر جميل . إذا يسر أحدكم على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . إذا استنصحك أخوك فانصح له . إذا شردك الهوى عن طاعة الله فاكرهه بذكر الموت . إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى فإنه لا يدري ما كتب له من أمنيته .

---

(١) اخرجه ابن ماجه في باب الادب .

(٢) اخرجه الترمذي في كتاب الزهد بلفظ « اذا احب احدكم اخاه فليعلمه اياه » .

(٣) اخرجه البخاري .

إذا جاءكم الزائر فأكرموه . إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه . إذا تثبت أصبت أو كدت تصيب ، وإذا استعجلت اخطأت أو تخطىء . إذا تضايقت المجالس فبين كل كريمين مجلس . إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الماء » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم .

إذا عثر عاثر فاحمد الله أن لا تكونه . إذا أردت أن تفتضح فمر من لا يمتثل أمرك . إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها . إذا طابت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه . إذا أحدث العدو صداقة لعلة ألجأته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة . إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة فمن أعوان نفوذه الحيلة . إذا هدأ غضبك فتكلم . إذا أصابتك مصيبة فاعلم أنه قد يكون أجل منها فلتهونن عليك مصيبتك . إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه والسلاح عند من لا يستعمله والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور . إذا تغافل أهل التفضل هلك أهل التحمل. إذا عدم الإنسان العقل والتوفيق لم يصلح له شيء من أمره . إذا استدناك السلطان فلا تفشين له سراً ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا يجربن عليك كذباً إذا أرسلت الهدية أتتك الحاجة مترضية . إذا ظلمك أحد فارض الله منصفاً فإنه أشد انتصاراً لظلامتك . إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط . إذا أردت أن تعلم خطأ معلمك فجالس غيره . إذا أردت أن تعلم قدر نعمة الله عليك فغمض عينيك . إذا انقطع رجاؤك من صديقك فألحقه بعدوك . إذا أقبلت الدنيا على الإنسان أعطته محاسن غيره ، وإذا دبرت عنه سلبته محاسن نفسه . إذا أردت أن يصلح لك يومك فافتحه بصدقة واختمه بعارفة . إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبنك ذلك فإن زوال الكرامة بزواله . إذا استقمت في جميع أمرك فلا تبان

بمقال غيرك . إذا أغب الزيارة الإنسان أمن الملل من الإخوان . إذا ارتجت المطالب فالصبر يفض غلقها ويرض خلقها ويراوض خلقها . إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها سريعاً . إذا احتاج اللئيم تخاضع ، وإذا استغنى تجبر وتكبر . إذا رمت إذاية غيرك ، فتصور إذايته لك . إذا ظلمت من دونك فلا تأمن عقاب من فوقك . إذا ألم الألم فالمعالجة بالمعالجة . إذا أتاك الخصم ، وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه فلعاه قد فقئت عيناه جميعاً . إذا أردت أن تعلم ما للعبد عند ربه فانظر إلى ما يتبعه من حسن الثناء . إذا أراد الله أن يذل عبده جعل الدين قلادة في عنقه. إذا التذ الوزير بغير الرأي الجزل ومال إلى الهزل فقد تعرض للعزل . إذا وليت سلطاناً فابعد عنك الأشرار فإن جميع عيوبهم منسوبة إليك . إذا أكثرت العتاب كررت العذاب . إذا التبست عليك المصادر ففوض الأمر إلى القادر . إذا ازدحم الجواب عمي الصواب . إذا أردت أن تعلم ما يغلب على الإنسان من قوى الخير والشر فاستشره يدلك رأيه عليه أصح دلالة . إذا احتجت إلى المشاورة فشاور ذوي الحنكة والتجربة من ذوي طبقتك وصناعتك . إذا مكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق في بحره . إذا أسأت فاندم . إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة . إذا ابتلى المرء أتاه الشر يطلبه من كل ناحية . إذا استطالت أيدي العمال يحيق الإختلال ببيوت المال والأموال . إذا اضطررت إلى الكذاب فلا تصدقه ولا تعلمه بأنك تكذبه فينتقل عن وده ولا ينتقل عن طبعه . إذا اجتمع للرئيس المجد والحد والجد والجود فناهيك به . إذا تحكم سلطان الهوى هدم أركان التقوى . إذا وافق هواك رشادك فقد أحرزت معادك . إذا تغير السلطان تغير الزمان . إذا تم العقل نقص الكلام . إذا تزايد الإنسان فضلاً في نفسه إنتقم من عدوه . إذا تواترت على المرء العلل ظهر في جسمه الخلل إذا جاء النص بطل القياس . إذا جهل عليك الأحمق فليس

له صلاح إلا الرفق والتلطف . إذا حان القضاء ضاق الفضاء . إذا رأيتم النعم مستقبلة فبادروها بالشكر قبل حلول الزوال. إذا رأيت الشيب متزايداً فلتكن للآخرة متزوداً . إذا رأيت الشر يتركك فاتركه . إذا فتحت بينك وبين أحد باباً من المعروف فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة . إذا إذا رقت حال الإنسان هان على الإخوان . إذا رضي المرء بالميسور ضرب بينه وبين الأنكاد سور . إذا رأيت من يحسدك وأردت أن تسلم من شره فعم عليه أمورك . إذا أردت شراً بعدوك فاستعرض أخلاقه فإنك لا تجدها بأسرها كاملة ولا بد من أن يلحقها النقص فادخل إليه من عورته فإنه لا يفوتك إذا أنجز رجل ما وعد به من معروف فاحرز فضيلتي الجود والصدق . إذا بلغ المرء في الدنيا فوق مقداره تنكرت أخلاقه للناس . إذا أبصرت العين الشهوة عمي القلب عن الإختيار . إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً إذا زللت فارجع . إذا رأيت إنساناً قد أخطأ فلا تعلمه فإنه يتعلم منك ويغضب عليك . إذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءة ، فإن استويا في المروءة فأكثرهما أعواناً ، فإن استويا في الأعوآن فأسعدهما جداً.إذا طال الأمل في الدنيا قصر العمل في الآخرة إذا ظهر الحيف في الأمم فانتظر السيف من أمم . إذا عدل السلطان في رعيته بلغ في مناويه أقصى أمنيته . إذا غلبتك امرأتك على الأمر فجاهدها إنها عدوك . إذا فسد الزمان كسدت الفضائل ودرت ونفقت الرذائل ونفعت . إذا فاتك العلم فالزم الصمت . إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر المقدرة علية . إذا قيض الله للرجل امرأة كثيرة الحياء جميلة المحيا مساعدة في جميع الأشياء معينة على أمور الدين والدنيا فقد استطاب المحيا . إذا قبح السؤال حسن المنع . إذا سألت فاسأل الله فإنه أقرب من ناجيت وأكرم من راجيت . إذا شاورت العاقل صار نصف عقله لك . إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه وإذا طلبهم فاهرب منه .

إذا وجدت ما فاتك لا تأسف على ما فاتك . إذا وليت ولاية فليكن حظ أخيك منها الكامل الكافي ونصيبه من ثمرها الوافر الوافي . إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان جائراً فله الوزر وعليك الصبر . إذا كنت في غير بلدك فلا تنس نصيبك من الذل كان في الصبي الحياء والرهبة طمع في رشده . إذا كان الغدر في الناس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز ، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق . إذا كانت الحظوظ بالجدود فما الحرص ، وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور ، وإذا كانت الدنيا غرارة فما الطمأنينة . إذا علمت فلا تذكر من دونك من الجهال ، واذكر من فوقك من العلماء . إذا لم يستطع الرجل نيل عظيم إلا باحتمال صغير كان حقيقاً باحتماله . إذا لم تربحك تجارة فاعدل عنها إلى غيرها . إذا لم يكن اللسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير . إذا مدحت شيئاً فاختصر ، وإذا ذممت فاقتصر إذا مسك الضر فالله يكفيك ، وإذا شفاك السقم فالله يشفيك . إذا نزل البلاء فالدعاء يسد بابه ويكف غبابه ويقطع أسبابه . إذا صلحت الساقية صلحت مجاريها . إذا صادف معروفك محله ينبغي لك أن تعد ذلك من نعم الله عليك . إذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون . إذا لم يكن جد ففيم الكد ؟ . إذا زرت منزل أخيك فلم تأكل فيه ولم تشرب فإنما زرت قبره . إذا فضلت محاسن الرجل مساوية فذلك الكامل ، وإذا استوتا فهو المتماسك ، وإذا كانت المساوى أكثر فهو المتهتك . إذا رأيت الرجل يمدحك بما ليس فيك فلا تأمن منه أن يذمك بما ليس فيك . إذا تشاكلت الأخلاق كثر الإتفاق . إذا دخل أحدكم بيتاً فليجلس حيث جلس أهله إذا قلت لصديقك قم فقال إلى أين فليس بصديق . إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه وللمسيء من النكال ما يقمعه بذل المحسن الواجب عليه رغبه وإنقاذ المسيء للحق رهبة . إذا جلست في مجلس ولم تكن المحدث

ولا المحدث فقم . إذا أحسنت القول فأحسن الفعل ليجتمع معك مزية اللسان وثمرة الإحسان . إذا أردتم أن تعلموا من أين أصاب الرجل المال فانظروا فيم لينفقه فإن الخبيث ينفق في السرف .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

إذا ما كنتَ قد أوتيتَ حالاً ... مِنَ الدنيا سعيتَ لنيلِ حالِ
فأنتَ طوالَ دهركَ في عناءٍ ... كثيرَ السيرِ في طلبِ المحالِ

آخر :

إذا ما شئتَ أنْ تدعى حكيماً ... وتلحق بالرجالِ ذوي الكمالِ
فلا تغترّ في الدنيا بشيءٍ ... ولا تخطر لكَ الدنيا ببالِ

آخر :

إذا ما أخٌ تاهَ في ثروةٍ ... وكانَ وصولاً بإملاقهِ
أقامَ لنا لؤمَ أفعالهِ ... شهيداً على لؤمِ أعراقهِ

آخر :

إذا اعتذرَ المسيء إليكَ يوماً ... منَ التقصيرِ عذرَ فتى مقرِ
فصنه عنْ عقابكَ واعفُ عنه ... فإنَّ الصفحَ شيمة كل حرِ

آخر :

إذا نالكَ الدهرُ بالحادثاتِ ... فكنْ رابطَ الجأشِ صعبَ الشكيمة
ولا تهنِ النفسَ عندَ الخطوبِ ... إذا كانَ عندكَ للنفسِ قيمة
فواللهِ ما لقي الشامتون ... بأحسنِ منْ صبرِ نفسٍ كريمة

آخر :

إذ الحادثات بلغنَ المدى ... وكادتْ تضيق بهنَّ المهج
وحلَّ البلاء وقلَّ الوفاء ... فعندَ التناهي يكون الفرج

آخر :

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صديقهُ وضاقَ بهِ عما يريدُ طريقهُ
وقصر طرفِ العينِ عنه كلالةً وأسرعُ فيما لا يحب شقيقـهُ
وذم إليهِ خدنه طعـمُ عودهِ وقد كانَ يستحليه حينَ يذوقهُ

آخر :

إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تلك منفقاً فأنتَ إذاً والمقترونَ سـواءُ
على أنَّ للأمولِ يوماً تباعـةً على أهلها والمقترونَ بـراءُ

آخر :

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً صديقكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبهُ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ تارةً ومجانبـهُ

آخر :

إذا تخلّفـتَ عـنْ صديـقٍ ولم يعاتبـكَ في التخلّفِ
فـلا تعـدْ بعدهـا إليـهِ فإنّمـا وده تكلـفِ

آخر :

إذا حيوانٌ كانَ طعمة ضـده توقاه كالفأرِ الذي يتقي الهرا
ولا شكَ أنَّ المرءَ طعمة دهره فما بالهُ يا ويحهُ يأمن الدهرا

آخر :

إذا ما كنتَ متخـذاً رسولاً فلا ترسلْ سوى حرٍ نبيـلِ
فإنَّ النجحَ في الحاجاتِ يأتي لطالبها عـلى قدرِ الرسـولِ

آخر :

إذا كان دوني منْ بليتُ بجهله أبيت لنفسي أن أقابلَ بالجهلِ
وإن كنتُ أدنى منهُ في الحلمِ والحجا عرفتُ لهُ حقَ التقدمِ والفضلِ

وإنْ كانَ مثلي في محلٍ منِ الحِجا أردتُ لنفسي أنْ أجل عن المثلِ

آخر :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أنـاسٍ كلاكـلـه أنـاخَ بآخرينـا
فقل للشامتـينَ بنـا أفيقـوا سيلقى الشامتونَ كما لقينـا

آخر :

إذا خدمت الملوكَ فالبـسْ منَ التوقى أشـدَّ ملبـسِ
وادخلْ إذا ما دخلتَ أعمـى واخرجْ إذا ما خرجتَ أخرس

آخر :

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً رسولاً وأنتَ بها كلف مغرمُ
فارسلْ حكيماً ولا توصـهِ وذاكَ الحكـيم هوَ الدرهـمُ

آخر :

إذا أذنَ الله في حاجةٍ أتاكَ النجاح بها يركـضُ
فإنْ منعَ اللهُ مـنْ كـونها فلا بدَّ منْ عارضٍ يعـرضُ

آخر :

إذا ما شئتَ أنْ تحيـا سعيـداً وتلقى اللهَ بالعملِ الكـريمِ
فلا تصحبْ سوى الأخيارِ واقطع زمانكَ في مدارسةِ العلومِ

آخر :

إذا ما اصطفيتَ امرأ فليكـنْ شريفَ النجارِ زكي الحسبِ
فنذل الرجالِ كنـذلِ النبـا تِ لا للثمـارِ ولا للحطـبِ

آخر :

إذا هبتْ رياحـكَ فاغتنمها فإنَّ لكلِ خافقـةٍ سكـون
ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيهـا فما تدري السكونَ متى يكون

آخر :

إذا كنتَ ذارأيٍ فكنْذا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرأيِ أنْ تترددا
ولا تمهل الأعداءَ يوماً بقدرةٍ وبادرهم أن يملكوا مثلهُ غدا

آخر :

إذا كنتَ جمّاعاً لمالكَ ممسكاً فأنتَ عليــه خازنٌ وأمــينُ
تؤديه مذموماً إلى غيرِ حامدٍ فيأكلــه عفواً وأنتَ دفــينُ

آخر :

إذاالمرءُأعطى نفسهُكلّما اشتهتْ ولمْ ينهها تاقتْ إلى كلِّ باطلِ
وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي دعته إليهِ منْ حلاوةِ عاجلِ

آخر :

إذا اجتمعَ الإسلام والقوت للفتى وأضحى صحيحاًجسمهُوهوَ في أمنِ
فقد ملكَ الدُّنيا جميعاً وحازَها وحقَّ عليهِ الشكر للهِ ذي المنِّ

آخر :

إذا استوحشتَ مــن رجــلٍ فكنْ منــه عــلى وجــلِ
ولا يغــررْكَ ظاهــره فباطنــهُ عــلى دخــلِ
فقــد تلقــى حمــامَ المــو تِ بينَ الســمِّ والعمــلِ

آخر :

إذا المرء أفشى سرهُ بلسانــهِ ولامَ عليهِ غيرهُ فهوَ أحمقُ
إذاضاق صدرُ المرءعن سرنفسهِ فصدرُ الذي يستودعُالسرَ أضيقُ

آخر :

إذا أظمأتكَ أكــفُّ اللئــامِ كفتكَ القناعةُ شبعاً وريــاً
فكنْ رجلاً رجلهُ في الثرى وهامةُ همتــه في الــثريــا

أيــاً لنائــلٍ ذي ثروةٍ تراهُ بما في يديــهِ أبيــاً
فــإنَّ إراقــةَ مــاءَ الحيــاً ةِ دونَ إراقةَ ماءِ المحيــا

آخر :

إذا لم يكنْ للمرءِ شيخٌ يواسهِ ولا هوَ ذو علمٍ بآفاتِ نفسهِ
فذاكَ غبيٌ ، حائرٌ ، في طريقهِ يروحُ ويغدو في عماياتِ لبسهِ

آخر :

إذا ما عدوكَ يَــوماً سمــا إلى حالــةٍ لم تطق نقضهــا
فقبــلْ ولا تأنفــنَّ كــفهُ إذا أنــتً لمْ تستطعْ عضها

آخر :

إذاأنتَلمتعرضْعنِالجهلوالخنا أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

آخر :

إذا لزمَ الناسُ البيوتَ وجدتهم عماة عن الأخبارِ خرقَ المكاسبِ

آخر :

إذا لــمْ تستطــعْ شيئاً فدعهُ وجــاوزهُ إلى مــا تستطيــع

آخر :

إذا وترت امرأ فاحذرْ عداوتهُ منْ يزرعِ الشوكَ لا يحصد به عنباً

آخر :

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشفتْ لهُ عن عدوٍ في ثيابِ صديقِ

آخر :

إذا ما ماتَ بعضكَ فابكِ بعضاً فإنَّ البعضَ منْ بعضٍ قريبُ

آخر :

إذاالمرءُلميدنسْمنَ اللؤمِعرضهُ فكلٌّ رداءٍ يرتديهِ جميــلُ

آخر :

إذا ما أهانَ امرؤٌ نفسهُ فلا أكرمَ اللهُ مَنْ أكرمهُ

آخر :

إذا محاسني اللاتي أدلُّ بها كانتْ ذنوبي فقلْ لي كيفَ أعتذرُ

آخر :

إذا شجرَ المودة لمْ تجدهُ فغيثُ البرِ أسرعُ في الجفافِ

آخر :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمردا

آخر :

إذا لعبَ الثقيلُ توذعتهُ أكفُّ القومِ خف على الرقابِ

آخر :

إذا مر بي يومٌ ولمْ أتخذْ يداً ولم أستفدْ علماً فماهو من عمري

آخر :

إذا كنتَ تبغي شيمةً غيرَ شيمةٍ جُبِلتَ عليها لمْ تطعكَ الضرائبُ

آخر :

إذا المرءُ أعيتهُ المروءةَ ناشئاً فمطلبها كهلاً عليهِ شديدُ

آخر :

إذا أنتَ لم تزرعْ وألفيتَ حاصداً ندمتَ على التفريطِ في زمنِ البذرِ

آخر :

إذا أبرمَ المولى بخدمةِ عبدهِ تجنى له ذنباً وإنْ لم يكنْ ذنبُ

آخر :

إذا أنتَ حملتَ الخئونَ أمانةً فإنكَ قد أسندتها شرّ مسندِ

آخر :

إذا ما العيشُ عادَ إليكَ ذلاً فإنَّ للعزِّ في الموتِ المـريحِ

آخر :

إذا ما امرؤٌ من ذنبهِ جاءَ تائباً إليكَ ولم تغفرْ لهُ فلكَ الذنبُ

آخر :

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلّبَ عرياناً وإنْ كانَ كاسيا

آخر :

إذاأنتَلم تعصِالهوى قادكَالهوى إلى بعضِ ما فيهِ عليكَ مقالُ

آخر :

إذا ما بدتْ منْ صاحبٍ لكَزلةٌ فكنْ أنتَ محتالاً لزلتهِ عذراً

آخر :

إذالمتصنْ عرضاً ولمْتخشَ خالقاً وتستحي مخلوقاًفماشئتَ فاصنعِ

آخر :

إذا أنتَ جاريتَ السفينه كما جرى فأنتَ سفيهٌ مثلهُ غيرَ ذي حلم

آخر :

إذا ما أجبتَالناسَ في كلِ دعوةٍ دعتكَ إلى الأمرِ القبيحِ المحرمِ

آخر :

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعهَـا فإنَّ المعاصي تزيـلُ النعـم

آخر :

إذا استغنيتَ عن شيءٍ فدعهُ وخذْ ما أنتَ محتـاجٌ إليـهِ

آخر :

إذا لم يأتكَ المعروفُ طوعاً   فدعهُ فالتنزهُ عنهُ مال

آخر :

إذا أنتَ لمْ تنفعْ بودِّكَ أهلهُ   ولم تك بالبؤسِ عدوكَ فابعد

آخر :

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونهُ   وصدقَ مَا يعتادهُ منْ توهّمِ

آخر :

إذا كانَ غيرَ اللهِ للمرءِ عدة   أتته الرزايا منْ وجوهِ الفوائدِ

آخر :

إذا كنتَ في قوم فصاحبْ خيارهمْ   ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

آخر :

إذا أبقتِ الدُّنيا على المرءِ دينهُ   فما فاتهُ منها فليسَ بضائرِ

آخر :

إذا المرءُ لم يحببكَ إلا تكرهاً   بدا لكَ مِنْ أخلاقهِ ما يغالبهُ

آخر :

إذا اشتدَّ عسرٌ فارجُ يسراً فإنهُ   قضى اللهُ أنَّ العسرَ يتبعه اليسرُ

فصــــل مــن

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله [١] . من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين [٢] . من يرد الله به خيراً يجعل خلقه حسناً . من يغفر يغفر الله له ومن يعف يعف الله عنه . من تأني أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد . من يزرع خيراً يحصد رغبة ومن يزرع شراً يحصد ندامة . من أيقن بالخلف جاد بالعطية . من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله . من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه . من سره أن يسلم فليلزم الصمت . من رزق من شيء فليلزمه . من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير . من دعا على من ظلمه فقد انتصر . من تشبه بقوم فهو منهم . من طلب العلم تكفل الله برزقه من لم ينفعه علمه ضره جهله . من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل . من فتح باب خير فلينهزه فإنه لا يدري متى يغلق عليه . من كف لسانه عن أعراض الناس أقاله الله تعالى عثرته يوم القيامة من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . من كان يؤمن بالله

(١) أخرجه مسلم بلفظ « ما تواضع عبدالله الا رفعه الله » .

(٢) اخرجه البخاري في كتاب العلم .

واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت . من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة . من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة . من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب . من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في منهج بر أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم تدحض فيه الأقدام . من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه عنده قوت يومه إنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . من أصبح ولم ينو لأحد سوءاً غفر له . من أكثر من الاستغفار رزقه الله من حيث لا يحتسب . من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر خطؤه . من كثر همه سقم بدنه . من كثر ضحكه استخف بحقه . من حفظ ما بين لحييه وبين رجليه دخل الجنة . من ترك معصية مخافة الله أرضاه الله يوم القيامة . من أمسك بركاب أخيه لا يرجوه ولا يخافه غفر الله له . من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد على الحوض . من قل علمه قل ورعه . من قل ماله ساء خلقه . من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله عز وجل . من كف غضبه كف الله عنه عذابه . من أعان مسلماً كان الله في عونه . من قنع بما رزقه الله دخل الجنة . من شفع شفاعة حسنة آجره الله . من لم تكن له واحدة من ثلاث فلا يحتسب بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله وحلم يكفه عن السفه وحكمة يعيش بها في الناس . من آخذه الله بمعصيته في الدنيا فالله أكرم من أن يعفو عن عبده في الدنيا ثم يؤاخذه في الآخرة . من اعتذر إليه أخوه المسلم فليقبل منه ما لم يعلم كذبه » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

من عرف قدره علا أمره . من استحى من الناس ولم يستحي من نفسه فلا قدر لها عنده . من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر

ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ومن فهم علم . من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه . من أخطأه سهم المنية قيده الهرم . من سره بنوه ساءته نفسه . من استغضب فلم يغضب فإنما هو حمار ، ومن استرضى فلم يرضى فإنما هو شيطان . من كثر ضحكه سقطت مهابته ، ومن لاحى الرجال سقطت كرامته . من طلب ما قبل السلطان والنساء بالغلظة لم يزدد منهما إلا بعداً . من خدم السلطان بلا علم ، واستقلال ، وتجربة ، وكمال كان بمنزلة راكب فيل صعب ، أو سائر في بحر قد خب . من طلب إلى لئيم حاجة كان كمن طلب صيد السمك في المفاوز . من استوضع التاجر من رأس ماله ، فقد استكمل حقه . من اتقى الحساب تورع في الإكتساب . من بلغ الستين فقد قطع منه الوتين . من عامل السلطان بالمكر كافأه بالغدر . من حرمك خيره وحملك مؤنته فلا ترغب في مودته . من أبدى إلى الناس فقره فليس له عندهم قدر . من استغنى عن الناس وقروه وعظموه . من غضب على من يقدر على ضره طال همه وحزنه . من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذراً . من قل عقله كثر هزله. من أصلح سريرته أصلح ولا بد علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس . من عمل للآخرة كفاه الله الدنيا . من استغنى بالله إفتقر إليه الناس . من خان مان ، ومن مان خان ، وتبرأ من الإحسان . من كتم سره جهل عدوه أمره . من نقض عهده ، ومنع رفده ، وأظهر حقده ، فلا خير عنده . من فرح بمدح الباطل ، فقد أمكن الشيطان من نفسه . من أظهر عيب نفسه زكاها . من طاعت له نفسه ، طاع له غيره من أنفق عمره في جمع المال خوف العدم ، فقد أسلم نفسه للعدم . من أحب الحياة لنفسه أماتها . من كرمت عليه نفسه ، صغرت الدنيا في عينه

من سكر من خمرة الدنيا ، هلك في خمار الهوى . من قبل فم اللذة ، عضته أسنان الندامة . من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . من تجرع اللوائم في موافقة الحق ، رد الله تلك اللوائم حمداً ، ومن آثر المحامد في موافقة الحق ، رد الله تلك المحامد ذماً . من أعجب بنفسه فضحها . من وصل رحمه ، وصله الله ورحمه ، ومن أجار جاره ، أعانه الله وأجاره . من بسطه الإدلال ، قبضه الإذلال . من تناسى مساوىء الاخوان دام له ودهم . من بذل ماله ، أرك آماله . من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه . من قل حياؤه ، قل أحباؤه . من لم يشكر لمنعمه ، استحق قطع أنعمه . من أنكر الصنيعة ، إستوجب القطيعة . من قل توقيه كثرت مساويه . من استغنى بالله اكتفى . من انقطع لغير الله تعرى . من كان بقليل الدنيا لا يقنع ، لم يغنه منها ما يجمع . من لم يتناه طلبه دام تعبه . من أمات شهوته ، أحيا مروءته . من صاحب العلماء وقر ، ومن جالس السفهاء حقر . من ساس نفسه ، ساد جنسه . من رضي عن نفسه ، سخط عليه الناس . من استغنى برأيه ضل ، ومن اكتفى بعقله زل . من أفشى سره المصون ، كثر عليه المتآمرون . من كثر مزاحه ، زالت هيبته ، ومن كثر خلافه ، طابت غيبته . من دام كسله خاب أمله . من أوغرت صدره ، استدعيت شره . من أمل أمر أهابه . من فعل ما شاء ، صبر على ما لا يشاء . من دوام الرقاد ، عدم المراد . من عرف معابه ، فلا يلم من أعابه . من لم يكن له من نفسه واعظ ، لم تنفعه المواعظ . من عرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه . من نجا برأسه ، فقد ربح ، من استرعى الذئب ظلم . من أدب ولده صغيراً سر به كبيراً . من أدب ولده أرغم حاسده . من عبس لك وجهه ، فلا تطلبن فضله . من كانت ولايته فوق قدره تكبر ومن كانت ولايته دون قدره تواضع . من استعذب المدح استحق القدح

ومن ترك الكبر استوجب الشكر . من ذهب ماله هان على أهله . من سال صاحبه فوق طاقته ، فقد استوجب الحرمان . من صانع بالمال لم يحتشم من طلب الحاجة . من لم يضن بالحق على أهله فهو الجواد . من لم يصبر على كلمة ، سمع كلمات . من أراد العز والسلامة ، فليلزم ثلاثاً : أن لا يسأل أحداً حاجة ولا شيئاً ، ولا يأكل طعام أحد ، ولا يذكر أحداً بسوء . من امتطى دواب الأمل أوردته موارد التلف . من ركب العجلة لم يأمن الكبوة . من لم يواس الإخوان في دولته خذلوه في عزلته . من لم يتعظ بالناس ، إتعظ به الناس من أخطأ واعتقد أنه على صواب ، فقد أخطأ مرتين . من قل لبه اشتد عجبه . من عرف حق أخيه دام له إخاؤه . من تكبر على الناس ، ورجا أن يكون له صديق فقد غر نفسه . من لم يكن عوناً على نفسه مع خصمه لم يكن عنده شيء من عقدة الرأي . من أقدم على هوى ، وهو يعلم ما فيه من سوء المغبة سلط على نفسه لسان العذل ، وضيع الحزم . من لم يقدم الإمتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندماً . من كسا الحياء ثوبه ستر عن الناس عيبه . من أصلح ماله ، فقد صان الأكرمين : الدين ، والعرض من كرمت عليه نفسه ، لم ينهها ، ومن نازع بها جاهلاً لم يصنها . من لم يرض من الدنيا بالقليل ، وقع منها في غم طويل . من كثر ملقه لم يعرف بشره . من أنس بالله استوحش من الناس . من رجى الفرج لديه كثرت غاشيته . من غضب من غير شيء فسيرضى من غير شيء . من لم يمنع نفسه من الشهوات ، تسرعت إليه الهلكات . من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه . من زال عن أبصار الملوك ، زال عن قلوبهم . من ساء خلقه كثر همه ، ومن كذب ذهب جمال وجهه . من غض بصره عن عيوب الناس غضوا أبصارهم عنه . من نهض إلى المعالي ظفر بالمكان العالي . من لم يسخ نفساً عن الحظ الجسيم للعيب الصغير ، لم يعد شفيقاً

على نفسه ولا صائناً لعرضه . من قصر على شيء عابه . من عز بإقبال الدهر ذل بإدباره . من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب . من ضق صدره إتسع لسانه . من قارب الناس في عقولهم أمن من غوائلهم . من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه . من عرف تقلب الزمان لم يركن إليه من أحب الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغضه أساءها . من أحرز العفاف لم يعدم الكفاف . من كان همه بطنه كان قدره ما يحويه . من سلك الجدد أمن من العثار . من استغنى كرم على أهله . من لم يدار المشط ينتف لحييه . من ترك القهقهة أكرمه الله بالهيبة ، ومن ترك المزاح أكرمه الله بسيما الصالحين ، ومن ترك الفضول أكرمه الله بالخشوع ، ومن ترك التخليط أكرمه الله بالوقار ، ومن ترك التجسس أكرمه الله بالسنة ، ومن ترك الكيفية في الرب برأه الله من الشرك والنفاق ، ومن بحث عن عورات المسلمين فضحه الله في بيته . من غرس العلم إجتنى النباهة ، ومن غرس التزهد اجتنى العز ، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبة ، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة ، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة ، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة ، ومن غرس الكبر اجتنى المقت ، ومن غرس الحرص اجتنى الذل ، ومن غرس الطمع اجتنى الخزي ، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد . من رضي من صلة الإخوان بلا شيء فليواخ أهل القبور . من لا ولد له ، فلا ذكر له ، ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا عقل له ، فلا دنيا له ، ولا آخرة . من خوفك لتأمن ، خير ممن أمنك لتخاف ، ومن سقاك مراً لتبرأ ، خير لك ممن سقاك حلواً لتسقم . من لاحى الناس وما رآهم ، قلت كرامته . من أكثر من شيء عرف به . من صحب السلطان صبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره . من حدث نفسه بالبقاء ، ولم يوطنها على المصائب فعاجز الرأي . من أبطره الغنى ، أذله الفقر . من أوتي نعمة ،

فهو عبدها حتى يعتقه شكرها ، ومن عرفها فقد شكرها ومن شكرها فقد استوجب مزيداً . من لم يملك غضبه لم ينل أربه . من لم يغض لحاجته لم يبلغ حاجته . من لم تحسن خلائقه ، لم تؤمن بوائقه . من حسن خلائقه أنهج إلى الخيرات طرقه ، وأدرك في المكرمات من سبقه . من شح على سره ، فقد أعان على بره ، من نظر في أحواله ، وحرم في أفعاله ، وأقسط في أحكامه ، واقتصر في وفوره واعدامه أعطى الخير بتمامه . من يسر للتوبة لم يمنع المغفرة ، ومن وفق للدعاء لم يحرم الإجابة من حكم فعدل وصبر واحتمل ، وأعطى وبذل ، فقد احتبى بثوب الفضل واشتمل . من لم يقبل مشورة الصديق ، ونصيحة الشفيق ، إستو بل عاقبته ، واستوخم مغبته ، وعاين سوء ما قدمت يداه ، وذاق مرارة ما جناه . من لم يأس على ما فاته أراح قلبه ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه ، ومن عتب على الدهر طالت معتبته ، ومن رضي بالقسم طابت معيشته ، ومن ضعف عقله غلبته شهوته ، ومن أطاع هواه ، أعطى عدوه مناه . من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن . من أنزل نفسه منزلتها أمن عليها سوء الدوائر . من تقهر نفسه جسده ، فإنما جسده قهر لنفسه . من قلل تعلقه بالدنيا ، قلت حسرته عند فرقها . من طاوع طرفه تابع حتفه . من استقبل الأمور أبصر ، ومن استدبرها تحيز . من لم يعرف الموارد كان بالمصادر أجهل . ظن أحبك نهاك ، ومن أبغضك أغراك : من اقتصد في الغنى والفقر ، فقد استعد لنائبة الدهر .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

مَنْ يسألِ الناسَ يحرموهُ وسائلُ اللهِ لا يخيبُ
وكلُّ ذي غيبةٍ يئوبُ وغائبُ الموتِ لا يئوبُ

آخر :

من آنستهُ البلادُ لمْ يَرُمْ منها ومنْ أوحشتهُ لم يقم

ومنْ يَبِتْ والهموم قادحةٌ في صدرهِ بالزنادِ لم يقم

آخر :

مَنْ قالَ لا في حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنّمَا الظالمُ مَنْ يقولُ لا بعدَ نعم

آخر :

من لم يكن كاملاً في العقل والأدب وقد قرأ سالف الأشعار و الكتب
فلا يرومنَّ سلطاناً ولا ملكاً فإنهُ مشرفٌ منهُ على العطبِ

آخر :

من شابَ قد ماتَ وهو حيٌّ يمشي على الأرضِ مشي هالكِ
لو كانَ عمرُ الفتى حساباً كانَ لـه شيبهُ فذلكِ

آخر :

منْ كانَ يبغي الذلَّ في دهرهِ فليطلعِ الناسَ على سرهِ
ما للفتى إنْ خانهُ دهرهُ معولٌ إلا على صبرهِ

آخر :

من عاشَ عيشاً حميداً يستفيد به في دينه ثمَّ في دنياهُ إقبالا
فلينظرنَّ إلى مَنْ فوقهُ أدباً ولينظرنَّ إلى ما دونهُ مالا

آخر :

منْ يسألِ اللهَ فلا ينبغي أنْ يسألَ اللهَ سوى العافية
فهي إذا ما حصلتْ لامرىءٍ غنيـة منْ غيرها كافية

آخر :

منْ لم يكنْ ذا خليل يُفضي إليهِ بسره
ويستريح لديه في خيرِ أمرٍ وشرهِ
فليسَ يعرفُ طعماً لحلوِ شيءٍ ومرّهِ

آخر :

مَـنْ لمْ يكنْ أكثرهُ عقلـهُ   أهلكـهُ أكـثرُ ما فيهِ

آخر :

مَـنْ لم يَعُدْنـا إذا مرضْنا   إنْ ماتَ لم نشهدِ الجنـازة

آخر :

منْ يفعلِ الخيرَ لم يعدم جوازيه   لا يذهبُ العرف بين الله والناس

آخر :

منْ كان مرعى عزمه وهمومه   روضُ الأماني لم يزل مهزولا

آخر :

من يدعِ الحلمَ أغضبهُ لتعرفهُ   لا يعرفُ الحلمَ إلا ساعةالغضبِ

آخر :

من آثرَ البخل عن وفرٍ عن جدة   فقد لعمري أضحى وهو مغبون

آخر :

منْ يكشف الناسَ لا يجدُ أحداً   تصحُ لـهُ منـهُ سرايـرُ

آخر :

منْ لم يؤدبـهُ والداه   أدّبـهُ الليـلُ والنهار

آخر :

منْ يزرع الخيرَ يحصد ما يسربه   وزارعُ الشرّ منكوس على الرأس

آخر :

من لم يكن حسبٌ له منْ نفسه   فهوَ الوضيعُ وإن غدا ابن فلان

آخر :

منْ يحمدِ الناسَ يحمـدوهُ   والناسُ مَنْ عابَهمْ معيب

فصـــل ليس

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ليس الخبر كالمعاينة . ليس في فاسق غيبة. ليس بعد الموت مستعتب ليس منا من لم يوقر الكبير ، ويرحم الصغير [1] ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر . ليس يوم إلا وهو ينادي : ابن آدم : أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل فيه عليك شهيد ، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به ، فإني لو قد مضيت لم ترني . ليس بكذاب من أصلح بين إثنين فقال خيراً أو نما خيراً . ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغني غني النفس [2] . ليسَ شيء خيراً من ألف مثله إلا المؤمن . ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . ليس من العقل الثقة بالظن . ليس الأعمى من عمي بصره ، إنما الأعمى مـن عميت بصيرته . ليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه . ليس من خلق المؤمن الملق . ليس من خلق المؤمن الحسد . ليس منا من لم يؤتمن . ليس منا من غشَّ مسلماً أو ضره » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ليس للئيم مثل الهوان . ليس بعد حكيماً ، من لم يكن لنفسه خصيماً

---

(١) أخرجه الترمذي والامام احمد .

(٢) أخرجه البخـاري ومسلـم .

ليس من العدل سرعة العذل . ليس بخالص ولا لبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله تعالى له مخرجاً . ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فعليك بما ينفعك فالزمه . ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر احتال له ، لكن العاقل الذي يحتال للأمر ولا يقع فيه . ليس للعوج تدبير ، ولا لسيء الخلق عيش ، ولا لمتكبر صديق ليس حسن الجوار كف الأذى ، ولكنه الصبر على الأذى . ليس من أحد وإن ساعدته المقادير بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه ليس للأمور بصاحب ، من لم ينظر في العواقب . ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة . ليس يسير تقويم العسير . ليس الحكيم بكثرة العلم ، إنما الحكيم في الإنتفاع به في العمل . ليس من شرط الحليم أن لا يضجر لكن أن يضجر بوزن . ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها ليس الإنسان الصورة ، إنما الإنسان العقل . ليس من توكل المرء إضاعة الحزم . ليس للجائر جار . ليس من عادة الكرام ، سرعة الإنتقام . ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر ، إنما العاقل الذي يعرف أقل الشرين ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم . ليس بعاقل ولا لبيب من لم يصف ما به إلى الطبيب . ليس الأسير من أوثقه عداه ، إنما الأسير من أوثقه هواه قسراً ، أو أرهقه خسراً .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

ليسَ بالمغبونِ عقلاً مشتري عزٍ بمالِ
إنّما يدخرُ المالَ لحاجاتِ الرجالِ
فاشترِ العزَّ بما شئتَ فما العز بغالِ
فالفتى مَنْ جعلَ الأموالَ أثمانَ المعالي

آخر :

ليسَ الكريم بمنْ يدنس عرضهُ ويرى مروءتهُ تكون بمن مضى

حتى يشيدَ بناءهم ببنائهِ ويزينَ صالحَ ما أتوهُ بما أتى

آخر :

ليسَ في كلِّ ساعةٍ وأوانِ تتأتى صنائعَ الإحسانِ
فإذا أمكنتَ فبادرْ إليها حذراً منْ تعذرِ الإمكانِ
أحزم الناسِ منْ إذا أحسنَ الدهرُ تلقى الإحسانَ بالإحسانِ

آخر :

ليس الأديبُ أخا الرواية للنوادرِ والغريب
ولغز شيخ المحدثينَ أبي نواس أو حبيب
بل ذو التفضلِ والمروءة والعفاف هو الأديب

آخر :

ليس للحاجاتِ إلا من لهُ وجه وقاح
ولسانٌ وبيانٌ وغدو ورواح

آخر :

ليس العدو بشرٍ منَ الصديقِ الحسودِ
فعم أمركَ عنهُ وداره منْ بعيدِ

آخر :

ليس الكريم الذي إن زلَّ صاحبه بثَّ الذي كانَ من أسرارهِ علما
بل الكريم الذي تبقى مودتهُ ويحفظُ السرَّ إن صافى وإن صرما

آخر :

ليس الغبي بسيدٍ في قومهِ لكن سيدَ قومهِ المتغابي

آخر :

ليسَ الذي تكرمهُ لغيرهِ مثل الذي تكرمهُ لنفسهِ

آخر :

لَيسَ لربِ البيتِ في بيتهِ عيشٌ إذا ما فسدَ الأهلُ

آخر :

ليسَ لمنْ ليستْ لهُ حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصبرِ

آخر :

ليسَ منَ الظرفِ والتأدبِ أنْ يسمعَ منكَ الصديقُ ما كرها

آخر :

ليسَ الظريفُ بكاملٍ في ظرفهِ حتى يكونَ من الحرامِ عفيفا

آخر :

ليسَ النعيمَ ولا الشقاءَ بدائمٍ لا بدَّ للاقبالِ منْ إدبارِ

آخر :

ليسَ ارتحالكَ ترتادُ الغنى سفراً بل المقامُ على خسفٍ هو السفر

آخر :

ليسَ ملك الذي يموتُ بملكٍ إنّما الملكُ ملكَ من لا يموتُ

فصـــل رب

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« رب حامل حكمة إلى من هو أوعى منه . رب حامل فقه ليس بفقيه [1] . رب طاعم شاكر أعظم أجراً من صائم صابر . رب مبلغ أوعى من سامع . رب ملوم لا ذنب له . رب دميم الوجه حسنه عند الحاجة ، ورب حسن الوجه دميمه عند طلب الحاجة . رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ورب مهين لنفسه وهو لها مكرم . رب أمن سببه الخوف . رب طرف أنم من لسان . رب صلف أدى إلى التلف رب حيلة أهلكت المحتال . رب صديق يؤتي من جهله لا من نيته » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

رب قول أشد من صول . رب أخ لك لم تلده أمك . رب عجلة تهب ريثاً . رب مغبوط بمسرة هي داؤه ، ومرحوم من سقم هوشفاؤه رب ضيق أفضل من سعة . رب عناء خير مـــن دعة . رب مماول لا يستطاع فراقه . رب طبع صالح فسده مصاحبة الأشرار والسفلة . رب حسن المنظر ، قبيح المخبر . رب مزاح في غوره جد . رب مواصلة أدت إلى تثقيل ، وتخفيف أدى إلى قطيعة . رب صلابة غرست من لحظة

(١) اخرجه الترمذي وابو داود .

ورب حرب شبت من لفظة . رب كلمة سلبت نعمة ، وجلبت نقمة رب وحشة أنفع من أنس . رب وحدة أمتع من جليس . رب منع ألذ من عطاء . رب شوك أمهد من وطاء . رب جهل وقى به علم ، وسفه حمى به حلم . رب صديق أود من شقيق . رب عاجل لذة ، قد أعقبت طول حسرة . رب مستسلم سلم . ومتحرز ندم . رب ساع لقاعد ، آكل غير حامد .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

رُبَّ من أنضجتْ غيظاً صدرهُ قد تمنى لي موتاً لـمْ يطعِ
ويُحيّيني إذا لاقيتُهُ وإذا يخلو لهُ لحمي رقعِ

آخر :

رُبَّ غريبٍ ناصحِ الجنبِ وابنِ أبٍ متهمِ الغيبِ
ورُبَّ غيابٍ لهُ منظرٌ مشتملُ الثوبِ على العيبِ

آخر :

رُبَّ مغروسٍ يعاشُ بهِ عدمتهُ كفُّ مغترسهِ
وكذاكَ الدهرُ مأتمهُ أقربُ الأسياءِ منْ عرسهِ

آخر :

رُبَّ حلمٍ أضاعهُ عدمُ الما لِ وجهلُ غطى عليهِ النعيمُ

آخر :

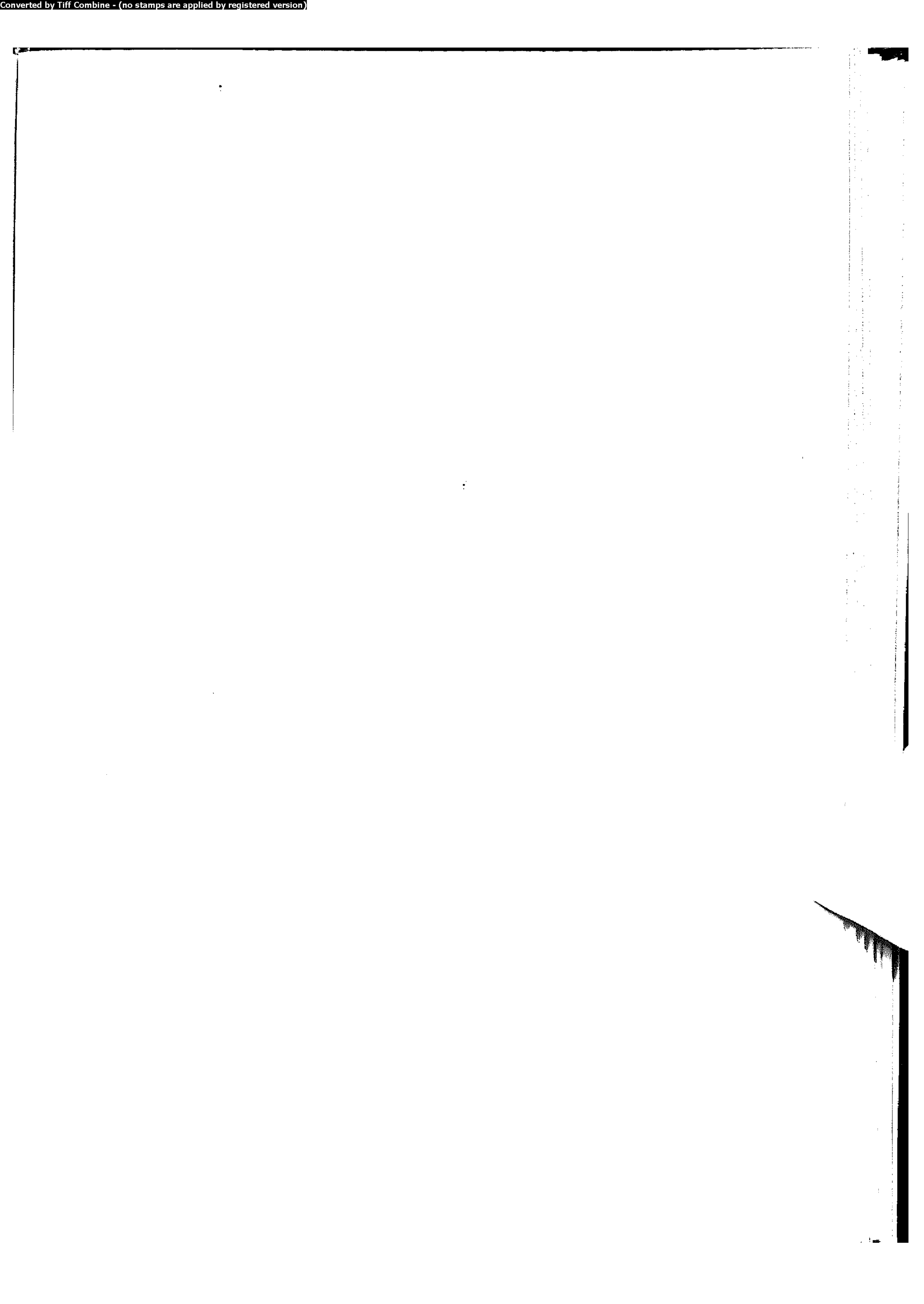
رُبَّ مهزولٍ سمينٍ حسبهُ وسمينُ الجسمِ مهزولُ الحسبِ

آخر :

رُبَّ مكروهٍ مخوفٍ فيهِ للهِ لطائفُ

آخر :

رُبَّ عيرٍ يرعى ويعلفُ في الخصبِ وليثٍ يجوعُ في الصحراءِ

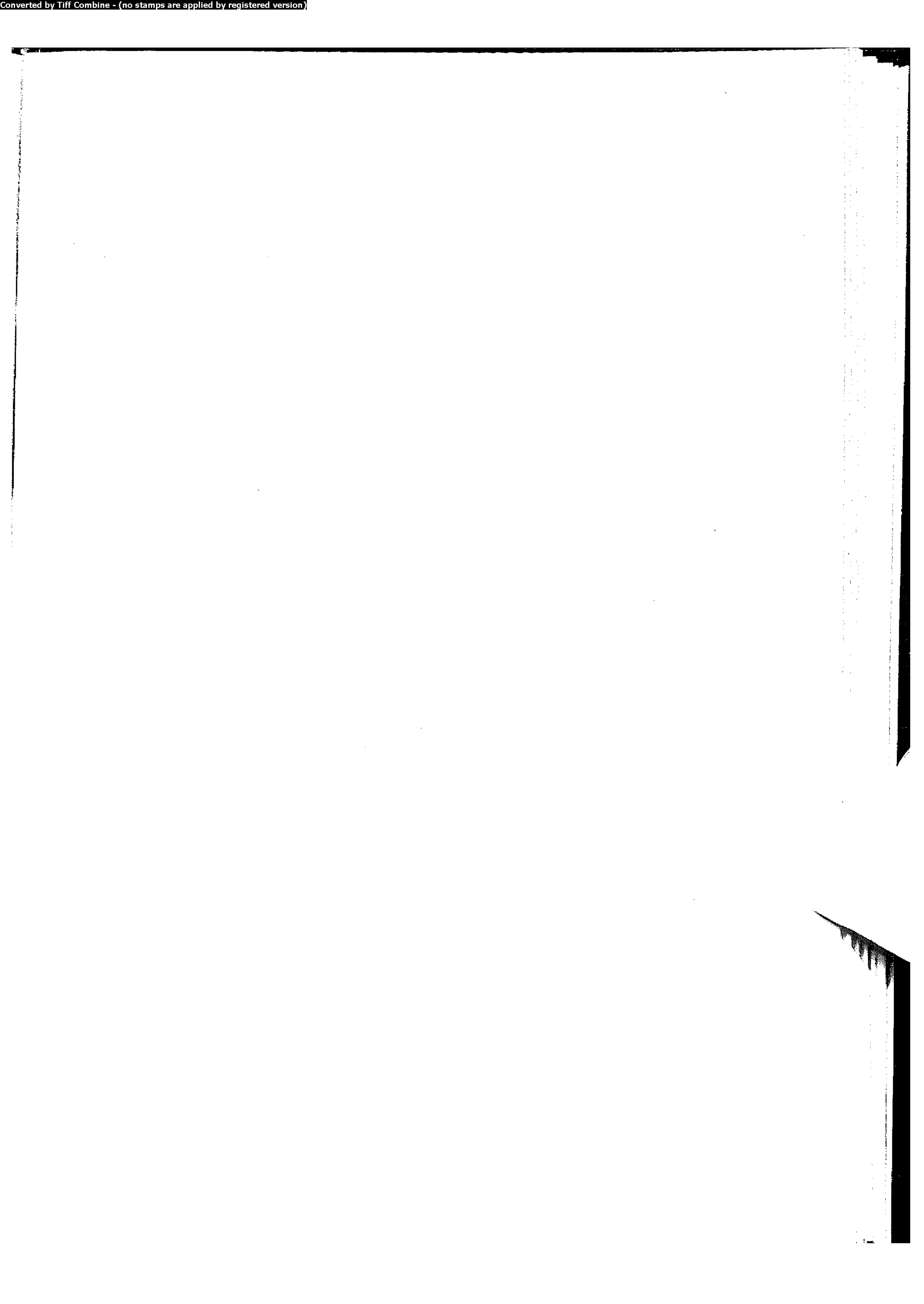


فصول الاعداد

المذكورة قبل

في

الأحاديث ، والحكم ، والشعر



فصـــل واحد

فمن الحديث الوارد في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« طلب الدين أحد العسرين . الزوجة الصالحة أحد الكاسبين . قلة العيال أحد اليسارين . المال أحد الضجيعين » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

إفشاء السر أحد المفسرين . إعلان التوبيخ أحد الضربين . إدمان النظر أحد الفسقين . المطل أحد المنعين . العرى أحد الكفنين . المشفق أحد الوالدين . العين إحدى الرسولين . العشق أحد الرقين الفرار أحد الحمامين المكيدة إحدى الحسامين . الفكرة إحدى الهاديين . اللسان أقطع السيفين الدهر أحد المؤدبين . الشيب أحد الميتتين . حسن الثناء أحد البقاءين . ذهاب العدة أحد الهلاكين . التدبين أحد الثروتين . الزوجة الصالحة أحد الكاسبين . المشورة أحد الدليلين . الميزان أحد الصادقين . القلم أحد اللسانين . سوء الرأي أحد المحاربين . سامع الغيبة أحد المغتابين . البيان أنفذ السهمين . الثروة إحدى الأمارتين . الناصر أحد الساعدين . الطيف أحد الزيارتين . السلو أحد العتيقين . الصبر أحد المفيدين . التثبت أحد الناصحين . التوفيق أحد الدليلين . الزمانة أحد الأسرين . التجارة إحدى الجابيين . الثقة بالله أحد الأمانين . الرد الجميل أحد الجوادين . التودد للناس أحد الحسنيين . الألفة إحدى العمارتين . الإحسان أحد القيدين .

الرحلة بالأدب أحد الزادين . الدار أحد النسبتين . العسر أحد الغربتين . اليسار أحد الوطنين . العدة أحد العطاءين . السلامة أحد العنيمتين . المبلغ أحد الشاتمين .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم :

تأملتُ صورةَ العددِ فمنْ ينظرْ إليهِ هدي
كما الأعدادُ راجعةٌ وإنْ كثرتْ إلى الأحدِ
كذاكَ الخلقُ مرجعهمْ لربٍّ واحدٍ صمدِ

فصـــل اثنين

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ثنتان لا تردان : الدعء عند النداء وعند اليأس[1] حين يلحم بعضه بعضاً . خلقان يحبهما لله ورسوله : الحلم والأناة[2] ، وخلقان يبغضهما الله ورسوله : البخل وسوء الخلق . قطرتان من أفضل الأشياء : قطرة دم في سبيل الله ، وقطرة دمع من خشية الله . خصلتان ليس فوقهما من الخير شيء : الإيمان بالله ، والنفع لعباد الله . غنيمتان غنمهما كثير من الناس : الصحة والفراغ . إثنان ليس في الدنيا أقل منهما ، ولا يزدادان إلا قلة : درهم حلال ، وأخ في الله يسكن اليه . خصلتان لا ثمن لهما : العلـــم ، والعمل الصالح . منهومان لا يشبعان : منهوم في العلم ، ومنهوم في المال ، شيئان لا يجتمعان : الإيمان ، والحسد . شيئان لا يفترقان : الحرص ، والتعب . صنفان من الناس إذ صلحا صلح الناس ، وإذ فسدا فسد الناس : العماء ، والأمراء . ذنبان لا يغفران : البغي ، وقطيعة الرحم . ركعتان في جوف الليل خير من الدنيا وما فيها » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

---

(١) اخرجه ابو داود في كتاب الجهاد والدارمي في كتاب الصلاة .

(٢) اخرجه مسلم في كتاب الايمان بلفظ « خصلتين يحبهما الله الحلم والاناة » .

اثنان يقطعان الظهر : عالم فاسق يصد الناس عن علمه بفسقه ، وجاهل ناسك يدعو الناس إلى جهله بنسكه . اثنان معذبان في الدنيا : رجل أعطى الدنيا فهو بها مشغول متعب ، ورجل فقير زويت عنه الدنيا فهو يطلبها ، ونفسه تتقطع عليها حسرات .شيئان إن أحرزتهما لم تبال ما ضيعت بعدهما : درهمك لمعاشك ، وذينك لمعادك . موطنان لا يعتذر من ألعي فيهما : إذا خاطبت جاهلاً ، أو طلبت حاجة . شيئان لا يعرفان إلا بعد ذهابهما : الصحة والشباب . اثنان ظالمان يأخذان غير حقهما : رجل وسع له في مجلس ضيق فتربع وانتفخ ، ورجل هديت له نصيحة فجعلها ذنباً . خصلتان فيهما خير الدنيا والآخرة : الغنى والتقى ، وخصلتان فيهما شر الدنيا والآخرة : الفقر والفجور . خصلتان من الكرم : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة الأخوان . شيئان العجلة فيهما محمودة : إطعام الضيف إذا حل ، وقضاء الدين . اثنان لا يجتمعان أبداً في بشر : الكذب والمروءة . اثنان يهون عليهما كل شيء : الحكيم الزاهد ، والجاهل الذي لا يدري ما هو فيه . خصلتان لا تجتمعان في منافق : الفقه في الدين ، وحسن السمت . خصلتان يحبهما العاقل ويكرههما الجاهل : الصبر عند النوائب والعفو عند المقدرة . اثنان أعيت الحيلة فيهما : إقبال الأمر إذا أدبر . أمر ان يستصلح بهما المرء دنياه : أدب يقوم نفسه ، واجتهاد يحسن به عيشه ، وأمر أن يستصلح بهما أخراه : عقل يعرف به خطأه من صوابه ورشده من غيه ، ونزاهة يقهر بها هواه ويصرف بها شهوته . ومن الشعر :

اثنان لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحبابِ

فصـــل ثلاثة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ثلاثة من الموبقات فاحذروهن : الحرص والحسد والكبر . ثلاثة لا ترد دعوتهم : الامام المقسط والصائم حتى يفطر والمظلوم . ثلاثة لا يضر معها شيء : الدعاء عند الكرب . والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة . ثلاثة لا يسئل أحد عنها يوم القيامة : ما أنفق في مرضه ، وفي إفطاره ، وما أنفق في قرى ضيفه . ثلاثة من نعيم الدنيا ، وإن كان لا نعيم لها : مركب وطيء والمرأة الصالحة ، والمنزل الواسع . ثلاثة يبغضهم الله : البخيل المنان ، والشيخ الزاني والفقير المختال . ثلاثة مرحومون : عزيز قوم ذل ، وغني قوم افتقر وصاحب دين رجع عن دينه . ثلاثة معانون : المملك حتى يقضي أهله ، والغازي حتى يقضي غزوه ، والحاج حتى يقضي حجه . لا كذب في إحدى ثلاث : الاصلاح بين الناس ، والحرب فإنها خدعة ، والزوجات فيما يبتاعه الزوج . ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة بر من فاجر ، وشريف من دنيء ، وحليم من سفيه . ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن : الحلم عند الغضب ، والشجاع في الحرب ، والأخ عند الحاجة . ثلاثة لا يلامون على سوء الخلق : المريض والصائم والمسافر . ثلاثة يطالبون المرء وإن فر منهم : الموت والرزق والمصيبة . ثلاثة من كن فيه ستر الله كنفه ، وأدخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ،

والاحسان إلى المملوك . ثلاثة من لم يكن فيه واحدة منهن لم يجد طعم الايمان : علم يرده عن جهل الجاهل ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وخلق يدارى به الناس . ثلاثة من أخلاق الايمان : من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل ، وإذا رضي لم يخرجه رضاه من حق ، وإذا سئل لم يعط ما ليس له . ثلاثة من هذه الأمة على منابر يوم القيامة من در وياقوت : التاجر الصدوق في تجارته ، والسلطان العادل في حكومته ، والبار بوالديه . ثلاث للمرء المسلم من دعوته ، إما خير يعجل له في دنياه ، وإما خير يؤخر له إلى آخرته ، وإما يستجاب له . ثلاث علامات للكسلان : يتوانى حتى يفرط ، ويفرط حتّى يضيع ، ويضيع حتى يأثم . ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب . والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى ، وأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . ثلاث ساعات من كان له إلى الله حاجة فليطلبها فيهن : عند زوال الشمس يوم الجمعة تفتح هناك أبواب السماء وتنزل الرحمة وتصوت الطير وتنفث الريح وساعت تغيب الشمس فإن الأعمال ترفع إلى الله تعالى في ذلك الوقت وساعة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ثلاث ساعات للمؤمن : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يروم فيها معاشه ، وساعة يخلي بين نفسه ولذّتها فيما يحل ويجمل . ثلاث من كن فيه فهو منافق : من إذا وعد وأخلف . وإذا حدث كذب ، وإذا أ« تمن خان ، وثلاث من كن فيه ، فهو مؤمن : إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أؤتمن لم يخن . ثلاث من رزقهن فقد جمع له خير الدنيا والآخرة الرضى بالقضاء ، والصبر عند البلاء ، والدعاء في الرخاء ، ثلاث يصفين لك ودأخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه اليه . ثلاث من أعطيهن ، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : الكفاف والقنوع والورع .

ثلاث لن ينفع المرء بعد وفاته إلا هن : صدقة تجري من بعده ، وسنة يعمل بها من بعده ، وولد يدعو له . ثلاث تتبع الميت إلى قبره ، فيرجع عنه اثنان ، وتتبعه واحدة : أهله ، وماله ، وعمله ، فأما أهله وماله فيرجعان ، ويتبعه عمله . ثلاث نهى الله عز وجل عنهن : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال . ثلاث لا يهلك مؤمن معهن : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشفاعتي ، ورحمة الله التي وسعت كل شيء .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل تركها : علم يحث على عمل نافع في المعاد ، وطب يكف به عن البدن الأسقام ، وصناعة يستعين بها على المعاش . ثلاثة لا يتهمون : المخبر عن سقمه ، والمقر على نفسه ، والذي يدعو الناس إلى الأخذ بما يعمل به . العيش في ثلاث : سعة المال ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل . ليس لثلاث حيلة : فقر يخالطه كسل ، وخصومة يداخلها حسد ، ومرض يمازجه هرم . ثلاثة لا يستخف بهم عاقل : السلطان ، والعالم ، والصديق ، لأن من استخف بالسلطان أفسد دنياه ، ومن استخف بالعالم أفسد دينه ، ومن استخف بالصديق أفسد مروءته . ثلاث لا يأنف الكريم من القيام عليهم : أبوه ، وضيفه ، ودابته . للسفر ثلاث عقبات : الأولى العزم ، والثانية العدة ، والثالثة الرحيل ، وأشدهن العزم . ثلاثة مسهرة : قرض فأر ، وأنين مريض ، ووكف بيت . ثلاثة لا راحة لها إلا بالمفارقة : السن المتأكلة المتحركة ، والعبد الفاسد على مولاه ، والمرأة الناشزة على زوجها . ثلاث خصال إذا كن في الرجل فلا تشكن في صلاحه : إذا حمده جاره ورفيقه وقرابته . كدر العيش في ثلاث : الجار السوء ، والولد العاق ، والمرأة السيئة الخلق . ثلاثة الإقدام عليها غرر : شرب السم للتجربة ، وركوب البحر للغنى ، وإفشاء السر إلى النساء . ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلاً : السلطان ، والوالد والغريم .

ثلاثة تزيد في المودة : الزيارة في الرحال ، والمحادثة على الموائد ، ومعرفة الرجل حشم أخيه وخدمه . ثلاثة تنفع في الدنيا مع ثوابها في الآخرة : الحج ينفي الفقر ، والصدقة ترد البلاء ، والبر يزيد في العمر . مطالع العلوم ثلاثة : قلب مفكر ، ولسان معبر ، وبيان مصور . ثلاث من كن فيه فقد أصاب البر : سخاء النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام . يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا بما قد نال ، وحسن الصبر على ما قد فات . ثلاث خلال من بريء منهن نال ثلاثة : من بريءٌ من الشره نال العز ، ومن بريءٌ من البخل نال الشرف ، ومن بريءٌ من الكبر نال الكرامة . ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي ، والنكث ، والمكر . الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة : القدح في الملك ، وإفشاء السر ، والتعرض للحرم . ثلاثة تدل على عقول أصحابها : الرسول ، والكتاب ، والهدية . ثلاث من خير خصال النساء ، وهن من شر خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . العيش في ثلاث : إقبال الزمان ، وعز السلطان ، وكثرة الاخوان . ثلاث من لم يرغب فيهن بلي بست : من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والامتحان ، ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان ، ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران . رءوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الاسلام التي لا تتم النعم إلا بها ، والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها . أولى الناس بالرحمة ثلاثة : البر يكون في تدبير الفاجر فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع ، والعاقل يكون في تدبير الجاهل فهو الدهر متعب مغبون ، والكريم يحتاج إلى اللئيم فهو خاضع ذليل . أسباب الفتن ثلاثة : عين ناظرة ، وصورة ناضرة ، وشهوة قادرة . ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : عبدك ، وولدك ، وزوجتك

الكمال في ثلاثة : الفقه في الدين ، وبر الوالدين ، وحسن تدبير المعيشة . ثلاثة لا يندم فيما سلف اليهم : الله عز وجل فيما عمل له ، والمولى المشكور فيما أسدى اليه ، والأرض الكريمة فيما بذر فيها : ثلاثة لا تكون إلا في ثلاثة : الغنى في النفس ، والشرف في التواضع ، والكرم في التقوى . عليكم بثلاثة : جالسوا الكرماء ، وخالطوا الحكماء ، وسائلوا العلماء . ثلاثة لا يصلح فسادهن شيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في العقول . ثلاثة لا يفسد صلاحهن بنوع من المكر : العبادة في العلماء ، والقنوع في المستبصرين ، والسخاء في ذوي الأخطار . ثلاثة لا يشبع منهن : الحياة ، والعافية ، والمال . ثلاثة أشياء تفسد العقل : طول النظر في المرآة ، والاستغراق في الضحك ، ودوام النظر في البحر . ثلاثة تبطل مع ثلاث : الشدة مع الحيلة ، والعجلة مع التأني ، والإسراف مع القصد . ثلاثة من الأفعال من علامات الأحمق : كثرة الالتفات من غير مناد ولا متكلم ، وسرعة الجواب والمسئول غيره ، والضحك في غير وقته ، ثلاثة من حقيقة الايمان : الاقتصاد في الانفاق ، والابتداء بالسلام ، والإنصاف في الأمور . ثلاث نواطق وإن كن خرسا : كسوف البال دليل على رقة الحال ، وحسن البشر دليل على سلامة الصدر ، والهمة الدنية دليل على الغريزة الردية . الرجال ثلاثة . عاقل ، وفاجر ، وأحمق .

فأما العاقل فالكرم شريعته ، والحكم طبيعته ، وحسن الرأي سجيته ، وإن كلم أجاب ، وإن نسق أصاب ، وإن سمع العلم وعاه ، وإن اطمأن اليه مطمئن رعاه .

والفاجر : إن ائتمنته خانك ، وإن حازيته شانك ، وإن علم العلم لم يتعلم ، وإن ذكر بالله لم يتذكر ، وإن وثقت به لم يرعك ، وإن استكتم لم يكتم .

والأحمق : إن تكلم عجل ، وإن حدث أوهم ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، وإن حمل على قبيح ركبه ، وإن حدث لم يفقه ، وإن حدث لم ينبه .

النساء ثلاث : فهينة لينة عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ، ولا تعين العيش على أهلها ، وأخرى وعاء للولد ، وأخرى غل قمل يضعه الله في عنق من يشاء ، ويفكه عمن يشاء . ثلاثة لا غربة معهن : مجانبة الريب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى . ثلاثة أشياء موكل بها ثلاثة أشياء : الحرمان على المقدم في صنعته ، وتحامل الأيام على ذوي الأدوات الكاملة ، ومعاداة العامة لأهل المعرفة . ثلاثة أشياء من أخذها من الديك تم بها أدبه : سخاؤه ، وشجاعته ، وغيرته . ثلاثة أشياء من أخذها من الغراب تمت بها مروءته : بكوره في طلب الرزق ، وشدة حذره ، وستره سفاده . الناس ثلاث طبقات تسهوسهم ثلاث سياسات ، طبقة من خاصة الأحرار تسوسهم بالعطف واللين والاحسان ، وطبقة من خاصة الأشرار تسوسهم بالغلظة والعنف والشدة ، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة لئلا تحرجهم الشدة ، ولئلا يبطرهم اللين . الرجال ثلاثة : فهين عفيف مسلم يصدر الأمور مصادرها ، ويوردها مواردها ، وآخر ينتهي إلى رأي ذى اللب والمقدرة فيأخذ بقوله ، وينتهي إلى أمره ، وآخر حائر بائر لا يأتمر الرشد ، ولا يطيع المرشد . ثلاثة متقاربة : السفر ، والسقم ، والقتال . فالسفر سفينة الأذى ، والسقم حريق الجسد ، والقتال منبت المنايا . الاخوان ثلاثة : أخ يخلط لك وده ، ويبلغ في مهمك جهده ، وأخ ذو نيه يقتصر بك على حس نيته دون رفده ومعونته ، وأخ يجاملك بلسانه ويتشاغل عنك بشأنه ويوسعك من كذبه وإيمانه . الرقاب ثلاثة : رقبة تملك بالمنن ، ورقبة تملك بالصفع . ورقبة لا ينفع فيها إلا السيف . ثلاثة ما اجتمعت في حر : مباهتة الرجال ، والغيبة للناس ، والملل لأهل

المودة . ثلاثة ليس لهم رأي : صاحب الخف الضيق ، وصاحب المرأة السوء ، وحابس البول . ثلاثة تسمن ولا تؤكل : دخول الحمام ، وعرف البخور ، ولبس الكتان الناعم . ثلاثة تؤكل ولا تسمن : الطلع والجمار والكمأة . الأنس في ثلاثة : صديق تأمن منه في صداقتك ما يرتصدك به عدوك ، وامرأة تسرك إن دخلت عليها وتحفظك إذا غبت ، ومملوك يأتي كل ما في نفسك حتى كأنه يطلع على غيبك . ثلاث تعقب العداوة : المباهتة ، والمفاخرة ، والممازحة . ثلاث تزرى بالمرء : الحسد ، والنميمة ، والطيش . الخير كله في ثلاثة : في السكوت والكلام والنظر ، فكل سكوت لا يكون فكرة فهو سهو ، وكل كلام لا يكون حكمة فهو لغو ، وكل نظر لا يكون عبرة فهو لهو . ثلاث تدل على ضعف العقل : سرعة الجواب ، وطول التمني ، والاغراق في الضحك . ثلاث تفسد المروءة : الشح والحرص والغضب . الرجال ثلاثة : رجل بنفسه ، ورجل بلسانه ، ورجل بماله . ثلاثة يصيرون أجن المجانين ، وإن كانوا أعقل العقلاء : الغضبان والغيران والسكران . الأيادي ثلاث : بيضاء وخضراء وسوداء . فاليد البيضاء : الابتداء بالمعروف ، واليد الخضراء : المكافأة على المعروف . واليد السوداء : المن بالمعروف . تمام المعروف ثلاثة : تعجيله وتصغيره وستره . احذر ثلاثاً : الكبر والغضب والطمع . ارج ثلاثاً : عفو الله عن ذنوبك ، ومحاسن عملك ، وشفاعة نبيك صلى الله عليه وسلم . استحى ثلاثاً : مطالعة الله تعالى وأنت مقيم على ما يكره ، ومن الحفظة الكرام الكاتبين ، ومن صالحي المؤمنين . خذ من الدنيا ثلاثاً : من الكنوز العلم ، ومن الزاد التقوى ، ومن الأعمال العبادة . تلق النعمة من الله بثلاث : كثرة الشكر ، ولزوم الطاعة ، واجتناب المعصية . افزع إلى ثلاث : إلى الله في مهمات أمورك ، وإلى التوبة من مساوى عملك ، وإلى أهل العلم والأدب . أهرب من ثلاث : من الكذاب ، ومن الظالم وإن كان

والدك أو ولدك ، ومن مواطن الامتحان التي تحتاج فيها إلى صبرك . من عرف بثلاث استوجب ثلاثاً : من عرف بالبخل استوجب الذم . ومن عرف بالكذب استوجب المقت ، ومن عرف بالغيبة استوجب الخزي . علامة فضل المرء في ثلاث : الفصاحة والسماحة والرياش . وعلامة همته في ثلاث : إذا رأيته يمشي راكباً ، وسمعته يعرب في كلامه ، وشممت عليه رائحة طيبة . ثلاث هن في ذهاب للعقل أسرع من النار في يابس يابس العرفج : إهمال الفكرة ، وطول التمني ، والاستغراق في الضحك .

ومن الشعر :

ثلاثٌ بها نلتُ المعالي والغنى ... وأصبحتُ معتزَّ الجنابِ مُمولا
طويتُ على قصد المروة باطني ... وفي ظاهري أبديتُ فيه التجملا
وأغضيتُ عما في يد الخلقِ ناظري ... وأبصرتُ ما لله عندي أفضلا

فصـــل أربعة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« أربع من سنن المرسلين : الختان ، والسواك ، والتعطر ، والنكاح[1] . أربع يذهبن ضياعاً : الأكل مع الشبع ، والسراج في القمر ، والزرع في السبخة ، والصنيعة إلى غير أهلها . أربع خصال من سعادة المرء : أن تكون زوجته صالحة ، وولده ابراراً ، وخلطاؤه صالحين ، ومعيشته في بلاده . أربع لو شد اليهن المطايا كان قيلاً : لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه . ولا يستحي الجاهل ان يتعلم ، ولا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم . أربع من كن فيه وجبت له الجنة . من ملك نفسه حين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يغضب ، وحين يشتهي . أربع خصال لن تعدموهن : إذا مس أحدكم ضر فليحدث إخوانه ، فأما مواساة ، أو معونة بجاه . أو مشورة مباركة ، أو دعـــاء مستجاب . أربع لن يجد الرجل طعم الايمان حتى يؤمن بهن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله بعثني بالحق ، وأنه ميت ثم مبعوث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر كله . أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت له خلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم

(١) اخرجه الترمذي والامام احمد .

فجر . الأذلاء أربعة : النمام ، والكذاب ، والمديان ، والفقير . من اجتنب أربعة دخل الجنة : الدماء ، والأموال ، والفروج ، والأشربة . أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . أربع مواطن يستجاب فيها الدعاء ، وتفتح أبواب السماء : عند التقاء الصفين في سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلاة ، وعند رؤية الكعبة » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

أربعة يسود بها المرء : الأدب ، والعلم ، والعفة ، والأمانة . أربعة ينبغي للعاقل أن يمنع نفسه منها : العجلة ، واللجاجة ، والعجب ، والتواني . أربع لا بقاء لها : مودة الأشرار ، والبيت الذي ليس فيه تقدير ، والمال الحرام ، والكسب الذي ليس معه تدبير . أربع لا يستطاع إشباعهن : النار من الحطب ، والبحر من الماء ، والموت من الأرواح ، والشره من المال . أربع إذا كن في الرجل أهلكنه : محبة النساء ، والقمار ، والصيد ، والخمر . أحب الأشياء إلى الله أربعة : القصد عند الجدة ، والعفو عند القدرة ، والحلم عند الغضب ، والرفق بعباد الله في كل حال . الناس أربع طبقات بين إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمن لم يكن منهم كان كلا عليهم . أربع فيهن العلم كله . أولها أن تعرف ربك ، والثاني أن تعرف ما صنع بك ، والثالث أن تعرف ما أراد منك ، والرابع أن تعرف ما يخرجك من ذنبك . أربعة أعداء للمؤمن : شيطان يضله ، وكافر يقاتله ، ومنافق يفتنه ، ومؤمن يحسده . أربع كلمات اجتمعت العرب والعجم عليها : لا تحملن على قلبك مالا يطيق ، ولا تعملن عملاً ليس لك فيه منفعة ، ولا تثق بامرأة ، ولا تغتر بمال وإن كثر . أربع من يهز العمر وربما قتلن : الحمام على البطنه ، والمجامعة على الامتلاء ، وأكل القديد الجاف ، وشرب الماء البارد على الريق . أربعة تذهب ماء

الوجه : الكذب ، والوقاحة ، والتكبر ، والنظر إلى المقتول . أربعة تزيد ماء الوجه : الوفاء بالعهد ، والكرم ، والكلام الطيب ، وطاعة الله سبحانه وتعالى . أربع تدل على حمق الرجل : طول لحيته ، وشناعة كنيه ، وإفراط شهوته ، ونقش خاتمه . أربعة لا تدرك بأربع : الشباب بالخضاب والغنى بالمنى ، والبقاء بالدواء ، والصحة بالحمية . أربع من كنوز البر : كتمان الفاقة ، وكتمان المصيبة ، وكتمان الوجع ، وكتمان السر . لا ينبغي للعاقل أن يخلي نفسه من أربع : عدة لمعاد ، وإصلاح لمعاش ، وفكر يقف به على ما يصلحه مما يفسده ، ولذة في غير محرم يستعين بها على الحالات الثلاث . أربع ترفع الرجل إلى أعالي الدرجات وإن قل علمه : الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلق . أربعة أشياء لا تطلبها في آخر الزمان فإنك لا تجدها : لا تطلب عالماً يعمل بعلمه فتبقى جاهلاً ، ولا تطلب طعاماً بغير شهية فتبقى جائعاً ، ولا تطلب صديقاً بغير عيب فتبقى وحيداً ، ولا تطلب عملاً بغير رياء فتبقى بلا عمل . أربعة لا يزول معها ملك : حفظ الدين ، واستكفاء الأمين ، وتقديم الحزم ، وإمضاء العزم . وأربعة لا يثبت معها ملك : غش الوزير ، وسوء التدبير ، وخبث النية ، وظلم الرعية ، أربعة تؤكد المحبة : حسن البشر ، وبذل البر ، وقصد الوفاق ، وترك الشقاق . أربعة من علامات الكرم : بذل الندى ، وكف الأذى ، وتعجيل المثوبة ، وتأخير العقوبة . وأربعة من علامات اللؤم : إفشاء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الاخوان ، وإساءة الجوار : أربعة من علامات الايمان : حسن العفاف ، والرضى بالكفاف ، وحفظ اللسان ، واعتقاد الاحسان . أربعة تتولد من أربعة : الشر من الممازحة ، والبغض من المكادحة ، والوحشة من الخلاف ، والنبأة من الاستخفاف . أربعة لا تنتصف من أربعة : الشريف من الدنيء ، والرشيد من الغوى ، والبر من الفاجر ، والمنصف من الجائر . أربعة تؤدي إلى أربعة : الصمت إلى

السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة . أربعة تعرف بأربعة : الكاتب بكتابته ، والعالم بجوابه ، والحكيم بأفعاله ، والحليم باحتماله . أربعة لا تستغني عن أربعة : الرعية عن الساسة ، والجيش عن القادة ، والرأي عن الاستشارة ، والعزم عن الاستخارة ، أربعة تقوي البدن : أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل ، من غير جماع ، ولبس الكتان . أربعة تمرض الجسم : الكلام الكثير ، والنوم الكثير ، والأكل الكثير ، والجماع الكثير . أربعة تقوي البصر : الجلوس مستقبل القبلة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، وتنظيف المجلس . أربعة توهن البصر : النظر إلى العدو ، والنظر إلى المصلوب ، والنظر إلى فرج المرأة ، والجلوس مستدبر القبلة . أربعة تزيد في العقل : ترك فضول الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين . والعلماء . أربعة يفرح بها القلب : النظر إلى الخضرة والنبات ، وإلى زرقة السماء الصاحية ، وإلى المحبوب ، والقعود على طرف ماء جار . أربع يفنين العمر ، وإن لم يفن : قلة ذات اليد ، وفساد الولد ، وسوء الخلق ، وفقد الاخوان . أربع خصال تلزم قلب من كانت الدنيا همه : فقر لا يدرك غناه ، وهم لا ينقضي مداه ، وشغل لا تنفد أولاه ، وأمل لا يبلغ منتهاه . من أعطى أربعاً لم يحرم أربعاً : من أعطى الشكر لم يحرم المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يحرم القبول . ومن أعطى الاستخارة لم يحرم الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يحرم الصواب . أربعة لا يقدر على مكافأتهم : رجل بات ، وحاجته تغلغل في مفاتيح صدره حتى أصبح فقصدك بها ، ورجل أفشى إليك سره ، فوضعك مكان قلبه ، ورجل ابتدأك بالسلام ، ورجل دعوته فأجابك . أربعة إذا أفسدهم البطر : لا تزيدهم التكرمة إلا فساداً ، الزوجة ، والولد ، والخادم ، والرعية . أربعة ترتفع الرحمة عنهم إذا نزل بهم المكروه : من كذب طبيبه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى

ما لا يستقل بأعبائه ، ومن بذل ماله في لذاته ، ومن أقدم على ما حذر من آفاته . السعادة أربع : سلامة الخلقة ، وجودة العقل ، وتأتي المطلوبات والمحبة في الناس ، الجماع أربعة : فالأول شهوة ، والثاني لذة ، والثالث شفاء ، والرابع داء . الرجال أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فسلوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه . الناس في الخير أربعة : منهم من يفعله ابتداء وهو الكريم ، ومنهم من يفعله اقتداء وهو الحكيم ، ومنهم من يتركه استجماماً وهو الرديء ، ومنهم من يتركه حرماناً وهو الشقي . أركان الدين والدنيا أربعة : الصبر ، والصدق ، والحلم ، والوفاء . أربعة لا يدري قدرها إلا أربعة : لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى ، ولا قدر الصحة إلا المرضى ، ولا قدر العافية إلا أهل البلاء ، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء . أربعة لا يطاقون : عبد ملكَ ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت ، ومن الشعر :

بأربعةٍ أرجو نجاتي وأنها لأكرم مذخور لديَّ وأعظمُ
شهادةٌ إخلاصي وحبي محمداً وحسن ظنوني ثم إني مسلمُ

فصـــل خمسة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« خمس لا يجتمعن إلا في مؤمن حقاً : النور في القلب ، والفقه في الاسلام ، والورع في الدين ، والمودة في الناس ، وحسن السمت في الوجه . خمس يفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والنظرة بالشهوة ، واليمين الغموس . خمس دعوات لا ترد : دعوة الغازي حتى يرجع ، ودعوة المريض حتى يبرأ ، ودعوة المظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، ودعوة الرجل لأخيه بظهر الغيب . خمس لا يتعداهن كل عبد : عمله ، وأجله ، وأثره ، ورزقه ، ومضجعه . خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منهن فلا إيمان له : التسليم لأمر الله ، والرضى بقضاء الله ، والتفويض إلى الله ، والتوكل على الله ، والصبر عند الصدمة الأولى . خمس يقبحن في خمسة مـن الناس : الفتوة في الشيخ ، والحرص في القارىء ، وقلة الحياء في ذي الحسب ، والبخل في الأغنياء ، والحدة في ذوي القدرة . خمس خصال من السعادة : اليقين في القلب ، والورع في الدين ، والزهد في الدنيا ، والحياء ، والعمل . وخمس خصال من الشقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل . خمس تجب للمسلم على أخيه : رد السلام ، وتشميت العاطس ، وإجابة الداعي ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

خمسة تقبح بخمسة : ضيق الذرع بذي المال ، وسرعة الغضب بالعلماء ، والبذاء بالنساء ، والمرض بالأطباء ، والكذب بالقضاة . لا تتم مروءة الرجل إلا بخمس : أن يكون عالماً ، عاقلاً ، صادقاً ، ذا بيان ، مستغنياً عن الناس . مفاتيح الأرزاق خمس : حسن الخلق ، وحسن الجوار ، وكف الأذى ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة . خمسة من الأطعمة لوازم ، الوليمة : والعقيقة ، والعذيرة والعتيرة والنقيعة ، فالوليمة طعام الأعراس والأملاك ، والعقيقة طعام أسبوع المولود والعذيرة طعام الختان والعتيرة الطعام الذي يبعث إلى أهل الميت . والنقيعة أن تكون بين القوم عداوة فيصلح بينهم فيجتمعون على طعام انتهى . والنقيعة أيضاً : طعام القادم من السفر .

قال علي رضي الله عنه : خمس خذوها عني ، ألا لا يرجون أحد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ،ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده ، وإذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . خمسة مرحومون : عزيز ذل ، وغني قل ، وحبيب مل ، وفصيح كل ، وفقيه ضل . ومن الشعر :

أقبلْ على صلواتكَ الخمس — كم مصبحٍ عساهُ لا يمسى
واستقبلِ اليومَ الجديدَ بتوبةٍ — تمحو ذنوبَ صحيفةِ الأمسِ

فصــــل ستة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

ست خصال من لقي الله تعالى ولم يعمل بهن دخل الجنة : لم يشرك بالله شيئاً ، ولم يسرق ، ولم يزن ، ولم يرم محصنة ، ولم يعص ذا أمر ، ويقول الحق أو يصمت . ست ليال أجهدوا فيهن أنفسكم : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة عرفة ، وأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء . ست خصال في الزنا : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ، فأما اللواتي في الدنيا ، يذهب بنور الوجه ، ويقطع الرزق ، ويسرع الفناء . وأما اللواتي في الآخرة : فغضب الله تعالى ، وسوء الحساب ، والدخول في النار . ست خصال اكفلوهن لي أكفل لكم الجنة : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والبطن ، واللسان ، والفرج . ست من المروءة : ثلاثة منها في الحضر تلاوة القرآن ، واتخاذ الاخوان ، وعمارة المساجد . وثلاثة منها في السفر بذل الزاد ، وحسن الخلق ، والمزاج في غير معاصي الله .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ست خصال من كن فيه فهو إنسان كامل : الألفة ، والحيــاء ، والأدب ، والأنفة ، والشكر ، والرجاء . ستة لا بقاء لها : ظل الغمام ،

وخلة الأشرار ، وعشق النساء ، والمال الكثير ، والسلطان الجائر ، والثناء الكاذب . ستة من علامات الجاهل : الثقة بكل إنسان ، وأن لا يميز عدوه من صديقه ، وأن يفشي سره إلى كل أحد من الناس ، وكثرة الكلام فيما لا يعنيه ، والغضب من غير شيء ، ووضع الشيء في غير محله . فروع الشر ستة : حب الدنيا ، وحب الرياسة ، وحب الثناء ، وحب الشبع ، وحب النوم ، وحب الراحة . ستة لا تفارقهم الكآبة : حديث عهد بغنى ، ومكثر يخاف على ماله ، وطالب مرتبة فوق قدره ، والحسود ، والحقود ، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب . من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً : من عرف ربه فأطاعه ، وعرف شيطانه فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها ، ومن الشعر :

ست بليت بها والمستعاذُ به ... من شرها من اليه الخلق يبتهل
نفسي وإبليس والدنيا التي فتنت ... من قبلنا والهوى والحرص والأمل
إن لَمْ تكنْ منكَ يا مولاي واقية ... من شرها فقد أعيت عبدكَ الحيل

فصـــل سبعة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يرجع اليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه[1] . سبعة لعنهم الله : الزائد في كتاب الله ، والمكذب بقدر الله ، والمستحل بحرم الله ، والمستحل من غير شيء ما حرم الله ، والمتعدي بالجبروت ليذل ما أعز الله ، والمؤذي لأهل بيتي ، والتارك لسنتي » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

سبع خصال من كانت فيه لم يعدم سبعاً : من كان جواداً لم يعدم الشرف ، ومن كان ذا وفاء لم يعدم المنة ، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول ، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم السودد ، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة . اللذا ت اللاتي لا يمللن سبع : خبز البر ، ولحم الضأن

(١) اخرجه البخاري في كتاب الاذان .

والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطيء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء سبع خصال لا توجد معهن غربة : حسن الأدب ، واجتناب الريب ، وكف الأذى ، وسعة الخلق ، واحتمال الصبر ، وجميل العشرة ، وصحبة الناس على أخلاقهم .

ومن الشعر :

جاءَ الصيام ومن صاداته بيدي سبع فقد أكسبتني بالقبولِ ثقة
صوفيتي وصفائي في صلاحيتي والصبر والصون ثم الصدق والصدقه

فصـــل ثمانية

قال المؤلف : لم أجد في هذا الفصل حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لإبنه الحسن رضي الله عنه : يا بني إحفظ عني هذه الثمانية خصال لا يضرك ما عملت بهن شيء ، أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق ، وإياك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه يقرب لك البعيد ، ويبعد عنك القريب ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة التاجر فإنه يبيعك بالتافه اليسير .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الآتي إلى صنيع لم يدع إليه والمتأمر على رب البيت في بيته ، والداخل بين إثنين في حديث لم يدخلاه فيه ، والمستخف بالسلطان ، والجالس مجلساً ليس له بأهل ، والمقبل بحديث على من لا يسمعه ، وطالب الخير من أعدائه ، وطالب الفضل من اللئام. ثمانية من أضيع الأشياء : عالم بين جهال فلا يسأل عن علمه ، وعلم عند من لا يعمل به ورأي صواب عند من لا يقبل منه ، وآلة جهاد عند جبان ، ومسجد عند قوم لا يصلون فيه ، ومصحف عند من لا يقرأ فيه ، وطول عمر عند

من لا يتزود فيه للمعاد ، ومال عند من لا ينفق منه في الحقوق والمواساة .
مفاتيح الرزق في ثمان : في حسن الخلق ، وحسن الجوار ، ولين الجانب وكف الأذى ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحسن المعونة ، وقبول المعذرة .

ومن الشعر :

ثمانية قام الوجود بهـــا فهـــل ترى من محيص للورى عن ثمانية
سرور وحزن واجتماع وفرقة وعسر ويسر ثم سقم وعافيـــة
بهن انقضت أعمار أولاد آدم فهل من رأى أحوالهم متساوية

فصـــل تسعة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« أمرني ربي بتسع خصال : الإخلاص في السر والعلن ، والعدل في الرضى والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة »

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

تسعة أشياء تحتاج إلى تسعة لا تصلح إلا بها ولا تحسن إلا معها ، العقل محتاج إلى التجارب ، والنجدة محتاجة إلى الجد ، والحسب محتاج إلى الأدب ، والسرور محتاج إلى الأمن ، والقرابة محتاجة إلى الصداقة ، والشرف محتاج إلى التواضع ، والعمر محتاج إلى الصحة ، والمال محتاج إلى الكفاية ، والإجتهاد محتاج إلى التوفيق . شروط العلم تسعة : العقل والفطنة ، والذكاء ، والشهرة ، والكفاف من العيش ، والفراغ ، وعدم المانع ، وطول العمر ، ومعلم عارف سمح . ومن الشعر :

بتسعٍ يُنال العلم ، قوت وصحة ... وحرص وفهم ثاقب في التعلمِ
ودرس وحفظ للعلومِ وهمــة ... وشرخ شبابٍ واجتهاد معلمِ

فصـــل عشرة

فمن الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« سهام الإسلام عشرة خاب من لا سهم له فيها : أولها شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي الملة . والصلاة ، وهي الفطرة . والزكاة ، وهي الطهر . والصيام ، وهو الجنة . والحج ، وهو الشريعة . والجهاد ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والطاعة ، وهي العصمة . والجماعة وهي الإلفة . والغسل من الجنابة ، وهي السريرة » .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

عشرة من أخلاق العاقل : الحلم ، والعلم ، والرشد ، والعفاف ، والتعاون ، والحياء ، والرزانة ، والمداومة على الخير ، وكراهية الشر وطاعة الناصح . مكارم الأخلاق عشرة : العقل ، والدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والصدق ، والشكر ، والجود ، والرفق ، واللين .

ومن الشعر :

إنَّ المكارمَ أخلاق مطهـــرة ... فالعقلُ أولها والدينُ ثانيهـــا
والعلم ثالثها والحلمُ رابعهـــا ... والصبرُ خامسها والصدقُ سادسها
والشكرُ سابعها والجودُ ثامنها ... والرفقُ تاسعها واللينُ عاشيهـــا
والنفسُ تعلم من عيني محدثها ... إنْ كانَ من حزبها أو من أعاديها

ولست عمري في حالٍ أصدقها   ولا أرى الرشدَ إلا حينَ أعصيها

وقد ضرب بعض الحكماء مثل الحكمة والحكيم الذي يلقيها إلى القلوب فقال : إن الباذر خرج ببذره الطيب ليبذره فنثره فوقع بعضه في أرض محجرة بل في جنبات الطريق فلم يلبث أن اختطفه الطير فذهب به ، ووقع بعضه في أرض محجرة إلا أن عليها ندى وطيناً فرسخ البذر في ذلك الندى والطين ونبت شيئاً حتى إذا وصلت عروقه إلى الحجر لم يجد مساغاً ينفذ فيه فتلف وفسد ويبس ، ووقع بعضه في أرض رخوة إلا أن فيها شوكاً نابتاً فنبت حتى إذا كان عند الأثمار خنقه الشوك فلم يأت بثمره ووقع بعضه في أرضٍ طيبة نقية ليست على ظهر طريق ، ولا على حجر ، ولا فيها شوك فنما ، وطاب وزكا ونبت وأثمر فجاءت الحبة بأضعاف مضاعفة ، ثم فسره فقال : فالباذر هو الحكيم الزارع الحكمة في القلوب وبذره الطيب هو حكمته وموعظته الحسنة التي يلقيها إلى القلوب ، والقلوب في تلقي ذلك منقسمة إلى الأقسام الأربعة المذكورة ، فمنها القاسي الذي إذا سمع الحكمة لم يعقد عليها لقساوته فلم تثبت فيه ، ومنها قلب ظاهره رقة ، وباطنه قساوة ، فهو في أول سماع الحكمة يرق لها ، ويلذ بسماعها ، ويحن إلى ذلك بتلك الرقة الظاهرة على قلبه ، ولا يعقد عليه بعزم لقساوته ، ومنها قلب يسمع الحكمة ويحبها ويحب العمل بها إلا أنه قلب قد امتحن بلصوق الشهوات به حتى صارت له طباعاً ، فإذا عزم على العمل بما سمع إعترضت له تلك الشهوات فمنعته من إقامة وظائفها وأفسدت عليه ما سمع فاختلط عليه أمره ، ولم يتم له مراده . ومنها القلب النقي الصافي العالم بفضل الحكمة المؤثر لها الذي لا همة له في غيرها ، ولا شغل له إلا بها ، ولم تعلق به شهوة تناقضها ، ولا داء يقطع عنها فهذا القلب الذي تنمى فيه الحكمة إيماناً ، وفهماً ، وحفظاً ، وعلماً ، وقولاً ، وعملاً ، وتبلغ به إلى أفضل العواقب وأعلى المراتب .

القسم الثاني

في السودد ، والمروءة ، ومكارم الأخلاق ، ومداراة الناس والتأدب معهم في حالي الغنى ، والإملاق

أعلم أنه يجب على الإنسان أن يتخلق بالأخلاق الموجبة للسيادة ويعتني في طلب المكارم ، والمجادة . وأن لا يتشاغل عنها بسواها ولا يصرف همته إلى ما عداها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « من أسرع به عمله لم يبطىء به حسبه ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه » .

قال حكيم لحكيم ما السودد ؟ فقال : اصطناع العشيرة ، واحتمال الجريرة . قال : فما الشرف ؟ فقال : كف الأذى ، وبذل الندى . قال فما الثناء ؟ فقال : استعمال الأدب . ورعاية الحسب . قال فما المجد ؟ فقال احتمال المغارم ، وابتناء المكارم . قال فما المروءة ؟ قال عرفان الحق ، وتعاهد الصنيعة . قال فما السماحة ؟ فقال حب السائل وبذل النائل . قال فما الكرم ؟ فقال صدق الإخاء في الشدة والرخاء .

قال بعض العلماء : الكرم هو إسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل ، ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل ، فكل خصلة من خصال الخير ،وخلة من خلال البر ، وشيمة تعزى إلى مكارم الأخلاق ، وسجية تضاف إلى محاسن الطبائع والاعراق فهي ، واقعة على إسم الكرم ،

فالكرم أبداً واقع على كل فعل من الأفعال المرضية لازم لكل حال من الأحوال الجليلة السنية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في إبنه ، وتكون في الإبن ولا تكون في أبيه ، وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة ، وهي : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف . وأسهن الحياء » .

ومن المنقول في تأليفنا كمال البغية والنيل في باب حفظ السودد الواجب على ذي النسب الشريف والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سلماً إلى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه ، والإتكال على آبائه ، فإن أشرف الأنساب يحض على أفضل الأعمال . والشريف بهذا أولى إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف ، كما أن الحسن يدعو إلى الحسن ، وأكثر الممدوحين إنما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم . وقد قال الشاعر في هاشم بن عبد مناف مناف وهو إمام ذوي الأنساب :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجـــاف

فمدحه بفعله وإن كان شفيعاً رفيعاً .

واعلم أن الناس أشد تحفظاً على السيد الشريف في قومه . وأكثر اجتلاء لأفعاله ، وتصفحاً لأخلاقه ، وتنقيراً عن خصاله منهم عن خامل لا يعبأ به وساقط لا يكترث إليه ، فيسير عيب الرجل الجليل يقدح فيه وصغير الذنب يكبر منه .

قال بعضهم : وشرف الوالد جزء من ميراثه منتقل إلى ولده كانتقال ماله فإن رعى وحرس ثبت وازداد ، وإن أهمل وضيع هلك وباد .

وكذلك شرف الولد يعم القبيلة. وللوالد منه الحظ الأكبر والقسم الأوفر.

قال أبو علي حسن بن رشيق : والذي يقع عليه الإختيار عندهم قول المتوكل الليثي :

إنّا وإنْ أحسابنا كرمتْ   لسنا على الأحسابِ نتكلُ
نبني كما كانتْ أوائلنا   تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

وقول عامر بن الطفيل :

وإني وإنْ كنتُ ابن سيد عامر   وفارسها المشهور في كل موكبِ
فما سودتني عامر عن وراثة   أبى الله أنْ أسموَ بأمٍ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتقي   أذاها وأرمي من رماها بمقنبِ

وأنشد أبو حيان للمنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر المعافري :

وإني لمقتاد الجيوش إلى الوغى   أسود تلاقيها أسود حواذر
لسدت بنفسي أهل كل سيادة   وفاخرت حتى لم أجد منأفاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة   على ما بنى عبد المليكِ وعامر
رفعنا المعالي بالعوالي حديثة   وأورثناها في القديمِ معافر

ومن بديع الإفتخار بالسودد وحفظه قول السموءل بن عاديا :

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا   إناث أصابت حملنا وبعول
علونا إلى خيرِ الظهورِ وحطنا   لوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نزول
إذا سيد منا خلا قام سيد   قئول لما قال الكرام فعول

قال أبو علي حسن بن رشيق ، وقد أنكر قدامة أن يمدح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحاً بنفسه قال : والذي ذهب إليه حسن . وأنكر الجرجاني على أبي الطيب المتنبي قوله :

ما بقومي شرفتُ بلْ شرفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجـــدودي

قال : وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ويغض من نسبه ، ويحقر من شأن سلفه . وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح بشرف آبائه ، والآباء تزداد شرفاً به فيجعل لكل منهم في الفخر حظاً ، وفي المدح نصيباً . قلت : وإذا كان هذا لا يجمل ولا يحسن في الشعر ويعد نقصاً في معناه ، وهو من قبيل المجازات والتخيلات ، فكيف يجمل بالعاقل أن يرتضي ذلك حقيقة في ذاته ويهمل تأديب نفسه ، ويدع اكتساب المحامد واقتناء المكارم اتكالاً على حسب آبائه ، واعتماداً على كرم أسلافه ، ولو لم يسع آباؤه في طلب المجد ، وكانوا كسالى عن ذلك لم يكن له بهم فخر . ولا سما لهم ذكر ، قال :

وما المرء إلا حيث يجعل نفســـه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقال بعضهم :

تزين الفتى أخلاقهُ وتشينـــهُ وتذكر أفعالَ الفتى حيثُ لا يدري

فالأفعال المحمودة ، والأخلاق الجميلة توجب السودد ، والرياسة ، والأفعال المذمومة ، والأخلاق الدنيئة تمنع من ذلك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها » .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي [1] : واعلم أن زهر الفضائل ، وحسن المناقب ، وبهاء المحاسن ، وما ضاد ذلك من قبح المثالب ، وفحش الرذائل ، كل ذلك يظهر عليك ، ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علوم

---

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف المرقشي الفهري الاندلسي – ابو بكر الطرطوشي – اديب ، من فقهاء المالكية الحفاظ . (٤٥١ – ٥٢٠ هـ = ١٠٥٩ – ١١٢٦ م) . – الاعلام –

المنزلة ، وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن ما يكون قبحك أقبح .
قلت : فيجب على المرء أن يجهد نفسه في الإقتداء بصالح سلفه ، ويرغب في الأعمال اللائقة بمجده ، وشرفه ، وينافس في المعالي ، ويسارع إلى المكارم ليحفظ مزية آبائه الرفيعة ، لا أن يجعل تلك المزية للتقصير ذريعة قال أبو الطيب :

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

وقال إبن المعلى لإبنه : تشبه بأهل الفضل تكن منهم ، وتصنع للشرف تدركه ، واعلم أن كل امرىء حيث يضع نفسه ، وحسبك الحديث الوارد « من تشبه بقوم فهو منهم » . قال بعضهم : إعلموا أن مجدكم الذي بناه آباؤكم متى لم تعمروه لأفعالكم خرب وذهب .
قال الشاعر :

المجدُ إنْ خانَ التليدَ طريفهُ ... للمدعي فخرابه خـوان
حسبُ الفتى عاراً به أن لا يرى ... إلا بذكـر قديمـه يـزدان
وكفاه نبلاً أن يكون لذاتـه ... إن شال وزن قديمه رجحـان
وأتم ذلك مفخراً ما طابقـت ... في طيهـن أرومها الأغصـان

قال الإمام أبو بكر بن أبي جمرة : وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد ، إذ الشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء : يقال رجل شريف ورجل ماجد إذا كان له آباء متقدمون في الشرف وأما لحسب والكرم فيكونان في الرجل ، وإن لم يكن له آباء كرام لهم شرف : يقال رجل حسيب ، ورجل كريم بنفسه . فينبغي للرجل أن يطالب خلال آبائه المحمودة ، ويتبعها ، ويتعلمها ، ويعلمها . والأصل في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إرموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » .

وإذا كان هذا في الرمي فما ظنك بغيره ؟ قال الله تعالى حاكياً عن الكريم إبن الكريم (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب) [1] .

وعلى الجملة ففي معارج النطف على مدارج السلف فخر الشرف وذلك معتبر في السلف عند العجم والعرب . وفي الخبر المرفوع « من نعمة الله على الرجل أن يشبه والده » . ذكر أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين أن عمرو بن سعيد دخل على معاوية بعد موت أبيه وعمرو يومئذ غلام ، فقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك يا عمرو ؟ قال إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي . قال وبأي شيء أوصاك ؟ قال أوصاني أن لا يفقد إخوانه منه إلا شخصه فقال معاوية لأصحابه : إن إبن سعيد هذا لأشرف . قال الشاعر :

إنَّ القديمَ إذا ما ضاعَ آخرهُ ... كساعدٍ فلهُ الأيامُ محطومُ

وقال مسلم بن الوليد .

إذا جهلتَ من امرىءٍ أعراقهُ ... وقديمهُ فانظرْ إلى ما يصنعُ

وقال إبن الرومي .

إذا شئت تعرف أصل الفتى ... أجل لحظ طرفك في منظرهِ
فإن لم يبن لك فانظر إلى ... أفاعله فهي من جوهرهِ
وإن غاب عنك بهذا وذا ... فلا تطلبنّ سوى مخضرهِ
فإن المحاضر سبر الرجالِ ... بها يعرف النذل من مخبرهِ
بلوت الرجالَ وأخبارهم ... فكل يعود إلى عنصرهِ

وقال أبو الفتح كشاجم :

وإذا افتخرتَ بأعظمٍ مقبورة ... فالناسُ بينَ مكذبٍ ومصدقٍ

(١) سورة يوسف ٣٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأقم بنفسك لانتسابك شاهداً ... بحديث مجدٍ للقديم محققِ

قال بعض الحكماء : من جمع إلى شرف أصله شرف نفسه فقد استدعى الفضل بالحجة ، ومن أغفل نفسه واعتمد على شرف آبائه فقد عقهم واستحق أن لا يقدم بهم على غيرهم . والإفتخار نوعان : فخر الإنسان بنفسه ، وفخره بسلفه . والكمال في الجمع بين الأمرين . قال الشاعر :

ما السؤددُ المكسوبُ إلا دون ما ... يومي إليه السؤدد المولود
فإذا هما اجتمعا تكسرت القنا ... إن غولبا وتضعضع الجلمود

أما فخر الإنسان بنفسه فهو الذي تسميه العرب الخارجي ، يريد أنه خرج من أولية كانت له . قال كثير في الخارجي :

أبا مروان لست بخارجي ... وليس قديم مجدك بانتحال

وكل من كان لخارجية ليس له قديم قيل له عصامي ، وكذلك من يفخر بالآباء . وليس بشريف في نفسه يقال له عظامي ، ولذلك قالوا : كن عصامياً لا عظامياً ، أي افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيت عظامهم . قلت : وهذا ترغيب في الأفعال المحمودة ، والأخلاق الجميلة وهو الذي أراد أبو الطيب بقوله :

ولستُ بقانعٍ من كل فضلٍ ... بأن أعزي إلى جدٍ همامِ
وآنف من أخي لأبي وأمي ... إذا ما لم أجدهُ من الكرامِ

وعصام المذكور هو عصام بن شهير حاجب النعمان الذي يقول فيه النابغة الذبياني :

فإني لا ألام على دخولٍ ... ولكن ما وراءك يا عصامُ

وفيه قيل :

نفس عصام سودت عصاماً ... وعلمته الكر والإقداما
وجعلته ملكاً هماماً

أي أنه إنما شرف بهمته وقدره لا لقديم كان له .

قال المأمون لرجل سمعه يفخر بنسبه : أنت عظامي لا عصامي !
أراد المأمون قول الشاعر :

* نفس عصام سودت عصاماً *

وقول الآخر :

إذا ما الحي عاش بعظم ميت ... فذاك العظمُ حيٌّ وهو ميتُ

ومن وصية الرشيد للمأمون المذكور : لا تتكل على أن تقول : كان أبي الرشيد ، واعمل على ما يتكل عليه من يقول : كان أبي المأمون .

وذكر أبو عثمان الجاحظ : أن زياد بن ظبيان التميمي . قال لإبنه عبدالله بن زياد ، وزياد يومئذ يجود بنفسه ، وعبيد الله غلام : يا بني ألا أوصي بك الأمير ؟ قال لا . قال ولم ؟ قال : إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت .

قال أبو العباس المبرد [1] في كتاب الكزمل ، قال الكلبي ، قال لي خالد ابن عبدالله القشيري : ما تعدون للسودد ؟ فقلت : أما في الجاهلية فالرياسة . وأما في الإسلام فالولاية وخير من ذا وذاك التقوى ! فقال

(١) هو محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالي الازدي ابو العباس المعروف بالمبرد (٢١٠ - ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ - ٨٦٩ م) امام العربية ببغداد في زمنه واحد ائمة الادب والاخبار مولده بالبصرة ووفاته ببغداد من أشهر كتبه الكامل في اللغة والادب .
- الاعلام -

لي : صدقت كأن أبي يقول : لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخر إلا بما أدركه به الأول . وانتسب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ عشرة آباء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسب إلا بالتواضع ، ولا نسب إلا بالتقوى ، ولا عمل إلا بالنية ، ولا عبادة إلا باليقين » . قال الشاعر :

لعمرك ما الإنسانُ إلا بدينـــه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسبِ
فقد رفعَ الإسلامُ سلمان فارس ... وقد وضعَ الشركُ الشريفَ أبا لهبِ

وقال الراعي :

لم أجدْ عروة الخلائقِ إلا الد ... ينَ لما اختـــبرت والحسبـــا

وقال منصور الفقيه :

إذا جمع الفتى حسبـــاً ودينـــاً ... فلا تعدل به أبـــداً قرينـــا

قال أبو عمرو بن العلاء : كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من كانت فيه ست خصال ، وتمامها في الإسلام سابعة : السخاء . والنجدة والصبر . والحلم . والبيان ، والحسب ، وفي الإسلام : زيادة العفاف .

وقيل لقيس بن عاصم [1] : بم سودك قومك ؟ قال بكف الأذى وبذل الندى . ونصرة المولى . قال وجيه الدين أبو المطاع بن حمدان :

---

(١) هو قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي ، احد امراء العرب وعقلائها والموصوفين بالحلم والشجاعة . كان شاعرا . اشتهر وساد في الجاهلية . وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها . وفد على النبي ﷺ في وفد تميم سنة (٩ هـ) فأسلم وقال النبي ﷺ لما رآه : هذا سيد أهل الوبر .. واستعمله على صدقات قومه .
— الاعـلام —

وما يدعى باسمِ السيادةِ سيدٌ　　إذا لمْ تكنْ فيه خلائقُ أربعُ
يحنُ إلى العليا ويغضي على القذى　　ويسخو بما تحوي يداهُ ويشجع

وقال الأشعث بن قيس [1] يوماً لقومه : إنما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم لكني أبسط لكم وجهي ، وأبذل لكم مالي ، وأقضي حقوقكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ، ومن زاد علي فهو خير مني ، ومن زدت عليه فأنا خير منه . قيل له : يا أبا محمد ما يدعوك إلى هذا الكلام . قال حضهم على مكارم الأخلاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . « ولما أتى صلى الله عليه وسلم بسبايا طيء كانت في السبايا جارية جميلة فصيحة فقالت : يا رسول الله بل يا محمد هلك الوالد وغاب الرافد فإن رأيت أن تخلى عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي ، كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ولم يردد سائلاً قط ، أنا بنت حاتم طيء ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه صفة المؤمن ، ولو كان أبوك مسلماً لترحمت عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق » . ولما توفي عبدالله بن طاهر صلى عليه إبنه طاهر بن عبدالله ودفنه وأعتق عند

---

(١) هو الاشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي (٢٣ ق.هـ - ٤٠ هـ = ٦٠ - ٦٦١ م) . أمير كنده في الجاهلية والاسلام كانت اقامته في حضرموت ووفد على النبي ﷺ بعد ظهور الاسلام في جمع من قومه فاسلم وشهد اليرموك فأصيب في عينه . ولما ولى ابو بكر الخلافة امتنع الاشعث وبعض بطون كنده عن تأدية الزكاة ، فتنحى والي حضرموت ، فاستسلم الاشعث وفتحت حضرموت عنوة ، وأرسل الاشعث موثوقا الى أبي بكر في المدينة ليرى فيه رأيه فأطلقه ابو بكر وزوجه اخته - ام فروة - فأقام في المدينة وشهد الوقائع ، وأبلى البلاء الحسن . أخباره كثيرة في الفتوح الاسلامية . كان من ذوي الراي والاقدام موصوفا بالهيبة .

- الاعلام -

كل زاوية من زوايا قبره رقبة من غلمانه ، وفعل ذلك إخوته ودفع كل رجل منهم إلى كل غلام خمسمائة درهم ، وكان عبدالله بن طاهر قد خلف أربعين ولداً ذكراً ، فقال : أبو العميثل الاعرابي الشاعر لمصعب بن عبدالله ، وكان يختص بطاهر وينادمه : ألا أدلك على شيء تفعلـه فتتقدم به سائر إخوتك عند الأمير طاهر ؟ قال بلى ، فأنشده هذه الأبيات وقال اكتب بها إلى الأمير :

يا منْ يحاولُ أنْ تكونَ خلالهُ ... كخلالِ عبدِاللهِ أنصت واسمعِ
فلأقصدنك بالنصيحة والـذي ... حجّ الحجَجُ إليه فاقبل أودعِ
إن كنتَ تطمعُ أن تحل محلـهُ ... في المجدِ والشرفِ الأشمِ الأرفعِ
فاصدق وعف وبر وانصر واحتمل ... واحلم ودار وكاف واصبر واخشعِ
والطف ولن وتأن وارفق واتئد ... واحزم وجد وحام واحمل وادفعِ
هذا الطريق إلى المكارم مهيعـاً ... فأبصرْ فقد أسلكتَ قصد المهيعِ

فاستحسن طاهر الأبيات ، وقال : والله لقد أفدتني بما يجب به شكرك علي فقلده نيسابور وأعمالها ثلاث سنين ، وأكسبه ألف ألف درهم .

وقد جمعت هذه الأبيات خلال المكارم ، وموجبات السودد ، وتفاريق المرؤة . وكان سلم بن نوفل سيد كنانة فوثب رجل على إبنه وابن أخيه فجرحهما فأتى به إليه فقال له : من أمنك من انتقامي . قال ما سودناك إلا أن تكظم الغيظ ، وتعفو عن الزلة . وتحلم عن الجاهل ، تحتمل المكروه ، قال صدقت وخلى سبيله . وفي سلم هذا يقول الشاعر :

نسودُ أقواماً وليسوا بسـادةٍ ... بل السيدُ المعلومُ سلمُ بن نوفلِ

قيل لعرابة الأوسي بم سودك قومك ؟ قال بأربع خلال : أنخدع لهم

في مالي ، وأذل لهم في عرضي ، ولا أحقر صغيرهم ، ولا أحسد كبيرهم
وفي عرابة الأوسي يقول الشاعر :

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيراتِ منقطعُ القرينِ
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمينِ

وقال بعضهم :

إنّ السيادةَ فاعلمنّ مؤونة ... لولا صعوبتها لسادَ الرذل
ما كلّ منْ طلبَ السيادةَ نالها ... ما نالها إلا الجواد المفضل
يمسي ويصبح بالهمومِ موكلاً ... وأخو المكارمِ بالهمومِ موكلِ
وتراهُ من طلبِ المعالي ناحلاً ... وكذاك من طلبَ المعالي ينحل

وقال أبو الطيب :

إذا لم يكن للمرء فضل ولم يكن ... يدافعُ عنْ إخوانهِ لم يسودِ
وكيف يسود الناس من كان دهره ... بلا منةٍ منهُ عليهمْ ولا يدِ

وكان أسماء بن خارجة الفزاري سيد أهل الكوفة ، فقال له يوماً عبد الملك ابن مروان : ما أشياء تبلغني عنك يا أسماء ؟ فقال يحدثك غيري عني يا أمير المؤمنين ، فقال له عبد الملك وعلى ذلك ، فأحب أن أسمعها منك يا أسماء . فقال : نعم ، يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط مخافة أن يرى أني تكبرت عليه ، ولا سألني رجل قط حاجة فكان أكبر همي من الدنيا إلا قضاء حاجته ، ولا أكل رجل قط عندي أكلة إلا كان له الفضل على أيام حياتي ، ولا ظلمني رجل قط بمظلمة إلا رأيت عقوبته العفو عنه ، فقال عبد الملك : حسبك بهذا شرفاً يا أسماء ! ثم أنشد عبد الملك يقول :

إذا ما ماتَ خارجةَ بن حصنٍ ... فلا مطرتْ على الأرضِ السماء

ولا رجعَ الوفودُ بغـنمٍ عيشٍ ولا حملتْ على الطهرِ النساء
ليومٍ منك خيرٌ منْ أنـاسٍ كثيرٍ حولهـمْ نعمٌ وشـاء
فبوركَ في بنيـكَ وفي بنيهمْ إذا ذكروا ونحن لك الفـداء

وهذه الأبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في مدح أسماء بن خارجة المذكور ولها حكاية تتعلق بها ليس هذا الباب موضع ذكرها . قال الشاعر

والإبن ينشأ على ما كان والده إن العروق عليها ينبت الشجر

قال جميل بن معمر :

أرى كلَّ عودٍ نابتاً في أرومةٍ أبى منبت العيدانِ أنْ يتغيـرا
بنو الصالحين الصَّالحون ومنيكنْ لآباءِ صدقٍ يلقهم حيث صيرا

وقال زهير بن أبي سلمى ، في قصيدته التي مدح بها قوم سنان ابن حارثة المري :

لأرتحلـنَّ بالفجـرِ ثم لأدبـن إلى الليلِ إلاَّ أنْ يعرجني طِفلُ
إلى معشرٍ لا يورثُ اللؤم جدهم أصاغرهم بل كل مجد له نجلُ
فما يكُ من خيرٍ أتوهُ فإنمـا توارثهُ آباء آبائهـم قبـلُ
وهل ينبتُ الخطىَّ إلا وشيجـه وتغرس إلا في منابتها النخلُ

وهذا البيت من أشرد مثر قيل في شبه البنين بالآباء إن مجداً فمجد وإن لؤماً فلؤم . وقال بشر بن هذيل الفزاري وهو أحد قومنا :

ولاتنظري مايعجبَ العين وانظري إلى عنصرِ الأحسابِ أين يئولُ
فكم قدْ رأينا من فروعٍ طويلة تموتُ إذا لم يحيهنَّ أصولُ

ومن محض النصيحة بمقتضى مضمن هذا الباب قول ابن دريد :

وإنّما المـرءُ حديث بعـدهُ فكنْ حديثاً حسناً لمنْ وعـى

وكان أبو عمرو بن العلاء يتمثل بقول الشاعر في معناه :

وسيبقى الحديثُ بعدكَ فانظــر ... خيرَ أحدوثةٍ تكونُ فكنها

قال أزدشير :

الأيــامُ صحائــفُ آجالكم ... فخلّدوا فيها أحسنَ أعمالكم

وقد قال المفسرون في قول الله عز وجل ، عن خليله إبراهيم ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) ، أي ثناء حسناً إنتهى المنقول لن تأليفنا المذكور .

ومن المنقول من غيره في هذا الفصل . قيل لعدي بن حاتم . ما السؤدد ؟ فقال : يكون السودد في الرجل الأخرق في ماله . الذليل في عرضه . المطرح لحقده . وقالوا يسود المرء بأربعة أشياء : بالعقل ، والأدبْ ، والعلم ، والمال ، قال عبيد بن الأبرص :

إذا أنتَ لم تعمل برأي ولم تطع ... أولي الرأي أو تسكن إلى أمر مرشدِ
ولم تجتنب ذمَّ العشيرةَ كلها ... وتدفعْ عنهم باللسانِ وباليــدِ
وتحلمْ عن جهالها وتحوطهــا ... وتقمع عنها نخــوةَ المتهــددِ
فلستَ وإنْ علتَ نفسكَ بالمنى ... بذي سوددٍ بادٍ ولا قرب سودد

قال قس بن ساعدة : من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه .

قال الشاعر :

لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سراة لهم ... ولا سراةَ إذا جهالهــم ســادوا
والبيتُ لا يبتنى إلاّ بأعمــــدةٍ ... ولا عمادَ إذا لم ترسَ أوتــادُ
فإنْ تجمــع أوتــاد وأعمــــدةً ... يوماً فقد بلغوا الأمرَ الذي كادوا
تهدى الأمور بأهلِ الخيرِ ماصلحتْ ... فإنْ تولت فبالأشرارِ تنقــادُ

وقيل لبعض الحكماء : متى يبلغ الرجل درجة الكمال ؟ قال : إذا اتقى من خلقه ، وجاد بما رزقه ، فذاك الذي أنهج إلى الكمال طرقه . قال ابن سلام :

إذا كنت صبـــاراً لدفعِ الشدائدِ وسطوةِ جبارٍ وجفوةِ صـــاحبِ
ودنتَ بمنعِ النفسِ عن شهواتها ونيل هواها خوفَ سوءِ العواقبِ
فقد حزتَ أشتاتَ المكارمِ كلها وأحرزتَ سبقَ الفضلِ من كلِ جانبِ

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينكم وبينه ، بحسب الرجل أن يتصل إليـــه بخلق منها .

وقال بعضهم : إذا رغبت في المكارم ، فاجتنب المحارم ، قال بعض الحكماء : من أخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، جرى من الفضل في ميدان السباق ، فاستوجب حسن الثناء بالاستحقاق ، وقالوا : بكثرة الصمت تكون الهيبة ، وبعدل المنطق تكون الجلالة ، وباحتمال السودد يجب السودد ، وبحلمك عن السفيه يكثر أنصارك عليه ، وينفى العجب عنك تأمن الحاسدين وبترك ما لا يعنيك يتم الفضل .

فيجب على المرء أن يأخذ نفسه ما استطاع بمتابعـــة أهل الفضل ، والاقتداء بأهل العقل والنبل ، واجتناب مقاصد أهل النقص والجهل ، فيتحلى بحسن الشمائل ، ويسبق في مضمار الفواضل .

قال عمرو بن العاص : في كل شيء سرف إلا في ابتناء مكرمـــة واصطناع معروف . قال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفـــاوتوا إلى المجدِ حتى عد ألف بواحدِ

وقال الشاعر :

إذا أعجبتكَ خصـــالُ امرىءٍ فكنهُ تكـــنْ مثـــلَ ما يعجبك
فليس على المجـــدِ والمكرماتِ إذا جئتهـــا حاجبُ يحجبـــك

الفصل الأول

في الادب

قالت الحكماء : الأدب أحد المنصفين ، وقالوا : نعم العون لمن لا عون له الأدب . وقال الأحنف : الأدب نور العقل كما أن النار في الظلمة نور البصر .

واعم أن الأدب كما قيل أربعة : أدب لسان ، وأدب جنان ، وأدب زمان ، وأدب إيمان . فأدب اللسان : الفصاحة ، والبلاغة ، وذكر ما صدر عن أربابها . وأدب الجنان : الانقياد ، والسهولة ، والتزين بهما . وأدب الزمان : سيرة كبراء أهله في مخاطباتهم وتصرفاتهم ، وحفظ أخبارهم ، وأدب الايمان : ما جاء به الشرع من المحاسن المكملة في الأخلاق والأقوال والأفعال .

وقال بعض العلماء : الأدب على ثلاثة أقسام : كسبي ، وطبيعي ، وصوفي . أما الأدب الطبيعي : فهو ما يفطر عليه الانسان من الأخلاق الحسنة السنية ، والاتصاف بالصفات المرضية مثل الحلم والكرم ، وحسن الخلق والحياء ، والتواضع والصدق ، وترك الحسد إلى غير ذلك من الصفات المحمودة التي يطول هنا استقصاؤها ، ولا يمكن استيفاؤها ، وكلها نعم من الله سبحانه على عباده لاشتمالها على المكارم والمآثر ، واحتوائها على المحاسن والمفاخر .

وأما الأدب الكسبي وهو ما يكتسبه الانسان بالدرس والقراءة والحفظ والنظر ، وهو عبارة عن ستة أشياء : الكتاب ، والسنة ، والنحو ، واللغة والشعر ، وأيام الناس .

وأما الأدب الصوفي فهو : ضبط الحواس ، ومراعاة الأساس. وقيل لأدب أدبان : أدب شريعة يؤدى به الفرض ، وأدب سياسة تعمر به الأرض : فأدب السياسة كما قال ابن القربة للحجاج ، وقد سأله : ما الأدب ؟ هو تجرع الغصة حتى تمكن الفرصة . ك أدب الشريعة كما قال أعرابي في مجلس معتمر بن سليمان : أدب الدين هو داعية إلى التوفيق ، وسبب إلى السعادة ، وزاد من التقوى ، وهو أن تعلم شرائع الاسلام ، وأداء الفرائض ، وأن تأخذ لنفسك بحظها من النافلة ، وتؤيد ذلك بصحة النية ، وإخلاص اليقين وحب الخير شافياً به ، مبغضاً للشر نازعاً عنه . ويكون طلبك للخير رغبة في ثوابه ، ومجانبتك للشر رهبة من عقابه ، فتفوز بالثواب ، وتسلم من العقاب . ذلك إذا اعتزلت الذنوب الموبقطت ، وآثرت الحسنات المنجيات .

وقيل التأدب نوعان : ما يلزم الانسان في تأديب ولده ، أو فيمن يلزمه تأديبه ، وهو أن يأخذه بمبادىء الأدب ليأنس بها حتى تصير له كالطبع ، وما يلزم الانسان في تأديب نفسه . فأما ما يلزم الانسان في تأديب نفسه نقسمان : أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح .

فالأول : ما اصطلح عليه العقلاء ، واستحسنه الأدباء . والثاني : ما هو محمول على حال لا يجوز في العقل أن يكون على خلافها . قال المفضل : رأس الأدب معرفة الرجل نفسه .

وقال بعضهم : رأس الأدب المنطق . ولا خير في قول إلا بفعل .

ولا في مال إلا بجود . ولا في صدق إلا بوفاء . ولا في فقه إلا بورع . ولا في صدقة إلا بنية .

لما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن ماء السماء ، وهو إذ ذاك ملك الحيرة واليمامة . وكان ضمرة ذا عقل وعلم ، وحلم وحكمة وشجاعة ، إلا أنه كان دميم الخلقة ، قصير القامة ، وكان ذكره قد شاع في الآفاق لما فيه من الخصال المحمودة . فلما رآه المنذر احتقره لدمامة خلقته وقصر قامته . فقال : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه . فقال له ضمرة : أيها الملك ليس المرء بحسنه وجماله ، وبهائه وكماله ، وهيئته وثيابه ، لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ، ويعلو به أكبراه همته وليه . وقد قال الشاعر :

وما المرءُ إلا الأصغران لسانه ومقولهُ والجسمُ خلقٌ مصور

وقال آخر :

رأيتُ العزَّ في أدبٍ وعلمٍ وفي الجهلِ المذلةُ والهوانُ
وما حسن الرجالِ لهم بفخرٍ إذا لم يسعدِ الحسنُ البيانُ
كفى للمرءِ عيباً أن تراهُ لهُ وجهٌ ، وليسَ له لسانُ

وفي هذا المعنى قول بعضهم :

وكائن ترى من صامتٍ لكَ معجبٌ زيادتهُ أو نقصهُ في التكلمِ
لسانُ الفتى نصف ونصف فؤادهُ فلم يبقَ إلا صورة اللحمِ والدمِ

ودخل المختار بن أبي عبيد على معاوية ، وكانت عليه عباءة رثة فاستحقره . فقال له المختار : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك ! ولكن يكلمك من فيها وأنشد :

أما وإنْ كانَ أثوابي ملفقة ليست بخزٍ ولا من نسجِ كتانِ

فإنّ في المجدِ هماني وفي لغتي فصاحة ولساني غير لحانِ

وقولهم فلان لا أصل له ولا فصل. الأصل: الحسب. والفصل: اللسان.

قالت الحكماء: جاهك بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاهك بالأدب غير زائل، قال علي بن الجهم:

لو قيلَ لي تملك الدنيا بأجمعها ولا تكون أديباً تحسنُ الأدبا
لقلتُ لا أبتغي هذا بذاك ولا أرى إلى غيره مستدعياً أربا
لجلسة مع أديبٍ في مذاكرة أنفي بهِ الهم أو استجلبَ الطربا
أشهى إليّ من الدنيا وزخرفها ومثلها فضة أو مثلها ذهبا

وقال بزرجمهر: ما ورث الآباء الأبناء خيراً من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال وبالجهل يتلفونه. قال الشاعر:

يطيبُ العيشُ إن تلقى أديباً غذاهُ العلمَ والرأيُ المصيب
فيكشفُ عنكَ حيرةَ كل جهلٍ وفضلُ العلمِ يعرفهُ الأديب

وقالت الحكماء: الأدب أفضل من الحسب، لأن الرجل ينطق به، فيعرف قبل حسبه، ومن فقد نسبه نهض به لي أدبه. فالأدب أكرم الجواهر وأنفسها، فإنه يرفع الخسيس، ويفيد الرغائب، ويعز بغير عشيرة، ويكثر الأنصار بغير رويه، فالبسوه حلة تزينوه حلية، يؤنسكم في الوحشة. ويجمع لكم القلوب المختلفة، ويكسبكم خير العاجلة والآجلة. قال شعيب ابن شيبة: اطلبوا الأدب فإنه عون على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغربة وصلة في المجس. وقد جمع الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم جملة من الأدب في قوله سبحانه(إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم

تذكرون)[1] وأمر بذلك عباده فيجب على الانسان أن يؤدب نفسه قبل ان يؤدب لسانه ، وأن يهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه . قال أبو بكر ابن شيبة : قيل للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : أأنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو أكبر مني ، وأنا أسن منه . وقال بعضهم : الأديب من اعتصم بعز الأدب من ذلة الجهل ، ولم يتورط في هفوة ، وكان أدبه زلفة في دنياه وأخراه . وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : قال لي رجاء بن حيوة ما رأيت رجلاً أكمل أدبا ، ولا أجمل عشرة من أبيك ، وذلك أني سهرت معه ليلة ، فبينما نحن نتحدث إذ غشي المصباح ، وقد نام الغلام ، فقلت له : يا أمير المؤمنين قد غشي المصباح أفنوقظ الغلام ليصلح المصباح ؟ فقال : لا تفعل ، فقلت : أفتأذن لي أن أصلحه ، فقال : لا لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الانسان ضيفه ، ثم قام هو بنفسه ، وحط رداءه عن منكبيه ، وأتى إلى المصباح فأصلحه ، وجعل فيه الزيت ، وأشخص الفتيل ، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس . ثم قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز . رضي الله عنه . ووصف الشعبي أدب عبد الملك ابن مروان ، فقال : والله ما أعرفه قط ، إلا آخذاً بثلاث تاركاً لثلاث : آخذاً بحسن الحديث إذاا حدث ، وبحسن الاستماع إذا حدث ، وبأيسر المؤنة إذا خولف ، تاركاً للمحاورة مع اللئيم ، ومماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج . قال بعض الحكماء : من لزم الأدب أمن من العطب . وقال بزرجمهر : أفضل منازل الشرف لأهله العلم والأدب . وقال عبد الملك ابن مروان لبنيه : يا بني لو عداكم ما أنتم فيه ما كنتم تعولون عليه . فقال الوليد : أما أنا ففارس حرب ، وقال سليمان : أما أنا فكاتب سلطان ، وقال ليزيد : فأنت . فقال : يا أمير المؤمنين ما تركا غاية

---

(1) سورة النمل ٩٠

المختار . فقال عبد الملك : فأين أنتم عن التجارة التي هي أصلكم ونسبكم ؟ قالوا : تلك صناعة لا يفارقها ذل الرغبة والرهبة ، ولا ينجو صاحبها من الدخول في جملة الدهماء والرعية . قال : فعليكم إذن بطلب الأدب . فإن كنتم ملوكاً سدتم ، وإن كنتم وسطا رأستم ، وإن أعوزتكم المعيشة عشتم . ومن المنقول في تأليفنا « كمال البغية والنيل » الأدب أدبان : أدب الغريزة ، وهو الأصل . وأدب التعلم ، وهو الفرع ، ولا يتفرع شيء إلا عن أصله ، ولا ينمي الأصل إلا باتصال المادة . قال الشاعر :

ولم أرَ فرعاً طابَ إلا بأصلهِ ... ولم أرَ بدأ العلم إلا تعلما

وقال آخر :

من خانه نسبٌ فليطلبِ الأديبا ... ففيه منبهة إن حل أو ذهبا
فاطلبْ لنفسكَ آداباً تعزبها ... حتى تسودَ به من يملكُ الذهبا
إنَّ الأديبَ ليحيى ذكرَ والدهِ ... كالغيثِ يحيى نداهُ حيثما انسكبا

قال ابن أبي دؤاد : الأدب المترادف خير من النسب المتلاحف ، وكان يقال : لا زينة أحسن من زينة الأدب ، ولا حسب لمن لا أدب له ، ولا أدب لمن لا مروءة له ، ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له ، فقد يبلغ به أدبه مراتب ذوي الأحساب . قال الشاعر :

كنْ ابنَ منْ شئتَ واكتسب أدباً ... يغنيك مأثورهُ عنِ الحسبِ
إنَّ الفتى منْ يقولُ ها أنا ذا ... ليسَ الفتى من يقولُ كان أبي

وتكلم عند عبد الملك بن مروان رجل ، وذهب كل مذهب فأعجب عبد الملك فقال : ابن من أنت ؟ فقال : ابن نفسي التي توسلت بها اليك . قال الشاعر في معناه :

أنا ابنُ نفسي وهمتي حسبي ... ما أنا مَولى ولا أنا عربي

إنْ انتمى منتمٍ إلى أحدٍ　　فإنني منتمٍ إلى أدبي

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من قعد به أدبه لم يرفعه حسبه .
وقال الشاعر :

خيرُ ما ورثَ الرجالُ بنيهم　　أدبٌ صالحٌ وحسنُ ثناء
ذاكَ خيرٌ من الدنانير والأو　　راقِ في يومِ شدةٍ ورخاء
تلك تفنى والدينُ والأدبُ الصا　　لحُ لا يفنيان حتى اللقاء

قال محمد بن الحنفية : أفضل ما ورث الآباء الأبناء الأدب النافع والثناء الحسن والاخوان الصالحون . وكان يقال في الجاهلية الجهلاء: شخص بغير أدب كجسم بلا روح وكلفظ بغير معنى ، وقيل لأرسطاطاليس ما أحسن الحيوان قال : الانسان المزين بالأدب . وقال بعض العرب : إن لكل شيء ذؤابة . وذؤابة الشرف العقل والأدب . وإن لكل شيء عروة وعروة العز الأدب . قال الشاعر :

ما وهبَ اللهُ لامرئٍ هبةً　　أفضلُ من عقلهِ ومن أدبهِ
هما حياةُ الفتى فإنْ عدما　　ففقده للحياةِ أليقُ بهِ

وقال الزهري :

لم يركب العزَّ مَنْ لم يركبِ الأدبا

وقال أكثم بن صيفي :

أفسدَ كلَ حسب　　منْ ليسَ لهُ أدب

قال شهاب الدين القرافي : ومن نفاسة الأدب وكثرة جدواه أن قليله خير من كثير العمل . ولذلك هلك إبليس لعنه الله وضاع أكثر عمله بقلة أدبه . بسأل الله تعالى السلامة في الدنيا والآخرة .

وقالوا : حسب الرجل مروءته وحسن فعله . فإذا كان الرجل طاهر الأثواب ، كثير الآداب ، صلح بصلاحه ، وتأدب بأدبه جميع أهله . قال الشاعر :

رأيتُ صلاحَ المرءِ يصلحُ أهلهُ ويعديهــم داءَ الفسادِ إذا فسد
يعظمُ في الدنيا لفضــلِ صلاحــهِ ويحفظُ بعد الموتِ في الأهلِ والولد

انتهى المنقول من تأليفنا المذكور . ومن المنقول في تأليفنا المذكور مقالات الأدباء . من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبل وضيعا ، وبعد صيته وإن كان خاملاً . وساد وإن كان غريباً . وكثرت الحاجات إليه وإن كان مقترا . ومن لم تكن استفادة الأدب أحب اليه من الأهل والمال لم ينجب .

دخل أعرابي على أبي جعفر المنصور فتكلم فأحسن فأعجبه كلامه . فقال له المنصور . سل حاجتك ! فقال : يبقيك الله يا أمير المؤمنين . ويزيد في سلطانك . قال المنصور : ليس في كل وقت يمكنني أن آمر لك بما تحب . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أستقصر عمرك . ولا أخاف بخلك . ولا أغتنم مالك ، وإن سؤالك لزين ، وإن عطاءك لشرف ، فأطال الله للأمة بقاءك ، وأحسن عنها جزاءك . فأمر المنصور بحشو فمه جوهراً، وكتبه في العطاء .

ودخل رجل يوماً على الاسكندر رث الهيئة ، فتكلم فأحسن ، وسئل فأصاب الجواب . فقال له الاسكندر : لو أعطيت جسمك حقه من الزينة كما أعطيت نفسك حقها من العلم والمعرفة لأشبه بعضك بعضاً ، فقال له : أيها الملك أما الكلام فأقدر عليه فإني مالكه ، وأما الزينة فلا أقدر عليها ، لأني لا أملكها . فعلم أنه محتاج . فخلع عليه وأحسن اليه وقربه .

ودخل بعض العلماء على الرشيد وكان دميم الصورة . قصير القامة .

فاستحقره الرشيد . فقال : ما أقبح هذا الوجه ! فقال العالم : يا أمير المؤمنين إن حسن الوجه ليس مما يتوسل به إلى الملوك . هذا يوسف عليه السلام أحسن الناس وجهاً . قال : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . ولم يقل : إني حسن الوجه جميل . قال : صدقت ارتفع . فرفع قدره وقرب مجلسه .

ومن الواجب على من عرى من الأدب . وتخلى عن المعرفة والفهم . ولم يتحل بالعلم أن يلزم الصمت ويأخذ نفسه به . فإن ذلك حظ كبير من الأدب . ونصيب وافر من التوفيق . لأنه يأمن من الغلط . ويعتصم من دواعي السقط . فالأدب رأس كل حكمة . والصمت جماع الحكم. قال الشاعر :

وفي الصمت سترٌ للعيى وإنمـــــا　　صحيفـــةُ لبِ المرءِ أن يتكلما

قال ابن عائشة : كان شاب حسن الوجه يجالس الأحنف ويطيل الصمت . فأعجب به الأحنف فخلت الحلقة يوماً فقال له تكلم يا ابن أخي . فقال : يا عم لو أن رجلاً سقط من شرافة هذا المسجد أكان يضره شيء ؟ فقال الأحنف : ليتنا تركناك ميسوراً. قيل لبزرجمهر أي الأشياء خير للمرء ؟ قال : عقل يعيش به . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فإخوان يسترون عليه . قيل : فإن لم يكونوا ؟ قال : فمال يتحبب به إلى الناس . قيل : فإن لم يكن له مال ؟ قال : فأدب يتحلى به . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فصمت يسلم به . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : فموت يريح منه العباد والبلاد .

قال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان نصيحاً عظم شأنه في صدري . وإن كان مقصراً سقط عن عيني . قال الشاعر :

لسانُ المرء ينبيءُ عــن حجاهِ　　وعي المرء يستره ُ السكوتُ

وكان يقول : الجمال في اللسان . والمرء مخبوء تحت لسانه. واعلم أن على الجوارح دباً . فالبصر ينظر به لاخوانه نظر المودة . والسمع أن يسمع منهم مشته لحديثهم . واللسان يكلمهم بما يحبون بمقدار فهمهم وعلمهم . واليدان تكونان مبسوطتين لهم بالبر والمعذرة . والرجلان على حد التبع . ولا يتقدمهم ولا يقعد إلا بقعودهم إلى غير ذلك من الأدب . والآداب مع اختلافها تنقل الأحوال وتغير العادات لا يقدر على حصرها . وإنمــا يعرف الانسان ما بلغه وسعه من آداب أهل زمانه . قال ابن مسعود : إن كل مؤدب يحب أن يؤخذ بأدبه ، وإن أدب الله هو القرآن . ولولا ما قد جبلت عليه النفوس من ارتياحها إلى أنواع تختلف . وارتياحها بل واستروحها إلى فنون تستطرف لكان كتاب الله كافياً . وذكر غيره مستحسنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

في المروءة

اعلم أن المروءة دالة على كرم الأعراق . باعثة على مكارم الأخلاق . وهي : مراعاة الأحوال التي يكون الانسان على أفضلها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » . وقال صلى الله عليه وسلم « لا دين إلا بمروءة » . وقال صلى الله عليه وسلم « المروءة في الإسلام : استحياء المرء من الله أولاً . ثم من نفسه آخراً » .

قال ابن سلام : حد المروءة رعى مساعي البر . ورفع دواعي الضر . والطهارة من جميع الأدناس . والتخلص من عوارض الالتباس . حتى لا يتعلق بحاملها لوم . ولا يلحق به ذم . وما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ويبعث على شرف الممات والمحيا إلا وهو داخل تحت المروءة . قيل لبعض الحكماء : ما المروءة ؟ قال : طهارة البدن . والفعل الحسن .

وقال بعضهم : من سلك المروءة سبيلاً . أصاب إلى كل خير دليلاً .

وسئل بعضهم : أي الخلال أجمع للخير وأبعد من الشر وأحمد للعقبى ؟ فقال : الجنوح إلى التقوى . والتحيز إلى فئة المروءة .

وقال بعض العلماء : اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة . واتق مصارع الأخرى بالتعلق بحبل التقوى تفز بخير الدارين . وتحل أرفع المنزلتين . وقال بعضهم : إذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهم مروءة . قال الشاعر :

كمالُ المروءةِ صدقُ الحديثِ   وسترُ القبيحِ عن الشامتينا

قيل للأحنف بن قيس[1] : ما المروءة؟ قال: صدق اللسان. ومواساة الاخوان . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : رفع رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جزم اقترفه . فأراد معاقبته . فأخبر أن له مروءة . فقال : استوهبوه من صاحبه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجافوا عن عقوبة ذى المروءة ما لم تبلغ حداً ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وأسباب المروءة إنما هي مرتبطة بشرف النفس وعلو الهمة إذا اجتمعا ولم يتفرقا .

قال بعض الحكماء : المروءة سجية جبلت عليها النفوس الزكية . وشيم طبعت عليها الهمم العلية . وضعفت عنها الطباع الدنية . فلم تطق حمل أشراطها السنية . وقال غيره : لا يدرك المروءة إلا من حوى خصالها . وجمع خلالها وفي ذلك يقول الشاعر :

إن المروءةَ ليسَ يدركهــا امرؤ ،   ورثَ المكارمَ عن أبٍ فأضاعها

---

(١) هو الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي ابو بحر (٣ ق.هـ ـ ٧٢ هـ = ٦١٩ ـ ٦٩١ م) . سيد تميم وأحد العظماء الدهاة العظماء الشجعان الفاتحين . يضرب به المثل في الحلم . ـ الاعلام ـ

أمرتـــهُ نفسٌ ، بالدناءةِ والخنما ونهتهُ عن سبلِ العلى فأطاعها
فإذا أصابَ منَ المكارمِ خلـــة يبنى الكريمُ بها المكارمَ باعها

قال ابن عائشة القرشي : لولا أن المروءة متصعب محلها لما ترك اللئام للكرام منها بيتة ليلة . وللمروءة وجوه وآداب لا يحصرهـــا عدد ولا حساب . وقلما اجتمعت شروطها قط في إنسان . ولا اكتملت وجوهها في بشر . فإن كان ففي الأنبياء صلوات الله عليهم دون سائرهم . وأما الناس فيها فعلى مراتب بقدر ما أحرز كل واحد منهم من خصالهـــا ، واحتوى عليه من حلالها .

قال بعض الحكماء : لا تفارق الصبر فتعظم عليك البلوى . ولا المروءة فتشمت بك الأعداء . قال الشاعر :

منْ فارقَ الصـــبرَ والمروءة أمكنَ مـــن نفسهِ عدوهِ

قيل لعبد الملك بن مروان : كان مصعب بن الزبير يشرب الطلا . قال : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه . قال الشاعر :

أعفو عن الأمرِ القبيحِ تكرمـــاً وإنْ لم أكنْ حبراً ولا متخشعا
وأمنعُ نفسي مـــا تلذ وتشتهـــي إذا أنا يوماً خفتُ عيناً ومقرعا
ولو خلتُ أن الماءَ يوماً يشينـــــني لمت ولم أجرعْ من الماءِ مجرعا

قيل لسفيان بن عيينة : قد استنبطت من القرآن كل شيء . فأين المروءة فيه ؟ فقال في قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[1] ففيه المروءة. وحسن الآداب. ومكارم الأخلاق. فجمع في قوله خذ العفو صلة القاطعين . والعفو عن المذنبين . والرفق بالمؤمنين . وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله (وأمر بالعرف) صلة

---

(١) سورة الاعراف آية ١٩٩

الأرحام . وتقوى الله في الحلال والحرام . وغض الأبصار . والاستعداد لدار القرار . ودخل في قوله (وأعرض عن الجاهلين) الحض على التخلق بالحلم . والاعراض عن أهل الظلم . والتنزه عن منازعة السفهاء . ومساواة الجهلة والأغبياء . وغير ذلك من الأخلاق الحميدة . والأفعال الرشيدة . وقال الله عز وجل حكاية عن قوم قارون (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض)[1] وفيها عين المروءة وحقيقتها.وقال بهرام بن بهرام : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها . وقال أنو شروان : المروءة أن لا تعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية . وكان يحيى بن خالد يقول : المروءة سعة المنزل . وكثرة الخدم . ووطاءة الفرش . وطيب الرائحة . والاحسان إلى الحاشية . والافضال على الاخوان . وكان الحسن بن سهل يقول : المروءة والشرف في البشر ولا يصلح للصدر إلا واسع الصدر . وكان الفضل البلعمي يقول : المروءة الجمع بين الدين والدنيا ، والتوقي من سخط الخالق وذم المخلوقين . وكان عبد الله بن أحمد بن يوسف يقول : المروءة الكبرى إطعام الطعام ، ومجالسة الكرام . وقال المهلب : المروءة عشرة أجزاء ، تسعة منها في المائدة ، وجزء منها في سائر الأشياء . وقال يحيى : إذا أردت أن تنظر مروءة المرء فانظر إلى مائدته . فإن كانت حسنة فاحكم له بالشرف وإن رأيت تقصيراً فما وراءها خير . وقال أبو منصور الثعالبي : لا مروءة لمن لا يجتمع الاخوان على خوانه . ولا تقع الأجفان على جفانه . وقال بعضهم : المروءة إدامة الاهداء . وترك الاستهداء . قال أبو منصور : الهداية عمارة المروءة . وهي سنة : الرسول ورسم الملوك . واستمالة القلوب . ومفاتيح المودة . واللطف الأكبر .

---

(١) سورة القصص آية ٧٧

والبر الأعظم . وكان يقال : ما أرضى الغضبان . ولا استعطف السلطان . ولا سلت السخائم . ولا دفعت المغارم . ولا توقى المحذور . ولا استعمل المهجور . بمثل الهدية . قال الشاعر :

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في الضمير هوى وودا ... وتكسوهم إذا حضروا جمالا

والطيب لسان المروءة . قال محمد بن عبد الله العتبي : في الطيب أربع خصال : سنة . ومروءة . لذة . وقوة . قال المبرد في كتاب الكامل : ثلاثة تحكم لهم بالشرف والمروءة قبل أن تعرفهم : رجل شممت منه طيباً . ورجل تربيته في بلاد العجم ، وهو يعرب في كلامه ، ورجل راكب فرساً جواداً . قال بعضهم .

ومن المروءة للفتى ... ما عاش دار فاخره
فاقنعْ من الدنيا بها ... واعملْ لدار الآخره

ودار الرجل عشه ، وفيها عشه ، وهي مقر نفسه . ومأوى أهله . ومحرز ماله . وموضع أنسه ، ومجمع مروءته . قال أبو الحسن القزويني : من المروءة أن يقعد الرجل في باب داره وينظر في دفتر . قالوا : وإذا اجتمع في الدار الحمام والقصر والبستان وخزانة الكتب فقد اجتمع فيها المروءة . قال بعض السلف : المروءة إصلاح المال وحسن التدبير ، وتعاهد الصنيعة ، والافضال على الاخوان . وقال أبو منصور : المروءة أن تكون بمالك متبرعاً ، وعن مال غيرك متورعاً . قال مسلمة بن عبد الملك . ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة . قال الشاعر :

إذا لم يكن في منزل المرء حرة ... مدبرة ضاعت مروءة داره

وقال بعض الحكماء : المروءة أن لا تبخل ، ولا تسب ، ولا تسن .

وسئل مسعر ابن كدام عن المروءة . فقال : التفقه في الدين ، ولزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس . وسئل عبد الله الفارسي عنها . فقال : هي التألف ، والتظرف . والتنظف ، وترك التكلف . وأنشد أبو بكر الاسماعيلي :

وإذا جلستَ وكانَ مثلك قائماً فمن المروءة أن تقومَ وإن أبى
وإذا اتكأتَ وكان مثلكَ جالساً فمن المروءة أنْ تزيلَ المتكا
وإذا ركبتَ وكانَ مثلكَ ماشيا فمن المروءة أنْ مشيتَ كما مشى

قال الامام أبو الحسن الماوردي : الفرق بين العقل والمروءة أن العقل يأمر بالأنفع ، والمروءة تأمر بالأجمل ، ولا ينقاد للمروءة إلا من سهلت عليه المشاق رغبة في الحمد ، ولذلك سيد القوم أشقاهم . قال أبو الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجودُ يفقرُ والاقدامُ قتال

وقال أيضاً :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ في مُرادها الأجسام

والداعي إلى استسهال المشاق : علو الهمة ، وشرف النفس . فعلو الهمة يبعث على التقدم ، وبشرف النفس يكون قبول التأديب والتهذيب وبه تعرف النفس قدرها ، وشروط المروءة وحقوقها ، لا تكاد تحصى لانتشارها وخفاء أكثرها ، ولكن الأظهر منها ينحصر في قسمين : شروط مروءة المرء في نفسه وهي العفة ، والنزاهة ، والصيانة ، وشروط مروءة المرء في غيره ، وهي المعاونة ، والمياسرة ، والإفضال .

العفة : وهي إما عن المحارم ، وإما عن المآثم . فالعفة عن المحارم ضبط الفرج ، وكف اللسان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى » . والذبذب الفرج . واللقلق

اللسان . والقبقب البطن . وقال عليه السلام « أحب العفاف إلى الله عفاف البطن والفرج » . والعفة عن المآثم كالكف عن الظلم والخيانة والمكر (لا يحيق المكر السيء إلا بأهله [1]) والباعث على الظلم الجرأة والقسوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر له ما اجترم » . وقال لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه « إتق دعوة المظلوم فإنه يسأل حقه ، وإن الله لا يمنع ذا حق حقه » والخيانة مما تعجل عقوبتها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أد الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تخن من خانك » . وقال خالد الربعي : قرأنا في بعض الكتب : إن مما تعجل عقوبته الأمانة تخان ، والإحسان يكفر ، والرحم تقطع . والبغي على الناس.

النزاهة : وهي إمنا عن المسامع الدنية . أو عن مواقف الريبة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع . وفي المعنى . قال الشاعر :

لا تضرعنّ لمخلوقٍ على طمعٍ فإنّ ذلك نقص منكَ في الدينِ
واسترزق الله مما في خزائنه فإنما هو بينَ الكافِ والنونِ

والباعث على الطمع الشره . وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتي . ولايستنكف مما منع . وحسم الطمع باليأس . والقناعة . ومواقف الريبة التردد بين منزلتي حمد وذم ، والوقوف بين حالتي سلامة وسقم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » والمانع مما يريب : الحياء والحذر . وقد تنتفي الريبة بحسن الثقة وترتفع التهمة بطول الخبرة والصلاح ، كما حكى أن بعض الحواريين رأى عيسى عليه السلام وقد خرج من منزل ذات فجور ، فقال : يا روح الله ما تصنع هنا ؟ قال :

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣

الطبيب إنما يداوي المرضى ، ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجده يحادثها وكان معتكفاً فمر بهما رجلان من الأنصار فأسرعا فقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله أيتخالجنا فيك شك يا رسول الله ؟ فقال : مه إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى دمه فخشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا لم يشن المرء إلا بما عمل فقد سعد » قال أبو بكر الصولي :

حسّنْتُ ظني بأهلِ دهري فحسنُ ظني بهم دهاني
لا آمن الناسَ بعدَ هذا ما الخوف إلا من الأمانِ

الصيانة : وهي إما بالإقتصاد ، أو بالإستغناء عن الناس . أما الإقتصاد فلأن المحتاج مهتضم ولكن لا بد مما يسد الخلة وشروطه ثلاثة : أحدها أخذه من حله . الثاني عدم ابتذال العرض فيه . لأن العرض لا يبتذل في كسبه . الثالث حسن التدبير لأن سوء التدبير فساد .

وقيل الكمال في ثلاث : الفقه في الدين . والصبر على النوائب . وحسن التدبير في المعيشة . وما فضل من الكفاية مجلبة للشغب والتعب .

وأما الإستغناء عن الناس فلأن تحمل منن الناس ذل . والإسترسال في الإستعانة بهم تثقيل عليهم . قال بعضهم : من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذلك عزته ، وأنشد ثعلب :

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك من وفرت ما في كيسه فإذا استعنت به فأنت ثقيل

ومن ادعاه إلى الإستعانة إضطرار ألم أو حادث هجم فلا لوم على مضطر ، وقد افترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قضى فأحسن

وقال « من أعياه رزق الله حلالاً فليستدن على الله ورسوله » . قـــال البحتري :

إن لا يكنْ مالٌ ففضلُ عطيةٍ يبلغ بها باغي الرضى بعضَ الرضى
أو لا تكنْ هبةٌ فقرضٌ يسرتً أسبابهُ وكواهبٍ منْ أقرضا

ونذكر شروط مرؤة المرء في غيره :

المعاونة : تكون بالجاه والمال والبدن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخلق كلهم عيال الله فأحب خلق الله إليه أحسنهم صنيعاً لعياله » . وقال صلى الله عليه وسلم « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرض لزوال تلك النعمة » وعلى المعاون التلقي بالبشر ومجانبة الإمتنان وتركِ التعرض للتقريع بما كان. قال الشاعر :

ألم تعلما أنّ الملامةَ نفـــعهـــا قليلٌ إذا ما الشيء ولى فأدبرا

قال عليه السلام « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم» . قال عدي بن زيد :

كفى زاجراً للمرءِ أيامَ دهرهِ تروحُ لهُ بالواعظاتِ وتغتدي

وقال عليه السلام « خير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله » والمعاونة واجبة للأهل والاخوان والجيران وتبرع لغيرهم .

المياسرة : وهي العفو عن الهفوات والمسامحة في الحقوق والواجبات فأما العفو عن الهفوات فشيمة أهل الفضل وعنوانُ ذوي العقل ، وقد قيل : لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه ، وقيل لأنو شروان : هل من أحد لا عيب فيه ؟ قال من لا موت له . قال أبو العتاهية :

وشر الإخـــاءِ منْ لم يـــزلْ يعاتب طوراً وطـــوراً يـــذم
يريكَ النصيحةَ عنـــدَ اللقـــا ويبريكَ في السرِّ بري القلـــم

والهفوات صغائر وكبائر ، فالصغائر مغفورة لتعذر الإحتراس منها . والكبائر منها ما يقع سهواً وهو هدر ، ومنها ما يقع عمداً ، فإن كان مجازاة فاللائمة على البادي . قال بعض الحكماء : من نالته إساءتك همته مساءتك ، وإن كان لكف عدو فالشر لا يطفأ إلا بالشر ، وإن كان إطفاؤه بالخير أولى . قال جعفر ابن محمد : كفاك من الله نصراً أن ترى عدوك يعصي الله وقال البحتري :

فأقسم لا أجزيك بالشرِ مثلــه   كفى بالذي جازيتني لكَ جازياً

وإن كان لكف لئيم كان التغافل أولى . وقيل : شرف الكريم تغافله عن اللئيم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم ناقدوك ، وإن هربت عنهم طلبوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قيل يا رسول الله : وكيف المخرج ؟ قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك ، وقال شر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره » . قال ابن بقيلة :

والخيرُ والشر مقرونان ِ في قرن   فالخيرُ متبــعٌ والشرُ محــذورُ

وإن كان تنكراً من صديق عولج بالإغضاء . وقال : دواء المودة كثرة التعاهد . قال كشاجم :

أقــل ذا الــود عثرتهُ وقفــةٌ   على سنن الطريقِ المستقيمــة
ولا تســرع بمعتبــة إليــــهِ   فقــد يهفو ونيتــه سليمــة

ومن الناس من يرى متاركه من تنكر كالعضو يقطع إذا فسد لأن رغبتك فيمن يزهد فيك ذل وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة . قيل للمهلب ابن أبي صفرة : ما تقول في العفو والعقوبة ؟ قال : هما بمنزلة

الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت. ومن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة . وهو إما ملل أو زلل ، فالملل مودة صاحبه ظل غمام وحلم منام فيترك لله فسيمل ويرجع . والزلل ينبغي أن يزول كما فعل خالد بن صفوان وقد مر به صديقان عرج أحدهما وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : عرج للواحد لفضيلته ، وطوانا الآخر لثقته ، فإن لم يقبل الزلل تأويلاً ووقع عليه ندم ، فالندم توبة ، ولا ذنب لتائب ، ولا يكاف التائب عذراً . وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والمعاذر فإنها مفاجر » وقال علي رضي الله عنه : ففي بما يعتذر منه تهمة . ومن عجل العذر قبل توبته قبل عذره . فالعذر توبة . قال الشاعر :

إقبلْ معاذيرَ منْ يأتيكَ معتذراً ... إن برَّ عندكَ فيما قالَ أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهرهُ ... وقد أجلكَّ من يعصيكَ مستترا
واحلم عن الناس إذما كنت مقتدراً ... فالسيّدُ الحرُ من يعفو إذا قدرا

وتارك التوبة والإعتذار إن كف عن الإساءة فالكف إحدى التوبتين والإقلاع أحد العذرين ، وإن استمر على إساءته ، فإن أمكن استصلاحه استصلح ، وإلا فآخر الداء الكي ، ومن سل سيف البغي أغمد في رأسه .

وأما المسامحة في الحقوق *الواجبات فلأن لإستقصاء منفر ، وذلك لمقت الطباع لمن شاحها ، وحب من سامحها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما كتب له منها » . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على شيء يحبه الله ورسوله ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : التغابن في الضعيف » واشترى عمرو بن عبيد إزاراً للحسن البصري وكان بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم ، فقال التاجر : إنما ثمنه ستة ونصف . قال . هو لرجل لا يقاسم

أخاه درهماً ، والمساحة في الأموال إسقاط وتخفيف وإنظار ؛ وفي كلها حسن الثناء ، وجزيل الأجر . قال محمود :

المرءُ بعدَ الموتِ أحدوثةٌ يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسنُ الحالاتِ حالُ امرىءٍ تطيبُ بعدَ الموتِ أخباره

الافضال : وهو اصطناع واستكفاف . فأما الإصطناع فهو ماأعطاه المرء جوداً لشكور . أو تألف به نبوة نفور . ومن قلت صنائعه في الشاكرين ، وأعرض عن تألف النافرين . بقي محقوراً وفرداً مهجوراً .

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ما طاوعني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفاً من الدنيا . قال اسحق بن إبراهيم الموصلي :

يبقى الثناءُ وتذهبُ الأموالُ ولكلّ دهرٍ دولةٌ ورجالُ
ما نال محمدةَ الرجالَ وشكرهم إلا الجوادُ بمالهِ المفضالُ
لا ترضَ من رجل حلاوة قوله حتى يصدقَ ما يقولُ فعالُ

قال الأحنف : ما أدخرت الآباء للأبناء . ولا أبقت الموتى للأحياء أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب .

فأما الإستكفاف فكل ما كف به لسان حاسد ، واستدفع ضرر معاند وقال عليه السلام « ما وقى المرء به عرضه فهو صدقة » . وامتدح الزهري رجل فأعطاه قميصه . فقيل له : تعطي في مثل هذا ؟ فقال : إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر ، وشرط عطاء الإستكفاف وخفاؤه حتى لا يطمع في مثله السفهاء ، وأن يظهر المعطي لما يعطيلى وجهاً يقرن الإعصاء به ، وليغتنم المرء غناه . وليأخذ من دنياه لأخراه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

الفصل الثالث

في المـــال

أعلم أنه قد يحتاج الزيادة في المال أهل التكرم والإفضال ، فالمال على المرؤة من أكبر العون ، وللحسب والمجد من أعظم الصون ، وهو وهو يستر العوار ، وعدمه يطفيء الأنوار . قال بعض العرب : المرؤة طعام مأكول ، ونائل مبذول ، وبشر مقبول ، وكلام معسول . وقال أحيحة بن الجلاح :

رزقتُ لباً ولم أرزقْ مروءته ... وما المروءة إلا كثرةَ المـــال
إذا أردتَ مساماة تقاعــد بي ... عما ينوه باسمي رقــة الحـــالَ

قيل : لا مروءة لمقل . قال بعض الحكماء : شر النساء إذا كانت السماحة عند من لا مال له ، وكان المال عند من لا سماحة له ، وفي ذلك يقول الشاعر :

إذا كان َمن يعطي فقيراً وذو الغنى ... بخيلاً فمن ذا يستعانُ على الدهر

قال بعضهم : المال والمروءة رضيعا لبان ، وشريكا عنان ، وغزيا حصان ، وفرسا رهان . رفع إلى المنصور كثرة نفقات محمد بن سليمان والي البصرة ، فوقع : أعظم الناس مروءة أكثرهم مؤنة . قال بعضهم :

لا مروءة إلا بالمال والفعال . وقال عبدالله بن جعفر بن علي بن أبي طالب :

أرى نفسي تتــوقُ إلى أمــورٍ يقصرُ دونَ مبلغهــن مــالي
فلا نفسي تطاوعــني ببخــلٍ لشــيء قــط إلا للنــوال
فلا والله ما أحببتُ مالاً لشيء قط إلا للــوال ِ
أفيــدُ ويستفيــدُ الناسُ مني وما يبقى يصير إلى الــزوال ِ

قال بعض الحكماء : الجدة على المروءة منجدة . قال الشاعر :

فلو مد سروري بمال ٍ كثــيرٍ لجــدت ولم تــرني باخــلا
فــإن المــرؤةَ لا تستطــاع إذا لم يكــنْ مالها فاضــلا

وقال ابن نباتة :

مثل خلعت على الزمــان رداءه عون الدراهــم آفةُ الأجواد

وقال غيره :

إحتــل لنفسكَ أيهــا المحتال فمن المرؤةِ أن يرى لكَ مال
إني رأيــتُ الموسرين أعــزةً والمعسرين عليــهــم الإذلال

فمال الرجل موئله ، وعمدته وعدته ، وجماله ومروءته . وعن هشام ابن عروة عن أبيه أن سعد بن عبادة رضي الله عنه كان يدعو : اللهم هب لي حمداً ، وهب لي مجداً ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال . اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه . وكان رضي الله عنه إذا انصرف من صلاة يقول : اللهم ارزقني مالاً أستعين به على فعالي فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال .

إحتجم داود الطائي فأعطى الحجام ديناراً ، فقيل له : هذا إسراف ! فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« نعم العون على تقوى الله عز وجل هذا المال » . وقال صلى الله عليه وسلم « نعم صاحب المسلم هذا المال لمن يأخذه بحقه ويجعله في سبيل الله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا في إثنين : رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

قال ابن سلام : ومن الحق الواجب على من ساعدته دنياه وأقبلت عليه ، وحشدت مسراتها إليه ، أن يتلقى ذلك بشكر الخالق ، ويقابله بمجد المحسن فيمتثل في عباده جميل صنعه إليه ، وينشر فيهم جزيل إنعامه عليه ، فيحسن العشرة ، ويجمل الصحبة ، ويقيل العثرة ، ويجبر الكسير ، ويمنح الفقير ، ويعين الضعيف ، وينصف العسيف ، ويأخذ بالعفو ، ويعرض عن السهو إلى ما يشبه ذلك ، ويتعلق به من أفعال البر التي تحسن ذكراه ، وتحصن عقباه ، وكما يلزمه أيضاً ، ويتعين عليه إذا أعرضت الدنيا عنه مواهبها منه لي أن يتلقى صنيعها بالصبر الجميل والشكر الجزيل ، والرضى بالمقسوم ، والتسليم للمحتوم ، لما له في ذلك من الأجر المدخور ، والثواب الموفور ، فما زال الدين مصلحاً لفساد الدنيا ، مهوناً على المؤمن فيها جميع الأشياء ، وهـو المنفرد بصلاح الآخرة ، المؤدي إلى خيراتها الوافرة . فما للعاقل عذر في التخلف عما يجمع له صلاح الدارين ، ويفوز منه بعلو المنزلين .

وقد قال بعض الحكماء : خير الدارين التقى والغنى ، وشر الدارين الفقر والعجز فأجمل في الطلب فلن يعدوك ما قدر لك ، وكان يقال : الشكر زينة الغنى ، والعفاف زينة الفقر .

قال الشبلي : الغنى أفضل من الفقر ، لأن الغنى من صفات الله تعالى والفقر من صفات المخلوقين ، وصفة الحلق التي تجب له أفضل من صفات

الخلق التي لا تجوز على الله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسب المال ، وبه تبلغ الآمال » . ويقال في المثل : رب شرف عالي الذرى ، ألحقه عدم الثراء بالثرى . قال الشاعر :

يغدو الفقيرُ وكل شيء ضدهُ والناسُ تغلقُ دونــهُ أبوابهــا
حتى الكلاب إذا رأت ذا ملبس هشت إليهِ وبصبصت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً خاطــراً هزت عليهِ وكشّرت أنيابهــا

وقال الآخر :

المالُ يرفعُ مما لا يرفعُ الحسبُ والودُ يعطفُ ما لا يعطف النسبُ
والحلم آفتهُ الجهلُ المضر به والعقل آفتهُ الإعجاب والغضبُ

ويروى أن لقمان الحكيم قال لإبنه : يا بني استعن بالكسب الحلال على الفقر ، فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خلال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به ، قال قيس ابن عاصم لبنيه : يا بني عليكم باصطناع المال ، فإنه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . قال الشاعر :

أرى الغنيَّ الناسُ يسعونَ حوله وإنْ قال قولاً تابعوهُ وصدقوا
فذلك دأب الناس ما دام ذاغنى فإن زال عنه المالُ يوماً تفرقوا

وقال آخر :

إحرصْ على الدرهمِ والعين تنــج من العيلــةِ والــدينِ
فإنمــا العــينُ بأنسابهــا وإنمّــا الإنسانُ بالعــينِ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حسب الرجل ماله ، وكرمه دينه ، ومروءته خلقه . وقال حكيم لابنه : إطلب المال ، فإنه عز في قلبك ، وذل في قلب غيرك. قال ابن عباس رضي الله عنهما : الدنيا

العافية ، والشباب الصحة ، والمروءة الصبر ، والكرم التقوى ، والحسب المال وقالت الحكماء : يجمع المال ليصان به العرض ، وتحيى به المروءة وتوصل به الرحم . قال الثوري : المال صلاح المؤمن في هذا الزمان . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : يا حبذا المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي . وقال معاوية : إن الشرف والسودد لينتقلان مع الغنى كما ينتقل الظل . قال بعضهم : الغنى حسب من لا حسب له وقال أرسطاطاليس : المال علة البقاء للنفس الحيوانية ، فهو جزء منها ، ولا بقاء للنفس بفساد ذلك الجزء . قال الشاعر :

يسودُ هذا المالُ غير مسود ويحرمهُ ليثٌ فيصبح ثعلبا
وأولُ منْ يجفو الفقيرَ لفقره بنوهُ ولن يرضوه في فقره أبا
كأن فقير القوم في الناس مذنبٌ وإن لم يكنْ منْ قبلِ ذلك أذنبا

وقال آخر :

والمرء يحقر إن قلت دراهمه وليس ينفعه إن كان ذا حسب

ومن أقوال الحكماء : المال يستر القبايح ، والفقر يحجب المحاسن إلا من رفض الدنيا اختباراً أو تركها تهاوناً لها واستصغاراً . وقالوا : المال يوقر الدني ، والفقر يذل السيء ، ويخرس الفصيح اللسان ، ويسلب الحسن من الوجوه الحسان ، واعلم أن تثمير المال آلة للمكارم . وعون على الدين . والمروءة ، ومتألف للأخوان . وأن من فقد المال : قلت الرغبة فيه والهيبة له . ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان به من لا يعرفه ، فاجهد جهدك كله أن تكون القلوب معلقة بك رغبة أو رهبة في دين أو دنيا . ولا تجمح بك الرغبة في الإزدياد من المال إلى الطلب المحظور عليك ، فإن قليل ما خبث من المال ، يمحق كثير ما طاب منه قال الشاعر :

إذا اكتسب المال الفتى من وجوهه ... وأحسنَ تدبيراً له حينَ يجمعُ
وميز في إنفاقه بينَ مصلحِ ... معيشته فيما يضرُّ وينفعُ
وأرضى به أهل الحقوق ولم يضع ... به الذخر زاداً للتي هي أنفعُ
فذاك الفتى لا جامع المال ذاخراً ... لأولاد سوء حيثُ حلوا وأوضعوا

وصاحب الدنيا يطلب ثلاثاً لا يدركها إلا بأربعة : فأما الثلاثة التي يطلب فالسعة في المعيشة . والمنزلة في الناس ، والمنزلة في الآخرة . وأما الأربعة التي يدرك بها الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجوهه ، ثم حسن القيام عليه ، ثم التثمير له ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والأخوان ويعود في الآخرة نفعه ، فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من الثلاثة ، وإن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به ، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال ، وإن هو أنفقه ولم يثمره لم تنفعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد كالكحل الذي إنما يؤخذ على مثل الغبار ، ثم هو مع ذلك سريع نفاده وإن هو أصلح واكتسب وثمر ، ثم لم ينفق المال في أبوابه كان بمنزلة الذي لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك له من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء الذي تنصب فيه المياه إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه نصل وسال من نواحيه فيذهب ضياعاً . قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) [1] قال الثوري . : من كان في يده مال فليصلحه فإنه في زمان إن احتاج إليه أول ما يبذل فيه دينه . وقال بعض الحكماء : آفة المال سوء التدبير . وآفة الكامل من الناس العدم . وقال أرسطاطاليس : الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الأهل غربة .

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٩ .

وفي كتاب الهند : ما التبع والأعوان والأهل والإخوان والأصدقاء والحشم إلا مع المال ، وما يظهر المروءة إلا المال ، ولا الرأي والقوة إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العدم فيبقى مقتصراً عما أراد كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الصيف فلا ينمى إلى بحر ولا نهر ويبقى مكانه حتى تنشفه الأرض ، ووجدت من لا مال له لا إخوان له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا عقل له لا دنيا له ولا آخرة ، ومن لا مال له لا شيء له ، لأن الرجل إذا افتقر رفضه إخوانه ، وقطعه ذوو رحمه ، وربما اضطرته الحاجة لنكسه وعياله إلى التماس الرزق بما يغرر فيه بدينه ودنياه ، فلا شيء أشد من الفقر ، والشجرة النابتة على الطريق ، المأكولة من كل ناحية ، أمثل حالاً من الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس ، والفقر داعية إلى مقت الناس ، ومسلبة للعقل والمروءة ، ومذهب للعلم والأدب ، وموضع للتهمة ، ومجمع البلايا ، ووجدت الفقير يسيء به الظن من كان مؤتمناً له . وليس من خصلة هي للغنى مدح وزين إلا وهي للفقير ذم وشين ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان جواداً قيل مفسد ، وإن كان حليماً قيل ضعيف ، وإن كان وقوراً قيل بليد ، وإن كان صموتاً قيل عي ، وإن كان بليغاً قيل مهذار ، فالموت أهون من الفقر الذي يضطر صاحبه إلى المسئلة ، لا سيما مسئلة اللئام ، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم التنين ، ويخرج منه سماً يبتلعه كان عليه أسهل وأخف من مسئلة البخيل اللئيم . قال أكثم بن صيفي : كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جل . وقال بعض الحكماء : من أبدى إلى الناس فقره فليس له عندهم قدر ، ومن أراد أن يعلم هوانه عليهم فليشك إليهم حاجته ومن استغنى عنهم عظموه ووقروه . سأل رجل الحكيم اليوناني . فقال : علمني ما يقربني من الله ومن الناس . فقال : أما ما يقربك من الله فمسئلته

وأما ما يقربك من الناس فترك مسئلتهم . قال بعضهم : أشرف المال ما قوى كريماً على مدخلة كريم . وقالوا : أفضل المال ما قضى به الحقوق وكان يقال شر مالك ما لزمك إثم مكسبه . وحرمت لذة إنفاقه . قال بعضهم : الرزق الواسع لمن لا يستمتع به ، بمنزلة طعام موضوع على قبر . وقال علي رضي الله عنه : لافضل المال ما أكسب حمداً . وأعقب أجراً قال الشاعر :

ذهاب المالِ في حمــد وأجرٍ ذهابٌ لا يقـــالُ لهُ ذهـــابُ

ومن أمثال الحكماء : خير الأموال ما استرق حراً ، وخير الأعمال شكر ما استحق شكراً . وفي كتاب الهند : لينفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه : في الصدقة إن أراد الآخرة ، وفي مصانعة السلطان إن أراد الذكر ، وفي النساء إن أراد نعيم العيش . وقالت الحكماء : من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض . قيل لابن أبي الزناد : لم تحب الدراهم وهي تدنيك إلى الدنيا . فقال هي وإن أدنتني منها فقد صانتني عنها . وقيل لبعض الحكماء : ما بالنا نجد من يطلب المال من العلماء أكثر ممن يطلب العلم من ذوي الأموال ؟ قال لمعرفة العلماء بمنافع المال وجهل ذوي الأموال بمنافع العلم . قال الحاتمي : أشرد بيت قيل في الحض على طلب الغنى قول كعب بن سعد الغنوي :

إعصِ العواذل وارمِ الليل عن عرض بذي شبيبٍ يقاسي ليله خببا
حتى تمول مـــالا أو يقـــالَ فتى لاقى التي تشعب الفتيان فانشعبا

وفي الأمثال : كاد الحريص يكون عبداً ، وكاد الفقر يكون كفراً وكاد البخيل يكون كلباً ، وفي الحكم : المال خير مآل ، وقد يشرف الوضيع بالمال . قال الشاعر :

ولم أرَ مثلَ الفقرِ أوضعُ للفتى ولم أرَ مثلَ المالِ أرفعُ للنذل

ولم أرَ عزاً لامرىءٍ كعشيرةٍ ... ولم أرَ ذلاً مثل ناءٍ عن الأهل

وقال آخر :

وكل مقل حينَ يغدو لحاجـة ... إلى كل من يلقى من الناس مذنب
وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوني معدماً مات مرحب

وقال ابن حبناء التميمي :

الناسُ أتباعُ من دانتْ لهُ النعم ... والويلُ للمرء إنْ زلت به قدمُ
المالُ عزٌ ومنْ قلّت دراهمهُ ... حتى كمنْ ماتَ إلا أنهُ صنمُ
مالي رأيتُ اخـلائي كأنهـم ... إثنانِ منقبضٌ عني ومحتشـمُ
لما رأيتُ الذي يبدونَ قلتُ لهم ... أذنبت ذنباً فقالوا ذنبك العدمُ

وقال آخر :

ألم تعلمي أن الغنى يجعلُ الفتى ... سنياً وأنَّ الفقرَ بالمرء قد يزري
فما رفعَ النفسَ الوضيعة كالغنى ... ولا وضعَ النفسَ الرفيعةَ كالفقرِ

وقال آخر :

إذا كنتَ ذا ثروةٍ مـنْ غنىً ... فأنـت المسـودُ في العالـمِ
وحسبـكَ من نسبٍ صـورة ... تخـبرُ أنـكَ مـنْ آدمِ

قال بزرجمهر : إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء مثلها فالغنى ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شيء مثله فالفقر . وقال بعضهم : الحاجة الموت الأكبر . وقال مجاهد : الخير في القرآن كله المال . وقال السري وابن زيد في قوله تعالى : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » (١) إن الحسنة في الدنيا المال وفي

(١) سورة البقرة آية ٢٠١ .

الآخرة الجنة . وقال : الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض حيث قصدت بها قضيت حاجتك . قال الشاعر :

وقائلة ما العلمُ والحلمُ والحجا وما الدينُ والدنيافقلتُ الدراهمُ
تداوي جراحَ الفقر حتى تزيلها فما هي في التحقيق إلا مراهمُ

قالت الحكماء : الدراهم مواسم تسمى حمداً وذماً ، فمن حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، وما كل من أعطى مالاً رزق به جمالاً ، ولا كل معدوم مفهوم واتفق الناس على أن ما أحوج من الفقر مكروه ، وما أبطر من الغنى مذموم . واختلفوا في تفضيل ما سوى ذلك ففضل قوم الغنى ، لأن الغنى قادر . والفقير عاجز ، والقدرة أفضل من العجز ، وهذا مذهب من غلب النباهة . وفضل قوم الفقر ، لأن الفقير تارك ، والغني ملابس ، وترك الدنيا أفضل من ملابستها ، وهذا مذهب من غلب السلامة . وتوسط قوم ، لأن خيار الأمور أوساطها ؛ وخير المال التقوى ، وهي الفائدة العظمى ، والغاية القصوى ، والأقرب إلى السلامة من خداع الدنيا . قال الشاعر :

يريدُ المـرءُ أن يؤتى منـاه ويـأبى الله إلا مـا أرادا
يقولُ المرءُ فائـدتي ومـالي وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

« لما نزل قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم)[1] الآية . أمر النبي صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي : من لم يتأدب بآداب الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات » .

---

(١) سورة الحجر آية ٨٨ .

الفصل الرابع

في التحبب إلى الناس ومداراتهم والمسالمة لهم

أجمعت الحكماء وأهل الفضل على أن السيادة والمروءة وأجمع خلال العشرة في المسارعة إلى المعونة ، وفي العفو مع القدرة ، وفي التودد إلى الناس ، والتحبب لهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن البشر » وقال عليه الصلاة والسلام « أحب الناس إلى الله عز وجل أكثرهم تحبباً إلى الناس ، وقال عليه الصلاة والسلام « إذا أحب الله عبداً حببه إلى الناس » قال الشاعر :

وجهٌ عليهِ من الحياءِ سكينةٌ ... ومحبةٌ تجري مـعَ الأنفاسِ
وإذا أحبَّ الله يومـاً عبـدهُ ... ألقى عليه محبـةً في النـاسِ

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص : إن الله عز وجل إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الناس .

واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك . وقالوا : مكتوب في التوراة : لتكن كلمتك لينة ، ووجهك بسيطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء . وفي المثل : الكلام الحسن مصايد القلوب ، والعبوس من طبعه البوس . وقال أبو دهمان لسعيد بن مسلم وقد وقف إلى بابه فحجبه حيناً ثم أذن له ، فمثل بين يديه فقال : إن الأمر الذي صار إليك

وفي يديك ، قد كان في يدي غيرك فأمسوا حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، وتسهيل الحجاب ، فإن حب عباد الله عز وجل موصول بحب الله ، وبغضهم موصول ببغضه ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورقباؤه على من اعوج عن سبيله .

وقال أرسطاطاليس للإسكندر : أعظم ما أوصيك به أن لا تتبغض إلى أحد من خلق الله ، فرأس العقل بعد الإيمان التحبب إلى الناس كافة، قال الشاعر :

البشــرُ يُكسِبُ أهلــهُ صــدقَ المودَّةِ والمحبــة
والتيــه يستدعــي لصــا حبــهِ المذمّــةَ والمسبــه

وقيل إن معاوية بن أبي سفيان قيل له : من أحب الناس إليك ؟ قال : من كانت له عندي يد صالحة . وقال اليزيدي النحوي : أتيت إلى الخليل بن أحمد فوجدته جالساً على طمسة صغيرة ، فرحب بي ووسع لي ، فكرهت أن أضيق عليه ، فانقبضت عنه ، فأخذ بعضدي،وقربني من نفسه ، وقال لي إنه لا يضيق سم الخياط بمتحابين ، ولا تسع الدنيا متباغضين ، أخذ هذا المعنى أحمد ابن عبد ربه فقال :

صلْ من هويتَ وإن أبدى معاتبةً فأحبُّ العيشَ وصلٌ بين خلّين
واقطع حبائل خدن لا تلائمــه فربما ضاقتِ الدنيا على إثنــينِ

وأقرب منه قول الآخر :

صيِّرْ فؤادكَ للمحبوبِ منزلــة سم الخياطِ مجــالَ للمحبين
ولا تسامح بغيضــاً في معاشرةٍ فقلما تسع الدنيــا بغيضــين

قال معاذ بن جبل : إذا أحببت رجلاً ، فابذل له مالك ، وأخلص له ودك ، ولذوي الفاقة رفدك ، وللعامة بشرك ، ولعدوك عدلك ، وشح بدينك وعرضك على كل أحد . قال الشاعر :

أحسِنْ إلى الناسِ تستعبد قلوبهم فطالما استعبدَ الإنسانُ إحسانُ
وإن أساءَ مسيءٌ فليكن لكَ في عروضِ زلتهِ عفوٌ وغفرانُ

قال أبو جعفر المنصور : إن أحببت أن يكثر الثناء الجميل عليك من الناس بغير نائل فالقهم ببشر حسن . وقالوا : ثلاثة لا يقوم للمرء الرشد إلا فيهن : مشاورة ناصح ومداراة حاسد ، والتحبب إلى الناس . وقالوا: التودد إلى الناس إحدى الحسنيين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس » وقالت الحكماء : لا تكمل المروءة إلا بثلاث ، قطع الرجاء عما في أيدي الناس ، والصبر على أذاهم ، وأن تحب لهم ما تحب لنفسك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت بمداراة الناس كما أمرت أن أصلي على سبعة أعظم » . وقالت الحكماء : من لم يحسن المداراة للناس نادبه المكروه . وقال بعضهم : مداراة الناس نصف العقل . وقال العتابي : المداراة سياسة لطيفة لا يستغني عنها ملك ولا سوقة يجتلبون بها المنافع ، ويدفعون بها المضار ، فمن كثرت مداراته ، كان في ذمة الحمد والسلامة . وقال بعضهم : رأس المداراة وترك المراء . قال الشاعر :

فمن لم يدارِ الناسَ قلَّ صديقه ومن ذمهم كانَ الغنى المنعما
ومن يهن الإخوان لا يكرمونهُ ومن يُكرم الإخوانَ كانَ المكرما

وقال بعضهم : ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح الماء الجاري . قال الشاعر :

إنْ ترملكَ الغربةُ في معشرٍ تطابقوا فيكَ على بغضهم

فدارِهم ما دمتَ في دارهــم   وارضِهم ما دمتَ في أرضهم

وقال آخر :

ما دمتَ حياً فدارِ الناسَ كلهم   فإنّما أنتَ في دارِ المــداراة
من يدرِ داري ومن لم يدرِ سوف يرى   عما قليل نديمــاً للندامــات

وقال آخر :

دارِ مــنْ تخشــى أذاه   والقــهُ في بــابِ دارِهِ
إنّمــَـا الدنيـــا مــدارا   ةٌ فمــنْ تخشاهُ دارِهِ

وينبغي مداراة العدو وأن يتحرز منه ولا يوثق به ، وإنما يدفـع بالمداراة إظهار العداوة . قال بعض الحكماء : سالم عدوك ما استطعت وإن كنت ذا قوة وقهر قال الشاعر :

سالم الناسَ ما استطعتَ ودار   أخسر الناسِ أحمقٌ لا يداري
ضرك الناس ضر نفسك يجــني   لا يقوم الدخــان إلا لنـ ارِ

قالت الحكماء : المسالمة السلامة ، وقالوا : سالم تسلم . قال الشاعر :

سالمْ جميعَ الناسِ تسلم منهم   إنَّ السلامةَ في مسالمة الورى
وإذا أتاكَ من امرىءٍ يوماً أذى   لا تجزه أبداً بمــا منــهُ ترى

وقال آخر :

مَــنْ سالمَ النــاسَ سالموهُ   وكــانَ في ذمــة السلامــة

لما قدم حاتم الأصم إلى أحمد بن حنبل قال له أحمد بعد بشاشته به : أخبرني كيف التخلص إلى السلامة من الناس ؟ فقال له حاتم : بثلاثة أشياء ، فقال له أحمد : ما هي ؟ قال : تعطيهم مالك ولا تأخذ مالهم وتقضي حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك ، وتصبر على أذاهم ولا

تؤذهم ، فقال أحمد : إنها لصعبة ! قال له حاتم : وليتك تسلم .
قالت الحكماء : من غض بصره عن عيوب الناس غضوا أبصارهم عنه
قال الشاعر :

لاتلتمس من مساوي الناس ما فيكا فيكشف الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وفي المثل : إستر عورة أخيك بما تعلم فيك . قال الشاعر :

أحبُّ معالي الأخلاق جهدي وأكرهُ أن أعيبَ وأن أُعابا
فمن عزَّ الرجالَ تهيبوهُ ومنْ حقّر الرجالَ فلن يُهابا

قال بعض الحكماء : إستشعروا السلامة للناس ، والبسوا لهم اللين والقوهم بالبشاشة ، وعاشروهم بالتودد ، وتفضلوا عليهم بحسن الإستماع وإن كان ما يأتون به نزراً ، فإن لكل امرىء عند نفسه قدراً فألقوهم بما يستنبطون به إليكم ، وخرجوا عقولكم بأدب كل زمان ، واجروا مع أهله على مناهجهم تقل مساويكم ، وتسلم لكم أعراضكم ، وضعوا عنكم مؤنة الخلاف ، واللجاجة في المنازعة ، فربما ورثت الشحناء ، ونقضت هرم المودة والإخاء ، فليكن المرء مقبلاً على شأنه ، راضياً عن زمانه ، سلماً لأهل دهره ، جارياً على عادة عصره ، ولا يباينهم بالعزلة فيمقتوه ، ولا يجاهرهم بالمخالفة فيعادوه ، فإن موافقة الناس رشاد ، ومخالفتهم ضلال وعناد .

وفي المثل : إدمان الخلاف من أسباب التلف . عن ابن عباس رضي الله عنه « أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أي الناس أحب إليك ؟ قال : أنفعهم للناس ، وإن من أحب الأعمال إلى الله تعالى سروراً تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تسد

عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف شهرين في المسجد . ومن كف غضبه ستر الله عورته . ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه لإمضاء ملأ الله قلبه يوم القيامة رضى . ومن مشى مع أخ له في حاجة حتى يثبتها ثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام . وسوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » .

وفي المثل : الأخلاق الصالحة ، ثمرة العقول الراجحة ، فمن لقي الناس بالإحسان ، وعاملهم بالأخلاق الحسان ، فهو الذي يخف عليهم جانبه ، وتحمد أنحاؤه ومذاهبه ، ولن يعدم منهم حسن الثناء ، ومن الله جزيل الجزاء ، إنتهى . قال الشاعر :

إذا حويتَ خصال الخير أجمعها ... فضلاً وعاملتَ كل الناس بالحسنِ
لم تعدم الخيرَ من ذي العرشِ تحرزه ... والشكر من خلقه في السرِ والعلنِ

القسم الثالث

في طـرف من الحكايـات والآداب
الصـادرة عن أولي الالبـاب والأحسـاب

أعلم أن في الحكايات والأخبار سلوة للنفوس ، وآداباً نافعةللرئيس والمرءوس ، والقلوب ترتاح إليها من شجونها ، والآذان تصغي لسماع طرفها وفنونها ، والوحيد يأنس بمطالعتها ، والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها ، والطباع تجم بها من مللها ، ويذهب عنها قلة نشاطهـا وكثرة كسلها ، والملوك يتحفون بها ، وينال الجاه والرفعة منهم بسببها .

وقال عمر بن الخطاب : عليكم بطرائف الأخبار فإنها من علم الملوك والسادة ، وبها تنال المنزلة والحظوة منهم . قال علي رضي الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسن ، وقال بعض ملوك الهند لبنيه : أكثروا من النظر في الكتب ، وازدادوا في كل يوم حرفاً ، فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة : الفقيه العالم ، والبطل الشجاع ، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي .

وقيل للمأمون : ما ألذ الأشياء . قال : التنزه في عقول الناس ، يعني قراءة أقوالهم . قال محمد بن بشير :

لله مـن جلساء لا جليسهم ... ولا خليطهـم للسوء مرتقـب
لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم ... ولا يلاقيه منهم منطق ذرب

أبقوا لنا حكماً تبقى منافعهـــا ... أخرى الليالي على الأيامِ وانشعبوا
إن شئتَ من محكم الآثارِ يرفعها ... إلى النبيِّ ثقاتٌ خيرٌ نجـــب
أو شئتَ من عربٍ علماً بأولهم ... في الجاهلية تنبيني بهـــا العـــرب
أو شئتَ من سيدِ الأملاك من عجمٍ ... تنبي وتخبرُ كيفَ الرأيُ والأدب
حتى كأني قد شاهدتُ عصرهم ... وقد مضت دونهم من دهرنا حقب
فصرت في البيتِ مسروراً تحدثني ... عن علمِ ماغاب عنافي الورى الكتب
فرداً تخبرني الموتى وتنطـــق لي ... فليس لي في أناسٍ غيرهم أرب
ما مات قوم إذا أبقوا لنا أدبـــاً ... وعلم دين ولا فاتوا ولا ذهبوا

سأل الرشيد يوماً الأصمعي عن أنساب بعض العرب . فقال : على الخبير بها سقطت يا أمير المؤمنين ، فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله حسك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا فكان الفضل على قلة علمه أعرف بما يستعمل في مخاطبة الخلفاء من الأصمعي مع إمامته ، وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر ، والبيت النادر ، وما يحكى عن أهل العصور من الأخبار العجيبة ، وما وقع لهم من الألفاظ البليغة والمعاني الغريبة ، ففي ذلك العلم بالأمور ، والعقل المكتسب ، والأدب الصادر عن ذي المروءة ، والحسب لم تزل الحكايات ، والأخبار تذكر في معرض الإعتبار ، وتورد موارد الإستبصار ، وهذا القسم لا تضبطه الفصول والأبواب ، ولا يستوفيه مصنف في كتاب غير أنه يأتي بما يناسب تبويبه ويشاكل تفصيله وترتيبه . وإني أذكر هنا من ذلك مـــا أستحسنه في فنه وأستظرفه وأستملحه في نوعه وأستطرفه في فصلين إثنين بحول الله .

الفصل الاول

في الأخبار التي تتعلق بذي الامرة والسياسة

قال المسعودي في كتابه « عيون المعارف » مما حفظ من كلام أزدشير عندما وضع التاج على رأسه أن قال : الحمد لله الذي خصنا بنعمه ، وشملنا بفوائده وقسمه ، ومهد لنا البلاد ، وقاد إلى طاعتنا العباد ، نحمده حمد من عرف فضل ما آتاه ، ونشكره شكر الداري بما منحه وأعطاه ألا وإنا ساعون في إقامة منار العدل ، وإدرار الفضل ، وتشييد المآثر وعمارة البلاد ، والرأفة بالعباد ، وزم أقطار المملكة ، ورد ما تحرم في سائر الأيام منها فليسكن طائركم أيها الناس فإني أعم بالعدل سنة محمودة وشريعة موروده وسترون في سيرتنا ما تحمدوننا عليه ، وتصدق أقوالنا أفعالنا إن شاء الله تعالى .

وكتب أزدشير بن بابك إلى الملوك الكائنين بعده : الخراج عمود المملكة يكنفه نقش الرعية ، وحفظ الأطراف والبيضة فاختاروا للعمل عليه أولى الطبيعة الحرة ، وذوي العقل والحنكة ، وكفوهم سني الأرزاق تحمسوا أنفسهم عن الإرتفاق فما استغزر بمثل العدل ، ولا استنذر بمثل الجور . وجعل أنو شروان يوماً للحكماء ليأخذ من آدابهم . فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم من مجلسه : دلوني على حكمة فيها منفعة لخاصة

نفسي وعامة رعيّتي فتكلم كل واحد منهم بما حضره من الرأي وأنوشروان مطرق مفكر في أقاويلهم وانتهى القول إلى بزرجمهر بن البختكان فقال أيها الملك : أنا جامع لك ذلك في إثنتي عشرة كلمة . قال له : هات ما هن ؟ فقال : أولاً هن تقوى الله تعالى في الشهوة والرغبة والرهبة والغضب والهوى فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس . والثانية الصدق في القول والوفاء بالعدات والشروط والعهود والمواثيق . والثالثة مشورة العلماء فيما يحدث من الأمور . والرابعة إكرام العلماء والإشراف وأهل الثغور والقواد والكتاب والخول . والخامسة التعهد للقضاة والفحص عن العمال محاسبة عادلة ومجازاة المحسن منهم بإحسانه والمسيء على إساءته . والسادسة تعاهد أهل السجون بالعرض لهم فيستوثق من المسيء ويطلق البريء . والسابعة تعاهد سبل الناس ، وأسواقهم وأسعارهم ، وتجاراتهم . والثامنة حسن تأديب الرعية على الجرائم ، وإقامة الحدود والتاسعة إعداد السلاح ، وجمع آلات الحرب . والعاشرة إكرام الولد والأهل والأقارب وتفقد ما يصلحهم . والحادية عشرة إذكاء العيون في الثغور لعلم ما يتخوف فتؤخذ إهبته قبل هجومه . والثانية عشرة تفقد الوزراء والخول ، والإستبدال بذوي الغش منهم . فأمر أنو شروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب . وقال : هذا كلام فيه جميع أنواع السياسة الملوكية .

وحدث الفضل بن سهل قال : كانت رسل الملوك إذا جاءت بالهدايا تجعل اختلافها إلي فكنت أسأل الرجل منهم عن سيرة ملوكهم ، وأخبار عظمائهم ، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم . فقال : ملك بذل عرفه ، وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة ، لا يبطر جنده ولا تحرج رعيته سهل النوال جريء النكال ، الرجاء والخوف معقودان في يديه . قلت : فكيف حكمه ؟ قال . يرد الظلم ، ويردع

الظالم . ويعطي كل ذي حق حقه . فالرعية إثنان : راض ، ومغتبط قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : يتصور في القلوب فتغض له العيون قال فنظر إلى رسول الحبشة . وأنا أصغي إليه . وأقبل عليه فسأل ترجمانه ما الذي يقول الرومي ؟ فقال : يذكر ملكهم ويصف سيرته فتكلم مع الترجمان بشيء . فقال لي الترجمان : إنه يقول إن ملكهم ، ذو أناة عند القدرة ، وذو حلم عند الغضب . وذو سطوة عند المغالبة . وذو عقوبة عند الإجرام ، قد كسا رعيته جميل نعمته . وخوفهم خسف عقوبته ، فهم يتراءونه ترائي الهلال خيالا . ويخافونه مخافة الموت نكالا وسعهم عدله ، وردعتهم سطوته ، إذا أعطى أوسع . وإذا عاقب أوجع فالناس إثنان : راج . وخائف . فلا الراجي خائب الأمل ، ولا الخائف بعيد الأجل . قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفع إليه العيون أجفانها ولا تتبعه الأبصار إنسانها كأن رعيته قطاً رفرفت عليهم صقور صوائد فحدثت المأمون بهذين الحديثين فقال : كم قيمتها عندك ؟ قلت : ألفا درهم . قال : يا فضل إن قيمتها عندي أكثر من الخلافة . أما عرفت قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه «قيمة كل امرىء ما يحسن» أتعرف أحداً من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين بمثل هذه الصفة ؟ قلت لا . قال : فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار واجعل العذر مادة بيني وبينهما في الجائزة عن العود ، فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في الخاصة والعامة دون ما يستحقانه.

سئل رجل من بني أمية عاقل . فقيل له : أخبرنا من أي شيء كان بدء زوال ملككم ؟ فقال : سألت فاسمع . وإذا سمعت فافهم : إنا زوال ملككم ؟ فقال : سألت فاسمع . وإذا سمعت فافهم : إنا تشاغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، ووثقنا بوزراء آثروا مرافقهم . وأبرموا أموراً أسروها عنا . وظلمت رعيتنا ، ففسدت نياتهم لنا . وجذب

معاشنا » فخلت بيوت أموالنا ، وقل جندنـــا ، فزالت هيبتهم لنا ، واستدعاهم أعداؤنا ، فظافروهم علينا ، وكان أكبر الأسباب في ذلك استتار الأخبار عنا .

وقد قال بعض الحكماء : خير الولاة من عدل في رعيته فيما يخصه منهم ، وفيما يخصهم منه . فأما الذي يخصه منهم فحسن النظر لنفسه فيما يجب له عليهم من التزام طاعته فلا يبال فيه من العنف عليهم منزلة تحمله على الندم في أمره والبرم لولايته ، ولا يبلغ بهم من التراخـــي والإهمال منزلة تقودهم إلى الإستخفاف بأمره ، والإخلال بحقه .

وأما الذي يخصهم منه فحسن النظر لهم ، والرفق بهم ، والجري إلى مصالحهم بحسن الذب عنهم ، ورفع الأيدي المعتدية إليهم ، وأخذه بالحق فيما لهم وعليهم ، وانتصاف المظلوم من الظالم ، والمساواة في الحقائق بين القوي والضعيف ، والغني والفقير ، حتى يعم عدله الكبير والصغير والقريب والبعيد ، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في خطبته :

إعلموا أنه لا أحد أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه ، ولا أقوى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، فمن الحق على من ملكه الله تعالى على بلاده وحكمه في عباده : أن يكون لنفسه مالكاً ، وللمثوى تاركاً ، وللغيظ كاظماً ، وللظلم كارهاً ، وللعدل في الرضى والغضب وللغيظ كاظماً ، وللظلم كارهاً ، وللعدل في الرضى والغضب مظهراً وللحق في السر والعلانية مؤثراً ، فإذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته وأشرب القلوب محبته ، فأشرق بنور عدله زمانه ، وكان الناس على أعدائه أعوانه .

كتب أبرويز لإبنه : يا بني إن كلمة منك تسفك دماً ، وكلما تحقن

دماً ، وأمرك نافذ ، وكلامك ظاهر ، فاحترس في غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف ، فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلماً .

وكتب بعض الصالحين إلى بعض الولاة : مثلك أعزك الله من تواضع لعظمة الله ، وتقرب إليه بما يرضاه، وقدم العدم في عباد الله ، فأغاث المستغيث ، وأجار المستجير . وأمن الخائف ، وعاد على الراجي ، وآثر الحلم فاغتفر ذنوب الجاني طائعاً لله مقتدياً برسول الله مستشعراً :

أجل عزائم الصبر وأوضح معالم البر

من أسماء الله سبحانه ، وصفة من صفاته ، لأنه جل ذكره يرى عصيان العاصين ، ويطلع على جناية الجانين ، ويشاهد جوز الظالمين ، ويحصي ذنوب الخاطئين ، فلا يحتجب عنه عمل عامل ، ولا يغيب عنه شيء في عاجل ولا آجل وهو لا يعجل بالانتقام مع القدرة ، ولا يستفزه الغضب مع إمهال القوة ، ولا تبعثه العجلة على إنفاذ حكمه مع وضوح الحجة ، بل يؤثر الأناة والإمهال ليكون له الفضل والمنة ، وحسبنا قوله تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) [1] الآية ، وقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) [2] الآية الأخرى . قال الشاعر :

لن يدركَ المجدَ أقوام وإن شرفوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويصفحوا عن كثير من إساءتهم لا صفح ذل ولكن صفحَ أحلام

روي عن الرشيد أنه أحضر رجلاً يوليه القضاء . فقال : يا أمير المؤمنين ، إني لا أحسن القضاء ، ولا أنا فقيه . فقال الرشيد فيك ثلاث خلال : فيك شرف والشرف يمنع أهله من الدناآت ، ولك حلم ،

(١) سورة الكهف آية ٥٨ .
(٢) سورة النحل آية ٦١ .

والحلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كثر صوابه ، وأما الفقه فسينضم إليك من تنفقه به . فولى فما وجد فيه طعن . وقال بعضهم من أخلاق الوالي السعيد أن لا يعاقب أحداً ، وهو غضبان لأن هذه حال لا يسلم معها من التعدي والتجاوز بحد العقوبة فإذا سكن غضبه ورجع إلى طبعه أمر بعقوبته على الحد الذي سنته الشريعة ونقلته الملة فإن لم يكن في الشريعة ذكر عقوبة ذنبه ، فمن العدل أن يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطة بين غليظ الذنوب ولينها ، وأن يجعل الحكم عليه فيه ونفسه طيبة وذكر القصاص منه على بال .

وقالت الحكماء : السياسة أن يخلط الوعد بالوعيد ، والعطاء بالمنع والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يصلحون إلا على الثواب ، والعقاب ، والاطماع والاخافة ، ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز ، فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين وعلى العفو والإنتقام وعلى البذل والمنع وعلى الخير والشر عاد ذلك الشر خيراً وذلك المنع عطاء وذلك المكروه نفعاً ، قال الله عز وجل (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) [1] فأسوس الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة . قال الحسن :

يا ابنَ العباسِ أنتَ الذي سماؤه للجودِ مدرار
يرجو ويخشى حالتيك الورى كأنك الجنة والنار

وقال بعضهم : الرغبة والرهبة أصلان لكل تدبير وغليهما مدار كل

(1) سورة البقرة آية ١٨٩ .

سياسة عظمت أو صغرت ، بذلك بعث الله الرسل وأنزل الكتب وأقام الوعد مع الوعيد ، والثواب مع العقاب ، والرجاء مع المخافة ، والعفو مع السطوة . قال عز وجل . (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره [١]) فكل عامل على ثقة مما وعده فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة فأطرد التدبير واستقامت السياسة لموافقتها ما في الفطرة ومن ظن أحداً من الخلق فوقه أو دونه يصلح بخلاف ما دبرهم الله عليه خالف الرب في تدبيره وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . قال الله تعالى في محكم كتابه (إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم) [٢] وتلا مطرف هذه الآية (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) فقال : لو يعلم الناس قدر نعمة الله وعفوه وتجاوزه لقرت أعينهم ، ولو يعلمون قدر عذاب الله ونكاله ونقمه وبأسه ما رقأ لهم دمع ، ولا قرت أعينهم بشيء . قال الله سبحانه (إدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [٣]) فوصف في هذه الآية منزلة القرب من البعد ، فذكر نفسه تبارك وتعالى بأقرب القرب من عبده ، وبأبعد البعد ممن استكبر عن عبادته .

وكان أنو شروان إذا ولى رجلاً أمر الكاتب أن يضع في كتاب العهد موضع ثلاثة أسطر ، فيوقع فيها بخطه : سس خيار الناس بالمحبة وامزج للعامة الرغبة بالرهبة ، وسس سفلة الناس بالمخافة . قال الشاعر :

إذا كنتم للناسِ أهلَ سياسةٍ   فسوسوا كرامَ الناسِ باللينِ والبذلِ

---

(١) سورة الزلزلة آية ٧.
(٢) سورة النمل آية ١٠ .
(٣) سورة غافر آية ٦٠ .

وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا على الذل إن الذل يصلح للنـــذل

لما أراد عمرو بن العاص المسير إلى مصر قال لمعاوية : يا أمـــير المؤمنين إني موصيك ، قال : أجل فأوصني . قال إنظر فاقة الأحرار فاعمل في سدها وطغيان السفلة فاعمل في قمعها ، واستوحش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فإنما يصول الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع .

كان زياد إذا ولى رجلاً عملاً قال له: خذ عهدك، وسر إلى عملك . واعلم أنك مصروف راس سنتك ، وأنك تصير إلى أرفع خلال ، فاختر لنفسك إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتنا من معرتنا أمانتك ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك ، وأحسنا عن خيانتك أدبك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرمك ، وإن جمعت الجرمين علينا جميعاً ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك قوياً أميناً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك ، وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقبك ..

عزل الاسكندر عاملاً عن عمل نفيس ، وولاه عملاً خسيساً ، فقدم عليه بعد حين ، فقال له : كيف رأيت عملك ؟ قال له : أيها الملك إنه ليس بالعمل الكبير ينبل الرجل ، ولكن الرجل عمله به ، وإن كان خسيساً لحسن السيرة وإنصاف الرعية .

وقال بعض الحكماء : أحسن جبلة الولاة إصابة السياسة ، ورأس إصابة السياسة العمل بطاعة الله ، وفتح ما بين للرعية : أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنن ، والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع ..

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره أن يكتب اليه بسيرته ، فكتب اليه : إني أيقظت رأيي ، وأنمت هواي ، فأدنيت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل

امرئ من نفسي قسماً . فأعطيته حظاً من نظري ؛ ولطيف عنايتي وصرفت السيف إلى النطف المسيء ، والثواب إلى المحسن البريء ، ليخاف المريب صولة العقاب ، ويتمسك المحسن بحظه من الثواب ، ويرغب أهل العفاف في أداء الأمانة ، ويتجنب أهل النطف والخيانة ، وأملت على ذلك من الله النجاة ، ومن خليفته المكافأة .

وخطب سعيد بن شريك بحمص فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إن الاسلام حائط منيع ، وباب وثيق ، فحائط الاسلام الحق ، وبابه العدل ، ولا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ، ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذ بالعدل .

قال أبو وائل الثقفي : دعاني سليمان بن وهب ، وقال لي : إني قدمت حسن الظن بك ، والثقة بأمانتك ، ووليتك قلادة في عنقي ، فصدق ظني فيك ، وحقق ثقتي بك ، ولا تفارق العدل في المخلوقين ظاهراً ، والعدل بينك وبين الخالق باطناً ، والله تعالى المستعان ، ثم دفع إلى رقعة فيها توليني على بعض الأمور .

وروى أن المهدي ولى الربيع بن أبي الجهم فارس وقال له : يا ربيع انشر الحق ، والزم القصد ، وارفق بالرعية ، واعم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه ، وأن أجورهم من ظلم الناس لغيره .

وفي كتاب الهند : إنما يسلم العاقل بالأخذ بالأناة . ولا يزال صاحب العجلة يجتني منها ثمرة الندامة ، وضعف الرأي ، وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبت من الملوك ، فإن المرأة إنما هي بزوجها ، والمولود بأبويه ، والمتعلم بمؤدبه ، والجند بالقائد ، والناسك بالدين ، والعامة بالملوك ، والملوك بالتقوى ، والتقوى بالتثبت ، فالحزم للملك معرفة أصحابه ،

وإنزالهم منزلهم ، واتهام بعضهم على بعض ، فإنهم يلتمسون هلاك بعضهم بعضاً ، وإظهار مساءة المسيئين ، وإخفاء إحسان المحسنين :

فلمْ يستـأثروا بكبيرِ جمعٍ　　وكانوا للمصالـحِ مؤثرينـا
وكانَ الحزمُ فيمـا حاولوهُ　　شعارهـم فصـاروا مكتفينا
ويسرهم لفعلِ الخيرِ فيمـا　　إليهم من أمورِ المسلمينـا
وإنْ يشأ الإلهُ فسادَ قـومٍ　　أتاحَ لهـم أكابرَ معتدينـا
ذوي كبرٍ ومجهلةٍ وجـبنٍ　　وإهمال لمـا يتوقعونـا
فظلوا يشرهونَ ويجمعـونَ　　وليسوا في العواقبِ يفكرونا
وجاروا حيثُ ما أمروا بعدلٍ　　كأن قد قيلَ كونوا جائرينا

قال الحجاج لعبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين . إنك أعز ما تكون أحوج ما تكون إلى الله . فإذا عززت بالله فاعف له . فإنك بـه تقدر . وإليه ترجع .

وقال بعض الحكماء : وجدت المسيء إلى عبد الله . ولو أساء إلى عبد لأخي لصفحت عنه إكراماً له . فكيف لا أصفح عن مسيء هو عبد الله . قال الشاعر :

إرحمْ أخي عبـادَ اللهِ كلهـم　　وانظرْ إليهم بعينِ اللطفِ والشفقة
وقر كبيرهـم وارحم صغيرهم　　وراع في كل خلق وجه من خلقه

قال الشعبي : دخلت على ابن هبيرة ، وقد أتى بقوم فأمر بضرب أعناقهم ، فقال له رجل منهم : أيها الأمير ، إن الذي جعل السجن كان حكيماً جعله قيداً للعجلة ، وباباً إلى التثبت ، وسبباً إلى الأناة ، فعليك بالتؤدة ، وإياك والعجلة ، فأنت على عقوبتنا أقدر منك على ردها ، فأمر بحبسهم ، ثم عفا عنهم ، وأحسن إليهم .

وفي سير العجم ، آثر بالقيادة والسيادة والرياسة أهل الشرف في المواضع ، وأهل القدم والنصيحة والشهرة والنجدة والخبرة بالحروب وحسن المواساة للأتباع ، وسخاء النفس لبذل المال . قال محمد بن نصر الكاتب :

إذا ما اللهُ شاءَ صلاحَ قــومٍ   أتاحَ لهم أكابرَ مصلحينا
ذوي رأيٍ ومعرفةٍ وفهـمٍ   وإعداد لمـا قدْ يحذرونا

ذكروا أن عبد الملك بن مروان لما ولى ابنه الوليد دمشق عهد اليه بما أحب ، ثم قال له : يا بني لأبيك صنائع قد رسخت في المجد أصولها ، وأورقت في العلى فروعها ، وأنشر عند الناس ذكرها ، فلا تهدمن ما قد شرف لك بناؤه ، وأضاء لك ضياؤه ، فكفى من سوء رأى المرء ، وقبيح أثره ، وضعة نفسه ، أن يهدم ما قد شيد له من فضيلة البناء ، ورفيع الثناء . إياك وأعراض الأحرار فإن الحر لا يرضيه من عرضه عوض ، واجتنب العقوبة في الأبشار فإنه وتر مطلوب ، وعار باق ، ولا يمنعك من ذي فَضل سبقت اليه صنيعة غيرك أن تصطنعه ، فإن صنيعة ذي الفضل شكر تستوجبه ، وكنز تدخره ، واستعمل أهل الفضل دون أهل الهون ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، وليكن جلساؤك غير أسنانك ، فإن الشباب شعبة من جنون ، وإن نازعتك نفسك على أخذ شيء من المال ، فلا يكن خصمك إلا بيت المال ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفهم عني وعنك ، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه فإن الكتاب موضع عقل الرجل ، ورسوله موضع عقله ، وأستودعك الله العظيم .

قال عمارة الفقيه : كنت أجالس عبد الملك بن مروان كثيراً في ظل الكعبة فبينا أنا معه إذ قال لي يا عمارة إن تعش قليلاً فسترى الأعناق مائلة إلي ، والآمال نحوي سامية ، وإذا كان ذلك فلا عليك أن تجعلني لرجائك باباً ، ولأملك ذريعة ، فوالله إن فعلت لأملأن يديك غبطة ، ولا

ولأكسونك نعمة سابغة . قال ثم إن عبد الملك سار إلى دمشق ، وصارت اليه الخلافة ، فخرجت اليه زائراً واستأذنت فأذن لي ، ودخلت فسلمت عليه ، فلما انقضى سلامي . قال : مرحباً بأخي ، ونادى أحد غلمانه . فقال : بوئه داراً وأحسن مهاده ، ونزهه ، وآثره على خاصتي . قال ففعل ، وأقمت عنده عشرين ليلة أحضر غداءه وعشاءه ، فلما أردت الانصراف والأوبة إلى أهلي أمر لي بعشرين ألف دينار ، ومائتي ألف درهم ، ومائة ناقة برقيقها وكسوتها . وقال لي : أتراني يا عمارة ملأت يديك غبطة . قال فقلت : يا سبحان الله يا أمير المؤمنين ،وإنك ذاكر لذلك . قال نعم : والله لا خير فيمن يذكر ما وعد به ، وينسى ما أوعد ، كم لهذا الأمر يا عمارة قلت :والله لكأنه بالأمس ، وله دهر يا أمير المؤمنين ، قال : فوالله ما كان ذلك عن خبر سمعناه ، ولا حديث كتبناه ، ولا أثر رويناه ، غير إني عقلت في الحداثة أشياء رجوت أن يرفع الله بها درجتي ، وينشر بها ذكري ، قلت وما هي يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، كنت لا أشاري ولا أماري ، ولا أهتك ستراً ستره الله دوني ، ولا أركب محرماً حظره الله علي ، ولا حسدت ولا بغيت ، وكنت من قومي بواسطة القلادة ، وكنت أكرم جليسي ، وإن كان دميماً ، وكنت أرفع قدر الأديب ، وأكرم ذا الثقة ، وأداري السفيه ، وأرحم الضعيف فبذلك رفع الله قدري ، يا عمارة خذ أهبة السفر وامض راشداً .

وروى أن مروان بن الحكم لما ولى ابنه عبد العزيز مصر قال له حين ودعه : إنه يقال أرسل حكيماً ولا توصه ، فانظر إلى أهل عملك ، فإن حل لهم قبلك حق غدوة فلا تؤخره عنهم إلى العشى ، وإن حل لهم عشية فلا تؤخره عنهم إلى غد ، أعطهم حقوقهم عند محلها فتستوجب بذلك الطاعة ، وإياك يا بني أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن جربوا عليك الكذب لم يصدقوك في الحق ، ولا تحابين في القضاء قريباً ولا

بعيداً . واقض في ذلك بالحق . واستشر جلساءك وأهل العلم . فإن لم يستبن لهم فاكتب إلي يأتيك فيه رأيي إن شاء الله ، وإن كان لك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك إياه حتى يسكن غضبك ، ثم ليكن منك ما كان اليه وأنت ساكن الغضب ، منطفئ الحيرة . فإن أول من جعل الحبس كان حليماً ذا أناة . ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة والعقول فليكونوا جلساءك وأهل دخلتك، ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم في غير استرسال منك ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك .

كان أزدشير يقول : ماشيء أضر على نفس ملك أو رئيس أو ذي معرفة صحيحة من معاشرة سخيف ، أو مخالطة وضيع ، لأنه كما أن النفس تصلح على مخالطة الشريف الأديب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس حتى يقدح ذلك فيها ، ويزيلها عن فضيلتها ، ويبنها عن محمود شريف أخلاقها ، وكما أن الريح إذا مرت بالطيب حملت طيباً تحمي به النفوس ، وتقوي به جوارحها ، كذلك إذا مرت بالنتن فحملته آلمت النفوس ، وأضرت بأخذها إضراراً تاماً ، والفساد أسرع إليها من الصلاح ، إذ كان الهدم أسرع من البنيان . وقد يجد ذو المعرفة من نفسه عند معاشرة السفل الوضيع شهراً فساد عقله دهراً . قال بعض الحكماء : أوحش الأشياء رأس صار ذنباً ، وذنب صار رأساً . وقال عمرو بن العاص : لأن يموت مائة من الأشراف خير من أن يرتفع واحد من السفلة لأن عرضه إذا ارتفع وضع الأشراف وحط الأقدار . قال الشاعر :

مَنْ كانَ يرجو أنْ يرى ... مِنْ ساقطٍ أمراً سنيا
فلقد رَجا أنْ يجتني ... مِنْ عوسجٍ رطباً جنيا

روى أن معاوية ركب يوماً متجولاً في بعض أزقة دمشق وهو على

بغلة شقراء له ، ومعه المغيرة بن شعبة ، فبيناهما كذلك إذ عرض لهما شخص من بعيد ، فلما نظر إليه عمدا نحوه فإذا هو معبد الجهني . فقال له معاوية : ما الذي أقدمك يا معبد أراغب أم راهب ؟ فقال : كل لم يأت لي ، ولكن أتيت وأرجع زاهداً ، فثنى معاوية عنان بغلته . فقال له المغيرة : ما ولدت قرشية قرشياً أضعف قلباً منك . فقال : يا مغيرة أيما أحب اليك ، أحلم عنهم ويجتمعون إلي ، أم أسفه عليهم ، ويتفرقون عني . فقال المغيرة لا بل تحلم عنهم ويجتمعون اليك ، فضرب معاوية بيده على صدر نفسه ، ثم قال : ما ولدت قرشية قرشياً مثل هذا القلب .

وروى أنه لما ولى الحسن بن عمارة مظالم الكوفة ، أصبح الأعمش يقول : ظالم ولى المظالم ، فبلغ الحسن بن عمارة قوله ، فوجه اليه بنفقة وثياب ، فلما أصبح الأعمش . قال مثل هذا يولى علينا يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعود على فقيرنا . فقال له رجل من جلسائه : يا أبا محمد ما هذا قولك بالأمس . قال حدثني خيثمة عن عبد الله بن مسعود . قال « جبلت النفوس على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها » . قال بعض الحكماء : من أراد أن تنقاد له القلوب بالطاعة ، ويسعد بعبول ما يأمر به وينهى عنه ، فليتول ذلك في نفسه فإن قدر عليها ووقف بها حيث يجب من المحامد فليثق بسرعة نفاذ أمره في غيره ، وقبول ما يراه ويأمر به ، فإن المهذب مطاع ، والعاجز عن مصلحته مخالف ، ولا يحظى بعظته . سأل رجل عبد الملك بن مروان الخلوة فأقبل على أصحابه . فقال : إذا شئتم فقاموا ، فلما خلا المجلس وهيأ الرجل الكلام . قال له عبد الملك على رسلك : إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب ، أو تغتاب عندي أحداً . قال فتأذن لي في الانصراف . قال نعم . قال عبد الله بن العباس ، قال لي أبي : إن هذا الرجل ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدنيك ويستخليك دون الناس فاحفظ

عني ثلاثاً : لا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا يطلعن منك على كذب .

وفي كتاب العجم : إن بعض الملوك استشار وزراءه ، فقال أحدهم : لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً به ، فإنه أموت للسر ، وأحزم للرأي ، وأجدر بالسلامة ، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين ، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإنشائه إلى العامة ، لأن الواحد رهن بما أفشي اليه . والثاني يعلق عنده ذلك الرهن . والثالث علاوة ، فإذا كان سر الرجل إلى واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة منه ورهبة ، وإذا كان عند اثنين دخلت إلى الملك شبهة ، واتسعت على الرجلين المعارض ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريأً بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ، ولا ذنب له . قال الشاعر :

شاورْ سواكَ إذا نابتك نائبة يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ
فالعينُ تنظرُ منها مادنى ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآتِ

قال الوليد بن عتبة : أسر إلى معاوية حديثاً ، فأتيت أبي ، فقلت له : إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً ولا أظنه كان يطوي عنك ما بسطه إلي أفأخبرك به . قال لا يابني إن من كتم سراً كان الخيار إليه ، ومن أنشاه كان الخيار عليه ، فلا تكن طلوكاً بعد أن كنت مالكاً . قال : فقلت يا أبت ، إن هذا لا يدخل بين الرجل وابنه . قال لا يا بني ، ولكن أكره أن يتذلل لسانك بأحاديث السر ، فدخلت على معاوية فحدثته بما جرى بيني وبين أبي ، فقال : ويحك يا وليد ، أعتقك أخي من الخطأ ، قال الشاعر :

تحفّظْ من لسانكَ فهو عضوٌ أشدُّ عليكَ من وقعِ اليمانِ

فلا واللهِ ما في الأرض شــيء   أحق بطولِ سجن منْ لســانِ

قال بعض الحكماء : يجب للوالي أن يعلم أن رأيه لا يتسع للأمور كلها فيتفرغ للمهم منها ، وليعلم أنه متى شغل نفسه بغير المهم أزرى بالمهم . وقالوا : يستدل على إدبار الملك بخمسة أمور : أحدها أن يستكفي الملك بالأحداث ، ومن لا خبرة له بالعواقب . الثاني : أن يقصد أهل مودته بالأذى . الثالث : أن ينتقص خراجه عن قدر مؤنة ملكه . الرابع : أن يكون تقريبه وتبعيده للهوى لا للرأي . الخامس : استهانته بنصائح العقلاء . وآراء ذوي الحنكة .

وقالوا : رأس أعمالك الملك أربعة أشياء : حفظ المملكة ، وتحصين الديانة ، وإثابة المحسن ، وإنصاف المظلوم .

قال بعض الحكماء : الدول تشب وتكهل وتخرف ، فإذا كان عائدها أكثر مما يستحقه الملك فهي شابة تنذر بطول البقاء ، وإن كان عائدها بمقدار ما يحتاج اليه فهي مكتهلة ، وإن كان عائدها أقل مما يحتاج اليه فهي خرفة متولية . نقل ابن سعيد في كتاب الزهرات : أن المقتدر من خلفاء بني العباس خلا يوماً ببطانته ، فقال : إنا كنا في أول أمرنا لا ننكر من حالنا ، ولا من حال الجند ، ولا حال الرعية شيئاً ، ثم صرنا ننكر حال الرعية ، ثم صرنا ننكر حال الرعية والجند ، ثم صرنا الآن ننكر الأحوال الثلاث ، فليتكلم كل بما عنده ، فأطرق الجماعة ، فقال : ما لكم لا تتكلمون ؟ فقال علي بن عيسى ابن الجراح : أيد الله أمــير المؤمنين ، إن مثل هذا لا يقدر أحد من عبيدك أن يتكلم فيه إلا خلوة . قال : فليقعد من عنده جواب عن ذلك ، فقاموا وقعد ابن عيسى ، ثم قال : سدد الله الآراء العالية ، وأمدها بالمعقبات الحافظة الكالئة ، إن هذه الأمور صلاحها واختلالها من قبل الوزراء ، وهم ولاة التدبير والنظر في الجبايات .

فكان أول وزير نظر في الأعمال ، أميناً في أموالكم ، كافيـاً في خاصتكم ، عادلاً في رعيتكم . فلم ينكر مولانا من الأحوال الثلاث شيئاً إلا أن أكفاءه حدوه على مكانه من السلطان ، وثناء الناس : فتوصلوا بكل سبب إلى عزله فكان ذلك . وولى الثاني فلم يكن له بد من سد المكان الذي أتى منه الأول فاشتغل بمداراة الخاصة وقبل الجاهات ، واحتاج إلى المصانعات ، فلم يكن له بد من الميل على الرعية . وهي أول ما يمد اليه اليد نضجت به . فلم يكن لك بد من عزله . وولى ثالث فاحتاج إلى سد المكانين ، وقد تشعبت الأحوال ، وتقلصت الأموال ، فلم يكن له بد من التغيير لما يحتاج اليه السلطان ، فعم الاختلال الأحوال الثلاث . فاستحسن المقتدر ما أتى به ، وقال : فما يصلح ما اختل ، ويقبل ما أدبر . قال : أن تولى من يقدم خوف الله فتأمن معه الرعية ، ثم يخافك فتأمنه فيما يجبيه اليك ، وفيما يخرجه عنك . وإذا خاف الله وخافك احتجت أن تسد له مكان الخوف من الناس بكثرة الاستدعاء والعمل بما أشار به ، وأن لا تجعل بينك وبينه واسطة . فبهذا تتوفر الأموال ، وتصلح الأحوال . وتبسط الأيدي بالدعاء ، وتنكف أكف الشفاعات والجاهات ، فقال : قد قلدناك ما وراء بابنا . واشترطنا لك ما شرطته لمن يتولى ذلك فيصلح الله على يديه ، فقبل يده وانصرف إلى مكان الوزارة ، فكان أول ما نطق به أن جعل الخرج أقل من الدخل . وولى للكفاية لا للعناية ، وبلغ من السياسة والأمانة إلى الغاية . فصلحت الأحوال وتكاثف ما تقلص من الظلال ، وكان علي بن بسام قد هجاه لما نفي إلى مكة ، فلما رأت اليه الوزارة جلس يوماً للمظالم فمرت به في جملة القصص رقعة مكتوب فيها :

وافى ابن عيسى وكنت أضغنه ... أشد شيء على أهونـه
ما قدر الله ليس يدفعـه ... وما سواه فليس يمكنـه

فقال علي بن عيسى صدق . هذا ابن بسام والله ما ناله مني مكروه أبداً .

الفصل الثاني

في الاخبار التي تتعلق بذوي الهمم والرياسة

حدث محمد بن عبد الأعلى بن هاشم القاضي . قال : كان الوزير سليمان بن وانسوس رجلاً جليلاً أديباً من رؤساء البربر ، وكان أسيراً عند الأمير عبد الله بن محمد صاحب الأندلس من بني أمية ، فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللحية ، فلما رآه مقبلاً جعل الأمير ينشد :

معلوفـةٌ كأنّها جوالـقٌ   نكداءَ لا بارك فيها الخالق
للقمـلِ في حافتهـا تعانقٌ   فيها لباغي المتكا مرافـق
وفي احترامِ الضيفِ ظل رائقٌ   إنّ الذي يحملها لمائـق

ثم قال له : اجلس يا بريبري ، فجلس وقد غضب . فقال له : أيها الأمير إن الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، وأما إذا صارت جالبة للذل فلنا دور تسعنا وتغنينا عنكم ، فإن حلتم بيننـا وبينها ، فلنا قبور تسعنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها ، ثم وضع يديه في الأرض وقام من غير أن يسلم ونهض إلى منزله . قال فغضب الأمير ، وأمر بعزله عن الوزارة ، ورفع دسته الذي كان يجلس عليه وبقي كذلك مدة ، ثم إن الأمير عبدالله وجد على فقده لعفافه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه . فقال للوزراء : لقد وجدت لفقد سليمان تأثيراً

وإن أردت استرجاعه وتبرأ منا كان ذلك غضاضة علينا ، ولوددت أن يبدأنا بالرغبة . فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد بن غانم : إن أذنت لي في المسير إليه استنهضته إلى هذا ، فأذن له ، فنهض ابن غانم إلى دار ابن وانسوس ، وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أيام بني أمية ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله فإنه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجبه ولا لحظة فأبطأ الإذن على ابن غانم حيناً. ثم أذن له فدخل عليه ، فوجده قاعداً ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه . فقال له ابن غانم : ما هذا الكبر ؟ عهدي بك وأنت وزير السلطان وفي أبهة رضاه تتلقاني على قدم، وتتزحزح لي عن صدر مجلسك ، وأنت الآن في موجدته بضد ذلك . فقال له : نعم لأني كنت حينئذ عبداً مثلك ، وأنا اليوم حر . قال فيئس ابن غانم منه وخرج ولم يكلمه ، ورجع إلى الأمير فأخبره ، فابتدأ الأمير بالإرسال إليه ورده إلى أفضل مما كان عليه .

لما جاءت الخلافة هشام بن عبد الملك سجد من معه غير الأبرش الكلبي فقال له هشام : ما لك لم تسجد يا أبرش ؟ فقال : مالي وللسجود يا أمير المؤمنين ، بينما أنت صاحبي إذ ذهبت في السماء وتركتني . قال : فإن ذهبنا بك معنا أو تفعل ؟ قال نعم . قال : فالآن طاب السجود فسجد .

قال أحمد بن إسماعيل بن علي : كان أبي ومشايخ أهلي يجلسون مع أبي جعفر المنصور ، وكان أحداثنا يجلسون دون ذلك ، وكان يتفقد من أمورنا ما كان يتفقده من أمور ولده حتى يستقرىء أحدنا ، ويسأله ما بلغ من القرآن ، فإن أدرك المدرك منا خيره بين أن يسريه ، وبين أن يزوجه ، ويتعاهدنا حتى يبعث بفاكهة الشام وخراسان . وكنا نصل بالغداة والعشي فنجلس في مجلسه حتى يخرج إلينا ، وإنا صرنا في مجلسه ذات يوم كعادتنا ، فجلسنا ننتظر خروجه إذ أفاض أبي وعمومتي في

استبطائه واستثاره عليهم فأطنبوا في ذلك ، وكان الموكل بالباب سليم الأسود يرفع الستر إذا جاء ، فحانت من سليم غفلة ، وجاء وهو يتسمع عليهم ، ففهم ما هم فيه ، ووثب سليم ليرفع الستر فأمسك بيده ومنعه من رفعه حتى استوعب سمعه جميع ما كانوا فيه . فلما انقضى كلامهم أمر سليمان برفع الستر ودخل ، فقاموا له كنحو ما كانوا يفعلون ، فقال : ما هذا ؟ إنما ينبغي أن تفعلوا هذا بحضرة العامة لتشدوا بذلك سلطانكم . فأما مجالس الخلوة فنحن فيها إخوة ، ثم أمرهم بالجلوس وأقبل عليهم وقال : يا عمومتي ويا إخوتي قد سمعت ما كنتم فيه ، وقولكم استأثر علينا ، ولعمري لقد كان ذلك ، وما استئثاري عليكم إلا قالكم ، ولقمع عدوكم ، وإشفاقاً من ذهاب سلطانكم . وزوال أموالكم ، وإنما أبكي لكم رقة عليكم ، فكأني بالرجل منكم ومن ابنائكم ، أو من ابناء أبنائكم بين يدي الرجل من ولدي ، أو ولد ولدي ينتسب له فلا يعرفه حتى لعله أن يبلغ علي بن عبدالله بن العباس قال : فذهبوا ليتكلموا ، فقال : أقسمت عليكم لما سكتم أفيضوا بنا في غير هذا الحديث ، فقطعهم أن يتكلموا ، وضرب الدهر ضرباته ، ومات المنصور وولي المهدي ومات ، وولى الهادي ثم مات ، وولي الرشيد وخرج الرشيد إلى الرقة ، ونالتنا جفوة ، ولزمني دين ، فخرجت إليه إلى الرقة ، فكا أول ما لقيت موكباً عظيماً ، فقلت : ما هذا ؟ فقيل لي : هذان وليا العهد الأمين والمأمون ، فترجلت وسلمت عليهما ، فقالا : من أنت ؟ فقلت : أحمد بن إسمعيل بن علي بن عبدالله بن العباس ابن عبد المطلب وبكيت ، فانتهى الخبر من ساعته إلى الرشيد ، فلم أصل إلى منزلي حتى لقيني رسوله يدعوني ، فلما دخلت عليه قال لي : مم بكيت ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كان من القصة كيت وكيت ، وسقطت إليه خبر المنصور ، فبكيت إذ كنت أنا المبتلي بذلك دون من حضره :

فقال لي : هما إبنا أخيك ، وهي عورة فاسترها ، ولن تسأل عن نسبك بعد اليومّ ، ما أقدمك ؟ قلت : دين لزمني . قال : وكم هو ؟ قلت : عشرون ألف دينار ، فقال يا غلام : إحملها إليه الساعة ، واجعل معها خمسة آلاف دينار لحفظه الحديث عن المنصور ، هل من حاجة لك غير ذلك ؟ قلت : أودع أمير المؤمنين وانصرفت .

ركب جلال الدولة يوماً إلى الصيد علىعادته ، فلقيه سوادي يبكي فقال له : مالك ؟ فقال : لقيني ثلاثة غلمان أخذوا لي حمل بطيخ كان معي هو بضاعتي ، فقال : إمض إلى العسكر ، فهناك قبة حمراء فاقعد عندها ، ولا تبرح إلى آخر النهار ، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك . فلما عاد السلطان قال لناقبه إني قد اشتهيت بطيخاً ، ففتش العسكر ، وفتش الخيام على شيء منه ، وأخذ البطيخ ، فقال : عند من وجدتموه ؟ قيل له : في خيمة فلان الحاجب ، فقال أحضروه فأحضر ، فقال له : من أين هذا البطيخ ؟ فقال : إن الغلمان جاءوا به ، فقال : أريدهم الساعة فأحسوا بالشر فهربوا خوفاً من أن يقتلهم ، فقال : أحضروا السوادي فأحضر ، فقال له : هذا هو بطيخك الذي أخذ منك ؟ قال نعم ، فقال : خذه وهذا الحاجب مملوك لي ، وقد سلمته إليك ووهبته لك حين لم يحضر الذين أخذوا البطيخ منك ، والله لئن خليته لأضربن عنقك ، فأخذ السوادي بيد الحاجب وخرجا ، فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاثمائة دينار ، فعاد السوادي إلى السلطان ، وقال : يا مولاي قد بعت المملوك الذي وهبت لي بثلاثمائة دينار . قال : ورضيت بذلك ؟ قال نعم . قال : إقبضها وامض بالسلامة .

لما ولى معاوية عمراً مصر إحتبس في بعض الأعوام خراجها عن معاوية ، فعزم على عزلة عنها ، وأراد استعمال أبي الأعور السلمي عليها وكتب إلى عمرو بالتسليم . فلما بلغ عمراً الخبر أحضر وردان غلامه

فقال له : إن أمير المؤمنين قد عزلنا ، واستعمل أبا الأعور ، فهل عندك من حيلة ؟ قال نعم . إذا قدم عليك فاصنع له طعاماً ، ولا تنظر له في كتاب حتى يأكل ، ودعنا نستعمل عليه الحيلة . فلما قدم أبو الأعور على عمرو . قال له : هذا كتاب أمير المؤمنين . قال عمرو : لو جئتنا بغير كتاب لصدقنا مقالتك . قال انظر في الكتاب . قال : ما أنا ناظر لك فيه حتى تأكل . قال : فدعا عمرو بالطعام ، ووضع أبو الأعور كتابه وعهده إلى ناحية وأقبل على الطعام يأكل ، فجاء وردان فسرق الكتاب والعهد. فلما فرغ أبو الأعور من طعامه أقبل يطلب الكتاب والعهد فلم يجدهما ، فقال : أين كتابي وعهدي ؟ قال له عمرو : مه يا أبا الأعور ، إنما جئتنا زائراً ، فنحسن جائزتك ، فاضطرب من ذلك أبو الأعور ، ثم صار إلى أن قبل الجائزة ، وبلغ ذلك معاوية حتى استلقى وأقر عمراً على ما كان عليه من ولا ية مصر .

حكى بكر بن عبدالله المزني أن رجلاً كان يقف على رأس بعض الملوك ويقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه ، وكان الملك يحسن إليه ، فحسد رجل من أصحابه على مقامه ، وتمنى أن يكون مكانه في مقامه ، فبغى عليه إلى الملك أشد البغي ، وسعى في حتفه أبلغ السعي ، حتى تغير عليه الملك ، وكان لا يكتب بخط يده إلا في صلة أو جائزة ، فكتب بخط يده إلى بعض عماله لشده حمقه : إذا وصلك كتابي هذا . فاذبح حامله ، واسلخه واحش جلده تبناً ، وابعث به إلي ، ودفعه إلى ذلك القائم على رأسه ، فأخذه وخرج به ، فلقيه الساعي عليه . فقال له : ما هذا ؟ قال : خط يد الملك إلى عامله فلان . فقال هبه لي بفضلك وأحيني به ، فإني محتاج إليه وأنت غني عنه ، فرق له ودفعه إليه ، فأخذه وذهب به فرحاً مسروراً . فلما قرأه العامل قال : أتعرف ما في كتابك ؟ قال صلة الأمير المعلومة من خط يده . قال بل

أمرني فيه أن أذبحك وأحشو جلدك تبناً وأرسل به إليه . فقال له : اتق الله في دمي ، فإن الكتاب لم يكن لي ، فراجع الملك في أمري . قال : ليس لكتاب الملك مراجعة إلا إنفاذ أمره لا سيما إذا كان بخط يده ، وأمر بإنفاذ ما في الكتاب . قال : وجاء ذلك الرجل على عادته وقام على رأس الملك، وجعل يقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مساعيه ، فلما رآه الملك . قال ما فعل الكتاب الذي كتبت لك بخط يدي ؟ قال له : لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له . قال له الملك : إنه ذكر لي عنك أمر كذا وسعى عليك بوجه كذا ، فأوضح الرجل براءته مما نسب إليه ، وبين حجته في تكذيب سعيه عليه حتى تبين له أمره ، وظهر عنده صدقه ، وجيء بجلد الباغي محشواً تبناً . فقال له الملك : صدقت وصدقت موعظتك ، قم كما أنت تقوم ، وقل كما كنت تقول .

قال الأصمعي [1] : تطاول رجل من قريش على رجل من أخلاط الناس عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل القرشي يقول : أنا من معتلج البطاح ، وأنا وأنا ، فغاظ ذلك عمر . فقال له يا هذا : إن كان لك عقل فلك حسب ، وإن كان لك خلق فلك شرف ، وإن كان لك تقوى فلك كلام وإلا فلست خيراً من أحد ، وذلك الحمار خير منك ثم قال عمر : إن أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم إسماً، فإذا رأيناكم فأحسنكم صمتاً ، فإذا تكلمتم فأثبتكم منطقاً ، فإذا اختبرناكم فأحسنكم

---

(١) الاصمعي هو عبد الملك بن قريب بن علي بن اصمع الباهلي (١٢٢ ـ ٢١٦ = ٧٤٠ ـ ٨٣١ م) . راوية العرب وأحد ائمة العلم واللغة والشعر . كان الرشيد يسميه « شيطان الشعر » قال الاخفش : ما رأينا احدا أعلم بالشعر من الاصمعي . وقال ابو الطيب اللغوي : كان اتقن القوم للغة ، واعلمهم بالشعر ، واحضرهم حفظا ، وكان الاصمعي يقول : احفظ عشرة آلاف ارجوزة . وتصانيفه كثيرة منها : الابل والاضداد وخلق الانسان والخيل والشاء و ... ـ الاعلام ـ

عملاً أحب إلينا ، وشركم عملاً أبغض إلينا ، سرائركم بينكم وبين ربكم .

قال إياس بن معاوية : خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب ، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعاتبا ، وإلى جانبهما شيخ من الحي ، فقال لهما الشيخ : أنعما عيشاً ، إن المعاتبة تبعث التجني ، والتجني يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير في شيء ما ثمرته العداوة ، فقلت للشيخ : من أنت ؟ فقال : أنا ابن تجربة الدهر فقلت : ما أفادك الدهر ؟ قال العلم به . قلت : فأيته أحمد ؟ قال أن يبقى المرء أحدوثته حسنة بعده .

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قدم الشام على حمار ، ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه على حمار ، فتلقاهما معاوية في مركب له ردء فجاوز عمر ، حتى أخبر فرجع إليه . فلما قرب منه نزل فأعرض عنه عمر وتركه يمشي . فقال له عبد الرحمن : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فأقبل على معاوية . فقال له : أنت صاحب المركب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك . قال نعم : يا أمير المؤمنين ، وقال ولم ذلك ؟ قال لأنا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني انتهيت . فقال : يا معاوية ما عاتبتك في شيء يبلغني عنك إلا تركتني منه في أضيق من رواحب الضرس ، فإن كان الذي قلت حقاً فرأى أريب ، وإن كان باطلاً فخدعة أديب ، ولست آمرك به ولا أنهاك عنه . فقال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين ، لحسن ما صدر هذا عما أوردته فيه . فقال عمر : لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه .

حكي أنه شكا أهل بعض الأقطار إلى المأمون والياً كان عليهم . فقال لهم : كذبتم فقد صح عندي عدله فيكم ، وإحسانه إليكم ، فاستحيوا أن يردوا عليه قوله . فقال له شيخ منهم : يا أمير المؤمنين قد عدل فينا خمسة أعوام ، فاجعله في قطر غيره حتى يسع عدله جميع رعيتك ، وتربح الدعاء الحسن ، فضحك المأمون واستحيى منهم ، وصرفه عنهم .

وقف شقيق بن سليك على الحجاج . فقال : أصلح الله الأمير أعرني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني شرك ، وإن سمعت خطأً أو زللاً فدونك والعقوبة . قال هات قال : عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق على إسمي ، وهدم منزلي ، وحرمت عطائي . فقال الحجاج : أما سمعت قول الشاعر :

جانيكَ من يجني عليكَ وقد تعدى الصحاح مبارك الجربِ
فلربَّ مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنبِ

قال أصلح الله الأمير : سمعت الله عز وجل يقول غير ذلك . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : قال الله العظيم (يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون) [1] فقال الحجاج : علي بيزيد ابن مسلم ، فمثل بين يديه ، فقال له : أحك لهذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابن له منزله ، وأمر منادياً ينادي : صدق الله ، وكذب الشاعر :

عاد المعلى بن أيوب صديقاً له ، فرأى علة وخلة فأسر إلى وكيله فقال : اذهب وجئني بخمسمائة درهم مختومة في قرطاس ، فذهب وجاءه

(1) سورة يوسف آية ٧٨ .

ووضعها بين يديه ، فدفعها إلى العليل وقال له : هذا دواؤك فاستعمله ونهض ، ففتحها العليل عن منية المتمني وغير ما كان من حاله . فلما كان الاسبوع عاده ثانياً ، فرآه متماثلاً نشيطاً ، فقال : كيف وجدت الدواء ؟ قال : يا سيدي وجدته نافعاً لعلتي وحالي . قال : أتريد زيادة ؟ قال نعم يا مولاي ، فقال للوكيل : اذهب وجئنا بمثل ذلك الدواء ، فذهب وجاءه بخمسمائة أخرى ، فأنشط العليل من عقال العلة ، وقال : هذه إعادة حياة لا عيادة .

وكان لعمرو بن سعيد صديق ينقطع إليه ، فرأى يوماً ثوبه الذي يلي بدنه من تحت جبته فيه أثر بلى . فلما انصرف من عنده وجه إليه بتخت من ثياب وصرة من دنانير فأخذها الرجل وكتب إليه :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتي   أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه   ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها   فكانت قذى عينيه حتى تجلت

حكي أنه لما مرض الشافعي رضي الله عنه مرضه الذي مات منه . قال لقومه : إذا أنامت ، فقولوا لفلان يغسلني ، فلما توفي وبلغه الخبر . قال : ائتوني بتذكرته ، فجيء بها إليه ، فوجد فيها على الشافعي سبعون ألف درهم دينا لفلان وفلان ، فكتبها الرجل على نفسه ، وقال : هذا هو الغسل الذي أراده .

مر الشافعي بسوق الحدادين بمصر ، فسقط قوسه من يده . فقام رجل من دكانه فأخذه ومسحه بكمه ، وناوله إياه ، فقال الشافعي رضي الله عنه لغلامه : كم معك ؟ قال : سبعة دنانير ، فقال له : إدفعها إليه .

خرج سعيد بن العاصي يوماً من عيادة مريض ، فرآه شاب من قريش يمشي وحده فما شاء حتى بلغ باب داره . فلما انتهى إلى باب

الدار التفت إليه ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : ما لي حاجة ، ولكني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك ، فقال : بارك الله فيك فيك مكانك ، ثم دخل إلى منزله فأخرج إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم فدفعها إليه .

مر يزيد بن المهلب بأعرابية عقب خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز يريد البصرة فقرته عنزاً ، فقبلها وقال لإبنه معاوية : ما معك من النفقة ؟ قال : ثمانمائة دينار ، فقال : إدفعها إليهه ، فقال إبنه : إنك تريد الرجال ، ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يرضيها اليسير ، وهي بعد لا تعرفك . قال : فإن كانت ترضى باليسير فإنا لن نرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفني ، فأنا أعرف بنفسي ادفعها إليها .

حكي أن رجلاً أتى علي بن سليمان فقال له : بالذي أسبغ عليك هذه النعم من غير شفيع كان لك إليه إلا تفضلاً منه عليك ، إلا أنصفتني من خصمي ؟ وأخذت إلي الحق منه ، فإنه مظلوم غشوم ، لا يستحي من كبير ، ولا يلتفت إلى صغير ، فقال له : أعلمني من هو ؟ فإن لم ينصفك ، وإلا أخذت الذي فيه عيناه ، من هو ؟ قال : الفقر ، فأطرق إلى الأرض ملياً ينكت الأرض بإصبعه ، ثم رفع رأسه فأمر له بعشرة آلاف دينار فأخذها ومضى . فلما سار خارجاً منه . قال ردوه . فلما مثل بين يديه قال : يا ذا الرجل ، سألتك بالله متى أتاك خصمك متعسفاً ؟ إلا أتيت إلينا فيه متظلماً ؟

قدم أعرابي على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة يمنعني الحياء أن أذكرها لك ! فقال له : يا أعرابي خطها في الأرض فخط فيها : إني فقير ، فقال علي لغلامه قنبر : إكسه حلتي ، فكساه الحلة ، فأنشد الأعرابي يقول :

كسوتني حلــة تبلى محاسنهــا　　فسوفَ أكسوكَ في حلل الثنا حللاً
إن نلتَ حسنُ ثناء نلتَ مكرمة　　ولستَ تبغي بما قد نلته بــدلاً
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبــه　　كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به　　كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال علي لغلامه : أعطه مائة دينار فأعطاه إياها . فلما ولى الأعرابي قال له قنبر : يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم ، فقال له علي : مه يا قنبر ، لا تفعل ، أصحابي معي لست أنساهم مع أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

قال أعرابي لداود بن يزيد المهلبي : إن لم أصن وجهي عن مسألتك فصن وجهك عن ردي ، وضعني من كرملك حيث وضعت نفسي من الثقة بك فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وقال له : هي أكبر من قدرك فقال له الأعرابي : لئن جاوزت قدري لما بلغت أملي فيك .

سأل رجل أسد بن عبدالله فاعتل عليه ، فقال له : ما سألتك إلا عن غير حاجة . قال ولم ؟ قال : لأني رأيتك تحب من لك عنده معروف فأردت أن أتعلق بحبل ود منك فأعطاه .

وأتى ابن السماك رجل . فقال : إني قد أتيتك في حاجة ، واعلم أن الطالب والمطلوب إليه عزيزان إن قضيت ، وذليلان إن لم تقض ، فاختر لنفسك عز البذل على ذل المنع ، واختر لي عز النجح على ذل المنع فقضى حاجته .

وقال محمد بن واسع لقتيبة بن مسلم : إني أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك فإن يأذن الله فيها قضيتها وحمدناك ، وإن لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك .

وقال فيض بن إسحاق : كنت عند الفضيل بن عياض ، إذ دخل رجل فسأله حاجة ، وألح في السؤال عليه . فقلت لا تؤذ الشيخ . فقال لي الفضيل : إسكت يا فيض ، أما علمت أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم ، فاحذروا أن تملوا النعم فتتحول نقماً ، ألا تحمد ربك أن جعلك موضعاً تسئل ، ولم يجعلك موضعاً تسأل .

وفد قوم من قريش على معاوية ، فقالوا : السلام عليك يا معاوية فبسط لهم وجهه ، وألان قوله ، فطلبوا الموادعة . فقال : يا وجوه قريش ما لكم أتيتم من مكان بعيد ، ثم لم تجعلوا بين السلام والموادعة حاجة تطلبونها ؟ فقالوا : والله يا أمير المؤمنين ، ما أتيناك إلا مفاخرين بأحسابنا مباهين لك برجالنا ، متعززين عليك بسيوفنا ، طالبين من مالك ، غير راضين باليسير من نوالك . لكنك بسطت لنا الوجه ، وألنت المقال ، فاستغنينا بذلك عن طلب المال فقال : إذن والله لأجمعن لكم بين الحسنيين ولأصرفنكم بما يقدم من تخلف منكم .

كان للقاضي أحمد بن أبي داود شخص يختص به ، ويسعى في قضاء حوائجه ، فمنعه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات من التردداد إليه لمنافسة كانت بينه وبين القاضي المذكور ، وشحناء ، فبلغ ذلك القاضي فجاء إلى الوزير . فقال له : والله ما جئتك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك رتبة أوجبت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك . ثم نهض من عنده .

قال ابن سعيد كان أحد المغاربة الأدباء يتردد إلى جمال الدين بن مطروح بالقاهرة ، وله حينئذ صيت ، وتمكن من الدولة الصالحية ، فمدحه بكثير ، وكتب له من النثر والنظم والأمثال كثيراً ، فما ظهر له منه قبول على جميع ما كتب به إليه ، وشكا إلى ذلك . فقلت له : إكتب له بقول ابن اللبانة :

جمالكَ ألبسَ الدنيا جمالاً ... ومدَّ على مناكبها ظلالا
أجل نظرَ السيادة في حديثي ... فإن الرزقَ حيثُ تميل مالا

قال : فوالله ما وقف عليهما حتى بسط وجهه ، ونظر في قصته ، وظهر منه جميع ما فات من القول والالتفات .

كان محمد بن الحسن الشيباني : قد بلغ عند الرشيد مبلغاً جليلاً ، وكان إمام الحنفية في زمانه ، واحتاج الإمام الشافعي إلى مشاركته فكتب له :

لستُ أدري ماذا أقولُ ولكن ... أبتغي من عريضِ جاهكَ نفعا
والفتى إن أرادَ نفعَ أخيهِ ... فهو أدرى في أمرهِ كيفَ يسعى

فاعتنى به حتى صدر إلى مصر بطلبته .

لما مات عمرو بن مسعدة رفعت إلى المأمون رقعة أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم ، فوقع في ظهرها ـ هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلف ، وأحسن لهم النظر فيما ترك .

لما استشعر الإسكندر الوفاة : كتب إلى أمه يقدم عندها مقدمات التصبر عن مصابه ، بمواعظ ذكرها في كتابه . ثم قال لها : يا أمت إذا أنامت فاصنعي طعاماً حسناً كاملاً ، وشراباً لذيذاً حلواً ، وأحضري له كافة الناس ، واعهدي إليهم أن لا يحضره من نابته من الدهر نائبة ، ولا من أصابته من الزمان مصيبة ، ليكون مأتم الإسكندر خلافاً عن مآتم العامة ، ويكون لك في ذلك الذكر والصيت . فلما مات امتثلت ذلك ، واحتفلت في الطعام والشراب ، ودعت الناس إليه ، وعهدت إليهم بما أمرها ، فلم يأتها أحد ، فقالت : ما بال الناس مع تقدمنا إليهم ، قد تخلفوا عنا ، فقيل لها : أمرت أن لا يحضره من أصابته مصيبة ، وكل الناس أصابتهم المصائب ، ونابتهم النوائب ، فقالت : يا إسكندر ما

أشبه أواخرك بأوائلك ، أردت والله أن تعزيني عنك التعزية الكاملة .

قال شريح القاضي : إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها لأربعة وجوه : أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي ، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها وأحمده إذا وفقني لاسترجاع على ما أرجو فيه الثواب ، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني . قال الشاعر :

الحمــدُ للهِ ربِّ العــالمــينَ	كما يحبهُ الملكُ الأعلى ويختار
هو الحميدُ الذي جلّت محامده	فليسَ يبلغ منها الدهر معشار
نثــني عليه بما أولى ونشكــره	كم نعمة منه والإنسان كفار

روي في بعض الأخبار أن امرأة من الأعراب وقفت على جماعة ، فقالت لهم : ما الكرم يرحمك الله ؟ قالوا : بذل المعروف ، والإيثار على النفس . قالت : هذا في الدنيا ، فما هو في الدين ؟ قالوا : طاعة الله سبحانه ، وبذل المجهود في عبادته ، واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده ، طيبة بذلك نفوسنا . قالت : أفتريدون بذلك جزاء ؟ قالوا نعم . قالت ولم ؟ قالوا : لأن الله وعدنا بالحسنة عشر أمثالها . قالت : سبحان الله ، فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة ، فأين الكرم ؟ قالوا : فما هو يرحمك الله ؟ قالت : هو أن يعبد الله تعالى حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء حتى يفعل بكم مولاكم ما يشاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء .

دخل المهدي الكعبة ،ومعه منصور الحجبي من حجبة البيت ، فقال : ما حاجتك ؟ قال إني أستحي أن أسأل في بيته غيره . فلما خرج أمر له بعشرة آلاف دينار .

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينهـا ، ولا تطلبوها إلى غير أهلها،ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء .

وقال خالد بن صفوان : شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه فما تركَ منه شيئاً . فلما فرغ قال له عمرو : آجرك الله على ما ذكرت من صواب ، وغفر لك ما ذكرت من خطأ ، فما حسدت أحداً حسدي عمراً على هاتين الكلمتين .

وشتم رجل الشعبي ، فقال له : إن كنت صادقاً يغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك .

وشتم رجل أبا ذر فقال له : يا هذا لا تستغرق في شتمنا ، ودع للصلح موضعاً ، فإنا لا نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وروي أن علي بن الحسين رضي الله عنهما كان يوماً خارجاً من المسجد فلقيه رجل فسبه ، فثارت عليه العبيد والموالي ، فقال علي بن الحسين : مهلاً على الرجل ، ثم أقبل عليه ، فقال له : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل ورجع إلى نفسه قال : فألقى عليه ثوباً كان عليه وأمر له بألف درهم . قال : فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسل .

ومر المسيح بن مريم بقوم من اليهود ، فقالوا له شراً ، وقال لهم خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق مما عنده .

وفي سير العجم : أن رجلاً وشى برجل إلى الإسكندر ، فقال له : أتحب أن أقبل منك عليه ، وتقبل منه عليك ؟ قال لا . قال : فكف عن الشر ، يكف عنك الشره .

قال الصلت بن سعيد : كنا عند سفيان بن عيينة ، فضجر بنا وقال : أليس من الشقاء أن أجالس التابعين ، ثم أجالسكم ؟ جالست ضمرة ابن

أبي سعيد الخدري ، وعبدالله بن دينار ، وجابر بن عبدالله ، وعدد جماعة فقال له صبي في المجلس لم يكن في الجماعة أصغر منه سناً : أنصف يا أبا محمد . قال نعم . قال : والله لشتماء التابعين بمجالستهم إياك بعد مجالستهم الصحابة ، أشد من شقائك بمجالستك إيانا بعد التابعين ، فألبس ابن عيينة ، ثم قال للصبي : يوشك أن تكون لك حال ؟ وكان صبي يحيى ابن أكثم .

وذكر أن السري بن المقلس قرأ على مؤدبه (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) [1] فقال له يا أستاذ : ما الورد ؟ فقال له المؤدب . لا أدري ، فقرأ (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) [2] فقال له يا أستاذ ما العهد ؟ فقال المؤدب : لا أدري ، فقطع السري القراءة وقال : إذا كنت لا تدري ! فلم غررت بالناس ؟ فضربه المؤدب فقال السري يا أستاذ : ألم يكفل الجهل حتى أضفت إليه الظلم والأذى ؟ فاستحله المؤدب تاب إلى الله من التأديب ، وأقبل على طلب العلم .

أكب رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف ويغمه ويثقل عليه ، ثم قال : أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية ؟ قال لا ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام . قال : ومن هم ؟ قال : أنا قتلتني اليوم بطول حديثك ، وكثرة فضولك .

قال الربيع حاجب المنصور : لما استقرت الخلافة لأبي جعفر المنصور قال لي يا ربيع : ابعث إلى جعفر بن محمد . قال : فقمت بين يديه ، فقلت : أي بلية يريد أن يفعل به ؟ وأوهمته أني أفعل ، ثم أتيته بعد ساعة فقال : ألم أقل لك ابعث إلى جعفر بن محمد ؟ فوالله لتأتيني به ، ولأقتلنه

---

(١) سورة مريم آية ٨٦ .

(٢) سورة مريم آية ٨٧ .

شر قتلة . قال : فذهبت إليه ، فقلت له : عبدالله أجب أمير المؤمنين فقام معي . فلما دنونا من الباب قام فحرك شفتيه ، ثم دخل فسلم ، فلم يرد عليه السلام ، ووقف فلم يجلس ، ثم رفع رأسه إليه ، فقال يا جعفر : أنت الذي ألبت وكثرت . وحدثني أبي عن أبيه عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ينصب للغادر لواء يوم القيامة يعرف به » قال جعفر بن محمد : حدثني أبي عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ينادي مناد يوم القيامة من بطنان العرش : ألا فليقم من كان أجره على الله ، فلا يقوم من عباد الله إلا المتفضلون » فما زال يقول حتى سكن ما به ، ولان له ، فقال : اجلس أبا عبدالله ، ارتع أبا عبدالله ، ثم دعا بمدهن غالية ، فجعل يقلبه بيده ، والغالية تقطر من بين أنامل أمير المؤمنين ، ثم قال : إنصرف أبا عبدالله في حفظ الله وقال لي : يا ربيع اتبع أبا عبدالله جائزته وأضعفها . قال فخرجت فقلت : يا أبا عبدالله شهدت ما لم تشهد ، وسمعت ما لم تسمع ، وقد دخلت ورأيتك تحرك شفتيك عند دخولك إليه ، أشيء تأثره عن آبائك الصالحين؟ قال لا ، بل حدثني أبي عن أبيه ، عن جده « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر دعا بهذا الدعاء ، وكان يقول هو دعاء الفرج :

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكنفني بركنك الذي لا يرام واحفظني بعزك الذي لا يضام ، واكلأني في الليل والنهار ، وارحمني بقدرتك على ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة أنعمت بها علي قل لك بها شكري ، وكم من بلية ابتليتني بها قل لك بها صبري ، وكم خطيئة ركبتها فلم تفضحني ، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني ويا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا من رآني على الخطايا فلم يعاقبني ، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدا ، ويا ذا الأيادي التي لا

تحصى عددا ، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبدا ، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمدا . أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم ، وأن تكفيني شر كل ذي شر ، بك أدرأ في نحره ، وأعوذ بك من شره ، وأستعينك عليه . اللهم أعني على ديني بدنياي ، وعلى آخرتي بالتقوى ، واحفظني فيما غبت عنه ، ولا تكلني إلى نفسي فيما تضره ، يا من لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، إغفر لي ما لا يضرك ، وهب لي ما لا ينقصك . يا إلهي أسألك فرجاً قريباً ، وصبراً جميلاً ، وأسألك العافية من كل بلية ، وأسألك الشكر على العافية ، وأسألك دوام العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم بك أستدفع مكروه ما أنا فيه ، وأعوذ بك من شره يا أرحم الراحمين » .

ويروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه وجه إليه بعض الخلفاء أراه أبا جعفر المنصور في الليل ليقتله ، وهو قد اشتد غضباً عليه وحنقاً . فلما وصل إليه الرسول . قال أجب أمير المؤمنين . قال وما حاجته إلي في جوف الليل ؟ فقال : لا أعرف لكني أمرت أن آتي بك ! فاستشعر الشر وخرج مع الرسول . فلما انتهى إلى باب القصر استأذن الرسول فأمر أبو جعفر بإدخاله فتوقف ساعة وحرك شفتيه . ثم دخل فقام المنصور إليه وأخذ بيده ، وأجلسه وجعل يعتذر إليه من التوجيه وراءه في مثل ذلك الوقت ، ثم عطف على الرسول ، وقال له : لعلك روعته ، فقال له لا ، ثم أمر الشافعي بالإنصراف وأمر له بمال كثير .

قال الرسول : فعجبت مما رأيت ، وعلمت أن الذي نجاه ما حرك به شفتيه ، فتبعه الرسول وقال له : بالذي استنقذك وأجاب دعاءك ألا ما أعلمتني بالذي حركت به شفتيك حين أمرت بالدخول حتى أنزلك على المقام الذي رأيت ؟ قال : نعم وكرامة ، وأنا أهدي ذلك إليك :

اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك . وبركة جلالك من كل آفة وعاهة ، ومن طوارق الليل والنهار ، ومن طوارق الأنس والجان إلا طارقاً يطرق بخير يا ألله يا رحمن . اللهم أنت عياذي فيك أعوذ ، وأنت ملاذي فيك ألوذ ، يا مـــن ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له مقاليد الفراعنة ، أعوذ بجلال وجهك ، وكرم جلالك من خزيك ، وكشف سترك ، ونسيان ذكرك ، والإضراب عن شكرك أنا في كنفك في ليلي ونهاري ، ونومي وقراري ، وظعني وأسفاري ، فاجعل ذكرك شعاري ، وثناءك دثاري ، لا إله إلا أنت تنزيهاً لإسمك وتكريماً لسبحات وجهك ، أجرني من خزيك ، ومن شر عبادك ، واضرب علي سرادقات حفظك ، وقني سيئات عذابك ، وأدخلني في حفظ عنايتك ، يا أرحم الراحمين ، فإنك على كل شيء قدير ، وأنت حسبي ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الرسل من الملائكة والنبيين وعلى جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

كان لمالك بن أنس رضي الله عنه بنت تحفظ كتابه « الموطأ » فكانت تقف خلف الباب ، فإذا قرىء على مالك وغلط القارىء نقرت الباب فيعلم غلطه . وكان له ابن اسمه محمد يجيء وأبوه مالك يحدث ، وعلى يده باشق ، فيلتفت مالك للحاضرين ، فيقول : أما إن الأدب أدب الله هذا إبني كما ترون ، وهذه بنتي كما ترون .

قال ابن سعيد في كتابه الزهرات : نقلت من كتاب البيهقي الموسوم بالعمائم بالكمائم ، أولى ما حفظ الرؤساء الكرام من الأشعار أشعار أمثالهم وأولى من حفظ من ذلك أشعار أبي دلف العجلى ، لأن أقواله فيها تطابق

أفعاله مع حلاوة منزعه ، وعذوبة مشرعه ، وأولى ما حفظ من شعره في ذلك قوله :

إذا جادتِ الدنيا عليك فجد بها ... وبادرْ بها من قبل أن تتفلــتْ
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلتْ ... ولا البخل يبقيها إذا هي ولتْ

قال بعض الشعراء :

لا تبخلنَّ بدنيـــا وهي مقبلـــة ... فليسَ ينقصها التبذيرُ والسرفُ
وإن تولت فأحرى أن تجودَ بها ... فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلفُ

وقال آخر :

ثناء الفتى يبقى ويفنى ثــراؤهُ ... فلا تكتسب بالمالِ شيئاً سوى الذكر
فقد أبلتِ الأيام كعباً وحاتمــاً ... وذكرهما غض جديد إلى الحشرِ

قال ابن سعيد : حكى لي الصاحب كمال الدين بن العديم أن القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب الذي بلغ عند صلاح الدين وابنه الظاهر ما لم يبلغه أحد من نظرائه مرض بحلب . قال : فمشيت في جماعة من الشبان المبتدئين في القراءة والظهور إلى عيادته . فعندما دخلنا عليه قام لنا ، فجعلنا نحلف أن لا يفعل . فقال : يا سبحان الله ! تتفكرون في مرضي ، وتتعنون من أماكنكم إلى منزلي . ثم أبخل عليكم بقومة ؟ هذا والله غير طريق المروءة، ثم قال يا أولادي : لقد دخلت على كبير وأنا في سنكم فلم يحتفل بي . فإلى الآن ما أذكر ذلكم إلا أسأت ذكره .

قال : وكنت أتردد إلى مجلس كمال الدين بن يغمور وهو نائب السلطنة بالشام . وكان يقوم لي كلما دخلت عليه . فدخلت يوماً فإذا به مضطجع فلم يقم ، وأخذ فيما كان يأخذ فيه . فلما دخلت عليه في اليوم الثاني قام ثم جلس ، ثم قام ثم جلس . وقال : هذه الأخيرة قومة

أمس كانت علي ديناً ، لعذر تتفضل بقبوله دون مطالبة بذكره ، فتعجبت من فضله ، وقلت ما سار لهذا الرجل ؛ ما سار في الآفاق من باطل .

قال يزيد بن أبي حبيب : خرجت إلى الصيد ، فبينا أنا يوماً أدور على شاطىء النيل ، إذا أنا براهب في الماء ، وهو يغسل عباءة بالطين والماء ، فوقفت أنظر إليه ، فنظر إلي وقال : أظنك ممن يطلب الأحاديث ؟ قال قلت : أجل . فقال : إصبر حتى أفرغ من شأني ، وأحدثك حديثاً نجده عندنا ، فانتظرته حتى فرغ ، ثم جاء فجلس فقال : يا هذا إنا نجد في علمنا مثلاً ، أن الحق والباطل اصطحبا في سفر فمشيا إلى الليل . فلما نزلا قال الباطل للحق : اذهب فأتنا بشيء نفطر عليه . قال : فذهب الحق فطلب فلم يجد شيئاً من حله فرجع ، فقال له الباطل : ما صنعت ؟ قال : لم أجد شيئاً من حله ، فقال الباطل : اجلس حتى آتيك . قال : فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء بشيء ، فقال للحق كل . فقال : ما أراه من حله ولست بآكله . فقال له الباطل : بعثتك لتأتيني بشيء فلم تجد شيئاً . فلما ذهبت أنا وجئت بما نفطر عليه حرمته علي فنازعه فوثب الباطل على الحق فقتله ، ثم قال : إن أهل الحق قد علموا أنه خرج معي ، ولا بد لهم أن يطلبوني به . فعمد إلى حطب فجمعه ثم أضرم عليه النار حتى صار رماداً ، ثم ذهب وتركه ، فجاءه أهل الحق فقالوا : ما فعل الحق ؟ فقال لا علم لي به ، فقالوا معك خرج . فقال نعم ، ولا أدري ما فعل . فخرج أهل الحق يطلبونه ، حتى وقفوا على الموضع الذي أحرقه فيه الباطل . فقالوا : هذا رماد الحق ، وهذا موضع ناره ، حيث أحرقه الباطل ، فجمعوا رماده ، وصنعوه مداداً يكتبون به ، فهذا ما بقي من الحق . فأما الحق بعينه فقد ذهب .

ومن المنقول في تأليفنا مقالات الأدباء :

دخل رجل على سلم بن قتيبة الباهلي ، فكلمه في حاجة ، ووضع نصل سيفه على إصبع سلم بن قتيبة ، وجعل يكلمه في حاجته ، وقد أدمى إصبعه ، وسلم صابر . فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف : دعا سلم بمنديل ، فمسح الدم من إصبعه وغسله . فقيل له : ألا نحيت رجلك أصلحك الله ، أو أمرته برفع سيفه عنها . فقال : خشيت أن أقطعه عن حاجته .

حديث الأصمعي : [1]

قال : سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده بها ، ثم إن الحاجة تعذرت على أبي عمرو ، فلقيه الرجل بعد ذلك . فقال له : يا أبا عمرو وعدتني وعداً فلم تنجزه ؟ قال له أبو عمرو : فمن أولى بالغم أنا أو أنت ؟ فقال له أنا . فقال له أبو عمرو : بل أنا ! فقال له الرجل : وكيف ذلك أصلحك الله ؟ قال : لأني وعدتك وعداً فأبت بفرح الوعد وأبت أنا بهم الإنجاز ، وبت ليلتك فرحاً ، وبت مفكراً مغموماً ، ثم مغموماً ، ثم عاق القدر عن بلوغ الإرادة ، فلقيتني مدلا ، ولقيتك محتشما ، فمن هنا صرت أولى بالغم منك .

اجتمع جماعة من الشعراء بباب أبي الغيث فلم يأذن لهم ، فكتبوا إليه :

أيها ذا العزيز قد مسنا الضر ودبت به الخطوب إلينا
ولدينا بضاعة مزجاة قلَّ طلابها فبارت لدينا
فأزلْ ضرنا وأوفِ لنا الكيلَ بما شئت أو تصدق علينا

فأحسن إليهم وانصرفوا .

---

(١) وردت ترجمته في ص ١٨٢ .

روي أن عكرمة بن ربعي الفياض ولي أصبها فأنهب خراجها في زوارة وقدم المدينة ، فتتبع بها إخوانه ، وأعطاهم عطايا لم يكن فيها أقل من عشرة آلاف درهم ، ثم سأل عن بشر بن غالب الذي تنسب إليه جبانة بشر بالكوفة ، فقيل له : غلبه الدين حتى اختفى . قال فأمهل ، حتى إذا أمسى حمل معه بدرة ، وعلى غلامه بدرة أخرى ، وتخنّأ من ثياب أصبهان ، ثم سأل عن منزل بشر ، فدل عليه ، فدق الباب . فقال بشر لامرأته : أنظري من هذ ؟ وما حاجته ، وما يريد ؟ قال فخرجت إليه امرأته . فقالت : من أنت ، وما حاجتك . وما تريد ؟ قال أريد بشراً . قالت : أو ما علمت أنه غائب منذ شهر ؟ قال : فحلف لهـــا بالطلاق والعتاق أنه آمن ، وأنه ليس له قبله شيء يكرهه . قال : فخرج بشر إليه . فقال : ما حاجتك ؟ قال : مر بهذا المال يقبض . قال ومن أنت ؟ قال : وما عليك أن لا تعرف اسمي ؟ فقال : علي ذلك . قال : فترضى أن نوجز لك . قال نعم . قال : أنا جابر عثرات الكرام . قال : إنك لأهل أن يقبل منك . قال : فلم كان بعد قليل ولي بشر بن مروان الكوفة ، وجعل على شرطته بشر بن غالب ، ودفع إليه عكرمة بن ربعي وقال له : دق يديه حتى يرد ما كسر من خراج أصبهان . قال : ففظع عليه العذاب ، وهو لا يعرفه . فقالت له امرأته : أخبره بيدك عنده . قال تأمريني أن أتقاضى معروفي والله لا فعلت . قال فأخبرهم أنا. قال إن فعلت فأنت طالق ثلاثاً . قالت : فرأيت الطلاق أهون علي من أن تتلف نفسه ، فدخلت على امرأة بشر. فقالت : تدرون من تعذبون ؟ نعم هو عكرمة . قالت : هو جابر عثرات الكرام . قال : فدعت بالويل قال : فدخل عليها بشر . فقالت : تدري من تعذب ؟ قال نعم هو عكرمة . قالت : هو جابر عثرات الكرام الذي طرقنا ليلاً بما طرق . قال : فدعا بثيابه وسيفه ، ثم مثل بين يدي بشر بن مروان . وقال :

أصلحك الله هذا مقام العائذ . قال وما ذاك ؟ قال : إن الذي أخبرتك أنه طرقنا ليلاً بما طرقنا هو عكرمة . قال : فماذا تريد ؟ قال : أريد أن تخلي سبيله . قال : فإنا قد فعلنا . قال : وأخرى أصلحك الله.. قال وما هي ؟ قال : أن تصيره مكاني معك . قال : فإنا قد فعلنا . قال : فعاشا صاحبين مع بشر بن مروان رحمة الله على جميعهم .

قدم سعيد بن العاصي الكوفة ، عاملها لعثمان رضي الله عنه ، فكانت له موائد يغشاها الأشراف والقراء ، فكان فيمن يغشى موائده رجل من القراء فقير . فقالت له امرأته : ويحك إنه يبلغنا عن أميرنا هذا كرم وجود ، فاذكر له بعض ما نحن فيه ، فتعشى عنده ذات ليلى . فلما انصرف الناس منه ثبت الرجل . فقال له سعيد : إني قد أرى جلوسك وما جلست إلا ولك حاجة فاذكرها رحمك الله . فتعقد الرجل وتعسر فقال سعيد لغلمانه : تنحوا يا غلمان ، ثم قال له : رحمك الله إنما هو أنت ودنا فاذكر حاجتك ، فتعقد أيضاً وتعصى ، فنفخ سعيد المصباح فأطفأه ، ثم قال له : رحمك الله إنك لست ترى وجهي فاذكر حاجتك قال : أصلح الله الأمير أصابتنا حاجة فأحببت ذكرها لك . قال له : إذا أصبحت فالق فلاناً وكيلي . فلما أصبح لقي الوكيل . فقال له : إن الأمير قد أمرني بشيء فهل جئت بمن يحمل ؟ قال لا والله ما عندي من يحمل ورجع إلى امرأته ، وجعل يعذلها ويلومها. وقال قال لي وكيله: جئت بمن يحمل ؟ وما هي إلا قوصرة من تمر أو قفيز من بر ولو كانت دراهم أو دنانير أعطانيها بيده . قالت : ويحك ما كان من شيء فقوتنا به ! فمكث أياماً ثم لقيه الوكيل . فقال له : ويحك أين تكون أخبرت الأمير أنه ليس عندك من يحمل ؟ فأمرني أن أوجه معك من يحمل ، فوجه معه بثلاثة من السودان يحمل كل واحد منهم بدرة على عاتقه حتى أوردوها منزله ، فأطلق وكاء بدرة منها ، ووهب لهم منها دريهمات .

وقال : انصرفوا . قالوا إلى أين ؟ ما حمل له مملوك قط هدية فرجع إلى ملكه .

امتدح نصيب الشاعر عبدالله بن جعفر ، فأمر له بخيل وإبل وأثاث ودنانير ودراهم . فقال له رجل : أمثل هذا الأسود يعطى مثل هذا المال ؟ فقال عبدالله بن جعفر : إن كان أسود ، فإن شعره أبيض ، وإن ثناءه لمروى ، وقد استحق بما قال أكثر مما نال ! وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى ؟ ومالاً يفنى ، ومطايا تضنى ، وأعطانا مدحاً يروى . وثناء يبقى .

دخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي ، فرآه معرضاً عنه فقال : ما لي أرى الأمير كالعاتب علي ! قال : ذلك لشيء بلغني عنك كرهته . قال : إذن والله لا أبالي . قال ولم ؟ قال : لأنه إن كان ذنباً غفرته ، وإن كان باطلاً لم تقبله .

خطب أبو جعفر المنصور يوماً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عرض الناس ، فقال : أذكرك الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين ، فأجابه أبو جعفر : بلا فكرة ولا روية سمعاً سمعاً لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أذكر بـه وأنساه فتأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . وأما أنت أيها القائل فوالله ما الله أردت بها ، ولكن ليقال قال فترقب وصبر ، وأهون بها لـو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وهنا أنبتت ، ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

حج عتبة بن أبي سفيان سنة إحدى وأربعين والناس قريب عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال : أيها الناس إنا قد ولينا هذا المقام الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصرنا ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا ، ورب

متمن حتفه في أمنيته ، فاقبلوا العافية ما قبلناها منكم ، وإياكم ولو فانها أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسئل الله أن يعين كلاً على كل ، فصاح به أعرابي : أيها الخليفة فقال : لست به ولم تبعد . فقال يا أخاه ، فقال سمعت ، فقل . فقال : تالله إن تحسنوا وقد أسأنا ، خير من أن تسيئوا وقد أحسنا ، فإن كان الأحسن لكم دوننا فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ويقرب إليكم بالخئولة ، قدكثره العيال ، ووطئه الزمان ، وبه فقر ، وعنده شكر ، فقال عتبة : استغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بغناك ، فليت إسراعنا إليك يقوم بابطائنا عنك .

تنازع إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد ، فأربى عليه إبراهيم وأغلظ له في القول ، فغضب لذلك ابن أبي دؤاد . وقال : يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا أمراً ، فلا ترفع عليه صوتاً ، ولا تشر بيدك وليكن قصدك أمما ، وطريقك نهجا ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ووف مجالس الخليفة حقها من التوفير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الحق ، فإن هذا أشكل بك ، وأجمل بمذهبك ، في محتدك وعظيم خطرك ولا تعجلن فرب عجلة تهب ريثاً ، والله يعصمك من الزلل ، وخطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتما على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم . فقال إبراهيم : أمرت أصلحك الله بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست عائداً لما يثلم قدري عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الإعتذار ، فها أنا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه ، باخع بجرمه ، لأن الغضب لا يزال يستفزني بمواده ، فيردني مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعندنا فيك ، وحسبنا

الله ونعم الوكيل ، وقد جعلت من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك يكون وافياً بأرش الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفـاد موعظة ، وبالله سبحانه التوفيق .

بعث زياد إلى معاوية برجل مخالف من بني تميم . فلما مثل بين يديه قال له : أنت القائم علينا ، المكثر لعدونا . قال : يا أمير المؤمنين إنما كانت فتنة عم عماها ، وأظلم دجاها ، نزا فيها الوضيع ، وخف الحليم والرفيع ، فاحتدمت وأكلت علينا وشربت ، حتى إذا انحسرت ظلماؤها وانكشف غطاؤها ، آل الأمر إلى مآله ، وصرح عن محضه ، وارتفع العبوس ، وثابت النفوس ، فتركنا فتنتنا ، ولزمنا عصمتنا ، وعرفنا خليفتنا ، ومن يجد متاباً ، لم يرد الله به عقاباً ، ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ، فعجب معاوية من فصاحته ، واستغرب حسن اعتذاره وعفا عنه ، وأحسن إليه .

لما غزا الإسكندر دار ابن دارا ، وكان دارا قد مله قومه وأهل مملكته وأحبوا الراحة منه ، فلحق كثير من وجوه أصحابه وقواده إلى الإسكندر وأطلعوه على عورته وقروه عليه . فلما التقيا ببلاد الجزيرة اقتتلا سنة كاملة ثم وثب على دارا جماعة من قومه فقتلوه . وكان الذي فعل به هذا حاجباه . فلما سيق رأسه إلى الإسكندر أمر بضرب أعناق الذين ساقوه وقال : هذا جزاء من اجترأ على ملكه .

قال الأصمعي : كان لي صديق من أهل الأدب والمروءة والحسب قد أتى عليه ثلاثة أعصار ، مشتهر بحفظ العلوم والأخبار ، والملح والأشعار وكان لا تسكن حركاته ، ولا تتوفر لذاته ، إلا في قضاء حوائج الاخوان وإدخال السرور على من عرفه من الأخدان ، فألهاني ما شهدت منه ، عما وصف لي عنه . فقلت له يوماً : ما هذا الذي تفعله ، وما قواك على ما

ما تصنعه ؟ فقال : يا أصمعي إني شهدت الأيام في يده اخضرار عيشها ورأيت تصرفها ، وحلبت الدهر أشطره ، ولهوت في ريعان الشباب . وجالست العلماء ، وصحبت أهل التصابي ، فما طربت بما سمعت ، ولا ابتهجت بما رأيت ، كابتهاجي لنشر حر نعمة ، وشفاعة شافع ،في طلب شاكر يرجو لهذلك الحياة في العاجل ، وجزيل الثواب في الآجل ، إني لأتشوق إلى الرجل الأديب ، تشوق المريض إلى الطبيب ، وأطرب إليه كطرب المحب إلى الحبيب ، أنشد :

إذا الأديبُ معَ الأديبِ تحادثا كانا مِن الآدبِ في بستانِ
لا شيءَ أحسنُ منهما في مجلس يتطاعمانِ جواهراً بلسانِ

ذكر أن المتوكل بن الأفطس فر إليه شخص من بني هود مغاضباً لابن عمه ملك سرقسطة فآواه وأحسن إليه ، ثم اختبره فرآه أهلاً للولاية فولاه . فقال له أحد وزرائه : كثير هذا في تغيير قلب قريبه يا مولاي تسخط قادراً في حق عاجز ، تفرط فيمن تحتاج إليه كما يحتاج إلينا ، وتغتبط بمن لا تحتاج إليه بل هو موكل علينا . فقال له المتوكل : الذي قلت حق ، ولكن كيف يكون اقتناء المكارم ؟

روي أن أنو شروان غضب على وزير بزرجمهر ، فسجنه في بيت كالقبر وصفده با لحديد . وألبسه الخشن من الصوف ، وأمر أن لا يزاد في كل يومين على قرصين من الخبز ، وكف ملح جريش ، ودورق ماء ، وأن تنقل ألفاظه إليه ، فأقام شهوراً لا تسمع له لفظة ، فقال أنوشروان: أدخلوا عليه أصحابه، ومروهم أن يسئلوه ويفاتحوه الكلام وعرفونيه ، فدخل إليه جماعة من المختصين به . فقالوا له : أيها الحكيم نراك في هذا الضيق والحديد والشدة التي دفعت إليها ، ومع هذا فإن سحنة وجهك ، وصحة جسمك على حالها لم تتغير ، فما السبب في

ذلك ؟ فقال : إني عملت جوارش من ستة أخلاط فآخذ منه كل يوم شيئاً فهو الذي أبقاني على ما ترون . فقالوا : فصفه لنا فعسى أن نبتلي بمثل بلواك أو أحد من إخواننا فنستعمله أو نصف له ؟ فقال : الخليط الأول الثقة بالله . والثاني أن كل مقدر كائن . والثالث الصبر خير ما استعمله الممتحن . والرابع إن لم أصبر فأي شيء أعمل ، ولم أعن على نفسي بالجزع . والخامس قد يمكن أن أكون في شر أصعب مما أنا فيه . والسادس من ساعة إلى ساعة فرج .

القسم الرابع

في جمل من الوصايا والمواعظ الحسان
العظيمة الفائدة والمنفعة لكل انسان

اعلم أن الكلام في هذا القسم لا ينحصر لاتساع القول فيه ، غير أني آتي هنا بمقصدي منه ، وأرجو بعون الله أن أوفيه ، وأنقل من ذلك إن شاء الله جملاً من الوصايا نافعة ، وفنوناً من المواعظ كافية وفنوناً من المواعظ واقية ، لمن اتعظ بها شافية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه رشده » فالانقياد إلى الرشد والتوفيق ، والإستقامة على الخير ، ونهج سواء الطريق ، والتمسك بحبل الهدى ، يصرف عن المرء الردى ، ويكشف عن قلبه الران والصدا ، وما أجدر العاقل بذلك وأولاه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

قال بعض الحكماء : إستصلح نفسك بعقلك، واجعل نظرك وتفكرك بمنزلة المرآة فتدرك بها ما التبس من أمرك . فالعقل أفصح واعظ ، وأحرس حافظ ، وبالعقل أدرك الناس معرفة الله تعالى . قال الله سبحانه (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [1] فصديق المرء عقله ، وعدوه جهله . فالعاقل من عقله في إرشاد ، ومن رأيه في إمداد . والجاهل من جهله في إغواء ، ومن هواه في إغراء . قال الشاعر :

---

(١) سورة لقمان آية ٢٥ .

مَنْ لم يكـــنْ أكثرهُ عقلـــهُ   أهلكـــهُ أكـــثرُ ما فيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل »

قال بعض العلماء : وجميع أعمال البر ، وجملة دواعي الخير والشر ، ورأس الورع ، وكمال الزهد ، وملاك أسباب الشرع أصلها العلم بالله . وحسن الطاعة لله ، والخوف من الله ، والرجاء في الله، والمراقبة لله ، فخذ من الدنيا ما تيسر ، واجعل التقوى حظك الأوفر ، فالدنيا كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعمت المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » .

وقال بعض العلماء: ليس الحرج في أن يتصرف الإنسان في طلب حظه من الدنيا فيما لا بد له منه ، ولا غنى به عنه ، لأن أسباب الحاجة وحيل العجز إنما هي في الدنيا التي هي دار تكليف وعمل ، لأن الآخرة دار قرار وجزاء ، فليصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته لأن بها يتزود لآخرته . وقد قال مجاهد في قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) [1] أي إذا فرغت من مؤنة الدنيا فانصب في العبادة .

وقال لقمان الحكيم : خذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك تقدمه لآخرتك ، ولا ترفضها كل الرفض فتكون على الناس عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلا .

ومن كلام عمر رضي الله عنه : ليس خيركم من عمل الآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه ، وإنما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة ، وزاد

(١) سورة الشرح آية ٧ .

على حد الكفاية ، فإنها فضول لا تجدي ، وزوائد لا تنفع ولا تغني ، تحمل المرء في اشتغاله لها . والنظر فيها على التقصير عما فيه الفائدة ، والتأخر عما فيه العائدة . والعقلاء تركوا فضول الدنيا ، فكيف الذنوب ! وترك فضول الدنيا من العقل ، وترك الذنوب من الفرض .

قال بعض الحكماء : المجرب أحكم من الطبيب ، وفي تصرف الدنيا موعظة لكل أريب . فمن صح له يقينه . وسلم له دينه ، فلا شيء يضيره ولا يشينه ، ومن لم يعتبر تصرف الأيام ، غرق في بحر الآثام . وقد قيل : كفى بالتجارب تأدباً ، وبتقلب الأيام عظة .

ومن كلام بعض الحكماء : مواعظ الأيام أبلغ من مواعظ الأنام وإن أعربت من غير كلام . وأفصحت عن استعجام . فطوبى لمن جعل له من نفسه واعظاً ، ونصب عليه من الله حافظاً .

وقال بعضهم : لقد فاز قوم أدبتهم الحكمة ، وأحكمتهم التجربة فلم تغررهم السلامة المنطوية على الهلكة ، ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به مسافة آجالهم ، فشفعوا حسن المقال بجميل الفعال ، وبذلوا النعيم الفاني ، رغبة في النعيم الباقي . ولم يؤثروا العاجل الخسيس ، على الآجل النفيس . فلا تراهم إلا في موطن خير ، وعلى سبيل نفع . قال الله العظيم ، مخاطباً لنبيه الكريم (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) [1] .

. ومن كلام عيسى عليه السلام :

طوبى للناطق في قوم يسمعون كلامه . إنه ما تصدق رجل بصدقة أعظم عندالله من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنة ، وخير ذلك ما كان من قائل مخلص إلى سامع منصت ، وانتهى الكلام في هذا القسم في خمسة عشر فصلاً بالفصلين اللذين في تعلم العلم .

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

فصل من مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم ووصاياه

ومواعظ السلف الصالح ووصاياهم

وغيرهم من العلماء والحكماء

قال صلى الله عليه وسلم : « أقبلوا على ما كلفتموه من إصلاح آخرتكم ، وأعرضوا عما ضمن لكم من أمر دنياكم ، ولا تستعملوا جوارح غذيت بنعمته في التعرض لسخطه بمعصيته ، واجعلوا شغلكم بالتماس مغفرته ، واصرفوا هممكم إلى التقرب إليه بطاعته . والجئوا إلى العمل الصالح وأكرهوا عليه النفوس ، واصبروا على الضراء تفضوا إلى النعيم الدائم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حلوا أنفسكم بالطاعة ، وألبسوها قناع المخافة ، واجعلوا آخرتكم لأنفسكم ، وسعيكم لمستقركم .واعلموا أنكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، ولا يغنى عنكم هنالك إلا صالح عمل قدمتموه ، أو حسن ثواب حزتموه .

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : « أيها الناس إن الأيام تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان في الثرى تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويخلقان كل جديد ، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، ورغب في الباقيات الصالحات».

وقد قال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : « أيها الناس إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالـم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن المؤمن بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه . وأجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خلقت لكم ، وأنتم خلقتم للآخرة ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » .

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه : « أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب ، وكأن الحق على غيرنا وجب ، وكأن الذي نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ، نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الزلة والمسكنة . طوبى لمن ذلت نفسه ، وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره طوبى لمن أنفق من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، ويقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ، إن أعطي منها لم يشبع ، وإن منع لم يقنع ويأمر بما لا يأتي . يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض المسيئين وهو منهم . يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت له . إن سقم ظل نادماً ، وإن صح أمن لاهياً ، يعجب من نفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلى ، تقلبه نفسه على ما يظن ، ولا يقلبها على ما يستيقن ، ولا يثق من الرزق بما ضمن له ، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه ،

إن استغنى بطر ، وإن افتقر قنط وحزن ، فهو من الذنب في حالي المحنة والنعمة موقر ، يبتغي الزيادة ولا يشكر ، ويتكلف من الناس ما لا يؤمر ويضيع من نفسه ما هو أكثر ، ويبالغ إذا سأل ويقصر إذا عمل . يخشى الموت ، ولا يبادر الفوت . يستكثر من معصية غيره ، ما يسهل أكثره من نفسه ، مزاهر اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء ، يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره . وهو يطاع فيعصي ويستوفي فلا يوفي .

وروي أن رجلاً قال لعلي رضي الله عنه : عظني يا أمير المؤمنين ! فقال : لا تكن بما نلت من دنياك فرحاً ، ولا على ما فاتك منها أسفاً ، وكن مسروراً بما قدمت ، آسفاً على ما أبقيت ، فرقاً مما بعد الموت .

وروي عنه رضي الله عنه أنه قال : ألا أخبركم بالفقيه كل الفقه ؟ قالوا : نعم . قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أيها الناس إن أقربكم اليوم إلى الله أشدكم له خوفاً ، وإن أحبكم إليه أحسنكم له عملاً ، وإن أعظمكم عنده نصيباً أعظمكم فيما عنده رغبة ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ومما ينسب إليه من الشعر :

يمثلُ ذو الحزمِ في نفسه ... مصائبهُ قبلَ أنْ تنزلا
فإن نزلتْ بغتةً لم ترعهُ ... لما كانَ في نفسه مثلا
رأى الأمر يفضي إلى آخرٍ ... فصير آخره أولا
وذو الجهلِ يأمنُ أيامهُ ... وينسى مصارعَ مَن قد خلا
فإن دهمتهُ صروف الزمان ... ببعض مصائبه أعولا
ولو أثرَّ الحزمُ في أمرهِ ... لعلّمهُ الصبرَ عندَ البلا

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : أيها الناس اتقوا الله، فليس من هالك إلا له كلف بالتقوى ، واحذروا الموت فإنه أشد ما قبله ، وأهون ما بعده . ولا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيصها بالتوبة فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات :

نهارك يا مغرورُ سهوٌ وغفلـــةٌ ... وليلكَ نومٌ والأسى لكَ لازمُ
تسر بمـــا يفنى وتفرح بالمـــنى ... كما سر باللذات في النوم حالمُ
وسعيك فيما سوف تكرهُ غبه ... كذلكَ في الدنيا تعيش البهائم

وخطب رضي الله عنه فقال : أيها الناس إن لكل سفر زاداً لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ، فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل لمن لا يدري لعله لا يمسي بعد إصباحه ، ولا يضحى بعد إمسائه ، وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا . وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من العذاب وأهوال يوم القيامة ، فأما من لا يداوى من الدنيا كلما إلا أصابه منها جارح من ناحية أخرى كيف يطمئن ؟ أعوذ بالله أن آمركم عما أنهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي ، وتبدو مسكنتي ، ليوم لا ينفع فيه إلا الصدق والحق .

وكان رضي الله عنه بعث رسلاً إلى ملك الروم في فداء من عندهم من المسلمين . فمات عمر وهم في بلاد الروم فبلغ صاحب الروم موت عمر ولم يبلغ المسلمين ، فأعلمهم ملك الروم بموته فبكوا . فقال : لا تبكوا عليه فقد استراح من غضب الدنيا وكربها وأعراضها . وكان إلى الروح والدعة والسرور إن بقاء أهل الخير مع أهل الشر قليل ، وإن صاحبكم كان أعجب عندي من الرهبان الذين تفردوا في الصوامع لأنه رفض الدنيا مع إقبالها عليه ، وتركها وهي في يديه .

ووعظ بعض الحكماء قوماً فقال : يا قوم إستبدلوا العواري بالهبات تحمدوا العقبى . واستقبلوا المصائب بالصبر تستحقوا النعمى . واستديموا الكرامة بالشكر تستوجبوا الزيادة . واعرفوا فضل البقاء في النعمة ، والغنى في السلامة قبل الموت ، وانتقال العدل ، وحلول الأجل . فإنما أنتم في الدنيا أغراض المنايا ، وأوطان البلايا . ولن تنالوا نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل معمر منكم يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله ولا يحيى له أثر إلا مات له أثر ، فأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم ، وفي معائشكم أسباب مناياكم لا يمنعكم شيء منها ، ولا يشغلكم شيء عنها ، وأنتم الأخلاف بعد الأسلاف ، وستكونون الأسلاف قبل الأخلاف فكل منكم صريع منعفر ، ونائم ينتظر . فمن أي وجه تطلبون البقاء ؟ وهذا الليل والنهار لم يرفعا شيئاً قط إلا أسرعا الكرة في هدمه ، ولا عقدا أمراً قط إلا رجعا في نقضه .

دخل أبو الدرداء الشام فقال : يا أهل الشام إسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا إليه ، فقال : ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون ! وتجمعون ما لا تأكلون ! وتؤملون ما لا تدركون ! إن الذين كانوا قبلكم بنوا مشيداً ، وأملوا بعيداً ، وجمعوا عتيداً ، فأصبح أملهم غروراً ، وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا .

ونظر الحسن البصري إلى الناس في مصلى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد ، فقال : إن الله جعل الصوم مضمار العباد . ليستبقوا إلى إلى طاعته . فسبق أقوام ففاز ا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المحقون ، وخسر المبطلون ، ولعمري لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه . ومسيء بإساءته عن تجديد ثوب ، أو ترجيل شعر .

ونظر وهب بن منبه إلى قوم يضحكون في يوم عيد ، فقال : إن كان هؤلاء غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ! وإن كانوا يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين !

روي أنه قيل للحسن البصري [1] : ههنا رجل لم نره قط إلا جالساً وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني ، فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن : هذا الرجل الذي أخبرناك به ، وأشاروا إليه ، فمضى إليه الحسن ، فقال له : يا عبدالله أراك قد حببت إليك العزلة ، فما يمنعك من مخالطة الناس ؟ فقال : أمر شغلني عن الناس . فقال : فما يمنعك من أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال : أمر شغلني عن الناس وعن الحسن . قال له الحسن : وما ذاك الشغل يرحمك الله ؟ قال : إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب ، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار من الذنب وشكر الله على النعمة . فقال له الحسن : أنت يا عبدالله أفقه عندي من الحسن ، فالزم ما أنت عليه .

وروي أن الإسكندر مر بمدينة قد تملكها سبعة أملاك وباد جميعهم فقال : هل بقي من نسلهم أحد ؟ فقالوا : نعم رجل يسكن المقابر . فدعاه فأتاه فقال له : ما دعاك إلى لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام العبيد فوجدتها سواء . فقال له : هل لك أن تتبعني فأحيي شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة ؟ قال : همتي عظيمة قال : وما هي ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم بعده ،

---

(1) هو الحسن بن يسار البصري ـ ابو سعيد ـ (٢١ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) تابعي ، كان امام اهل البصرة ، حبر الأمة في زمنه وهو احد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد بالمدينة ، وشب في كنف علي بن ابي طالب . عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم . لا يخاف في الله لومة لائم .
ـ الاعلام ـ

وغنى لا فقر معه ، وصحة من غير سقم ، وسرور من غير مكروه . قال : هذا ما لا تجده عندي . فقال : فدعني أطلبه ممن هو عنده . فقال الإسكندر : ما رأيت رجلاً أحكم من هذا وخرج من عنده ، فلم يزل في المقابر حتى لحق بأهله رحمه الله .

دخل بعض الصالحين يوماً على أبي جعفر المنصور ، ومعه ابنه المهدي فقال له المنصور : هذا المهدي ابني وقد وليته عهد المسلمين . فقال له الرجل الصالح : إنك قد رضيت له الأمر الذي يرزؤك في وقت أنت عنه مشغول ، فبكى المنصور وقال له عظني ! فقال : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها . فإن هذا الأمر الذي أصبح في يديك لو بقي في يدي غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده .

وقال بعض السلف : عاملوا الله بتقواه . واسترضوه بطاعته . ولا تملوا من ذكره، ففيه النجاة من النار . ولا تستصغروا الذنوب وتستحقروها فإنه من استصغر الذنب وقع فيه . ومن ركب المعصية أهلك نفسه ، فإن الله عز وجل لم يترك صغير الذنوب للأنبياء . فكيف للأشقياء ؟ .

قال الشاعر :

نسير إلى الآجالِ في كل ساعةٍ — وأيامنا تطوى وهنّ مراحـلُ
ولم نرَ مثل الموتِ حقاً كأنـهُ — إذا ما تخطته الأماني باطـلُ
ترحل من الدنيا بزادٍ من التقى — فعمركَ أيامٌ تعـدُّ قلائـلُ

وعظ رجل من الصالحين بعض أصحابه . فقال له : هل رأيت الخير كله إلا من الله ؟ قال نعم . قل : فلم تكره لقاء من لم تر الخير إلا من عنده ؟ والله من مات ولقي الله مؤمناً لقد تخلص من الأدناس ،

وخرج من الوحشة إلى الايناس ، لا سيما إن لفحته نار المحاذير ،ورضي بتصرف المقادير . لقد خلصته تخليص التبر من الخبث ، ونقلته أنقى من الدار إلى الجدث .

قال محرز : قلت للغضائري عظني . فأنشد :

حياتك أنفاسٌ تعدُّ فكلما ... مضى نفس منك انتقصت به جزءا
فتصبح في نقصٍ وتمسي بمثله ... ومالكَ معقول تحس به رزءا
يميتك من يحييك في كلِّ ساعة ... ويحدوكَ حادٍ ما يريد بكَ الهزؤا

وقال الشاعر :

تأهب للحمامِ فكلُّ حيٍ ... قصاراه وإن عاش المماتُ
ودع شغلاً يفوتكَ منتهاه ... فإنَّ الشغلَ غايتهُ الفواتُ
ولا يطمع ذهابكَ في رجوعٍ ... فإنَّ طلاقَ ذي الدنيا بتاتُ

وقال بعضهم : إن كل يوم يمر بكم يحمل ما ثبت فيه من خير أو شر ، ثم يمضي فلا يعود أبداً . فإن قدرتم أن تحظوا كل يوم بمكرمة وتثبتوا فيه حسنة فلا تؤخروا ، فإن الأيام صحائف فخلدوا فيها الجميل فقد رأيتم حفظها لما استودعت من المحامد والمكارم في قديم الدهر وحديثه قال الشاعر :

حتى متى نحنُ في الأيامِ نحسبها ... وإنّما نحنُ فيها بين يومينِ
يومٌ تولى ويومٌ نحنُ نأملهُ ... لعلهُ أقربُ الأيامِ للحينِ

وقال عامر العدواني : الأيام ثلاثة : يوم مضى عليك لا ترجوه . ويوم أنت فيه لا بد منه . ويوم يأتيك لا تأمنه . فأمس واعظ . واليوم غنيمة . وغد لا تدري ما حكمه . وأمس الماضي شاهد مقبول ، وأمين مؤد أودعته زاداً خيراً أو شراً ، وترك لك عوضاً منه لتحسن صحبته

واليوم الذي أنت فيه ضعيف سريع الظعن ، فأحسن له الصحبة ، يلقنك الحجة ، ويحبوك الشهادة . وغد المقبل حاكم تنتظر قدومه ، فأما حبيب لا يظلم ، وإما عدو لا يرحم .

وقال بعضهم : اخواني إقبلوا قول ناصح لكم . واعملوا لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير ، وتلوح كأنها ريح . فما انقضت ساعة من أمسك إلا وأخذت بضعة من نفسك . والسعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه . والشقي من جمع لغيره ، ويخل على نفسه بخيره . قال الشاعر :

كل يوم يمرُّ يأخذُ بَعْضي ... يُورِث القلبَ حسرةً ثم يَمْضي

قال الحسن البصري : لقد رأيت أقواماً كانوا لن حسناتهم أن ترد ترد عليهم أشفق منكم من سيآتكم أن تعذبوا بها . وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . قال الشاعر :

اطلبْ لنفسكَ فوزها وانظر لها ... نظر الشفيقِ وخفْ عليها واتقِ
منْ ليسَ يرحم نفسه ويصدها ... عما سيهلكها فليسَ بمشفقِ

رأى إياس بن قتادة شيبة في لحيته . فقال : أرى الموت يطلبني ، وأراني لا أفوته . اللهم إني أعوذ بك من فجأة الأمور ، وبغتات الحوادث يا بني سعد قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبتي ، ولزم بيته صائماً قائماً . فقال له أهله : تموت هزالا ؟ فقال : لأن أموت مؤمناً مهزولا أحب إلي من أن أموت منافقاً سميناً . قال الشاعر محمود الوراق :

بكيتُ لقربِ الأجلِ ... وبعد فوات الأملِ
ووافد شيب طرا ... بعقبِ شبابِ رحل
شباب كأن لم يكن ... وشيب كأن لم يزلِ
طواكَ بشيرُ البقا ... وحل بشيرُ الأجلِ

ومن مواعظ بعض الصالحين : اغتنم تنفس الأجل ، وإمكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل ، فإنك في أجل محدود ، ونفس معدود ، وعمر غير ممدود ، والطبيب معذور ، إذا لم يدفع المقدور . قال زهير المهلبي :

مضى الشبابُ وولى ما انتفعت به ... وليته فارط يرجى تلاقيهِ
وليت لي عملاً فيهِ أسر بهِ ... وليتني لاجرى لي ما جرى فيه
فاليومَ أبكي على ما فاتني أسفاً ... وهل يفيد بكائي حين أبكيهِ
واحسرتاه لعمرٍ ضاعَ أكثره ... فالويل إنْ كانَ باقيه كماضيهِ

وقال أبو الربيع بن سالم :

وقائلةٌ شبتم فقلتُ لها شبنا ... وفي هذه الدنيا الدنية . أنشبنا
ويا ليتنا لما تقضى شبابنا ... خلصنا وأخلصنا ولكننا شبنا
فيا عجباً منا على الله نجتري ... وتهفو سوافي الريح أرواحنا جبنا
وكيف أضعنا باقيا لمعجل ... سيفنى لقد نلنا بصفقتنا غبنا
وكم صرفتنا بينَ ملهى وملعبٍ ... فما إن نكرنا قبح ذاكَ ولا عبنا
ونادى سفاه قد حضرنا وإنما ... عن الرشدِ والتوفيقِ يومئذ غبنا
فيا ليت شعري ما يكون جوابنا ... إذا نحنُ في وفدِ القبور غداً أبنا
أينفع إنكار وذو العرشِ عالم ... بمودعة صدراً وملزمة ضبنا
ألا ليس إلا عفوه عن ذنوبنا ... فإن يَخْبِ التقديرُ فيه فقد خبنا

قال بعض العلماء وجد مكتوب في حجر : ابن آدم ولو رأيت يسير ما بقي من أجلك ، لزهدت في طول ما ترجو من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندملك إذا زل بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب

وانصرف عنك الحبيب . فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد

قال أبو العتاهية :

ليسَ فيما مضى ولا في الذي لم | يأتِ منْ لـذةٍ لمستحليهـا
إنّما أطولُ عمركَ ما عمـر | ت في الساعةِ التي أنتَ فيهـا
علـل النفس بالكفـافِ وإلا | طلبت منكَ فوقَ ما يكفيهـا

وقال بعضهم : إن لله أقواماً أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر له ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ، مدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعها من لطيف الفوائد ما لا يمكن واصفاً أن يصفه ، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً ، وهم في الظاهـر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً .

قال رجل لرجل من الزهاد : ما رأيت أزهد منك . قال : أنت أزهد مني . قال وكيف . قال: لأنك زهدت في الجنة على بقائها وزهدت أنا في الدنيا على فنائها . قال الشاعر :

إنّ للهِ عبـاداً فطنـا | طلقوا الدّنيا وخافوا الفتنـا
فكروا فيهـا فلمـا علمـوا | أنهـا ليسـت لحـيٍ وطنـا
جعلوهـا لجـةً واتخـذوا | صالحَ الأعمـالِ فيهـا سفنا

وجد على حائط من حيطان المقابر : يا من أبطره الغنى وأسكرته شهوات الدنيا تجهز للرحلة العظمى فقددنا نزولك على أهل البلا . وعلى الجانب الآخر : يا عجباً لغفلة الاحياء وهم يرون مصارع الموتى ، يتنافسون في السرير ومصيرهم إلى القبور .

حكي أن عبدالله بن عتبة باع غلة بثمانين ألفاً . فقيل له : لو اتخذت بهذا المال ذخيرة لولدك لكان حسناً . قال : أجعل هذا المال عند الله ذخراً ، وأجعل الله ذخراً لولدي ، ثم قسم المال كله في أهل الحاجة .

قال عبدالله بن مسعود : أيها الناس إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوضة ، وأعمال محفوظة ، وأنفاس معدودة ، والموت يأتي بغتة . فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة ، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة . ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطيء لحظة ولا يدرك حريص ما لم يقدر له فمن أعطى خيراً فالله أعطاه ومن وقى شراً فالله تعالى وقاه المتقون سادة ، والفقهاء قادة ، ومجالستهم زيادة ، ومؤانستهم سعادة إنتهى . قال الشاعر :

إنــك في دارٍ لهــا مهــلــة ... يقبل فيهــا عمــل العامــلِ
أما ترى المــوتَ محيطــاً بنــا ... يقطــع فيهــا أمــل الآمــلِ
نعجــل الأمرَ بمــا نشتهــي ... ونأملُ التــوبة في قــابــلِ
والموتُ يأتي بعــد ذا غفلــة ... ماذا بفعــلِ الحــازمِ العاقلِ

قال وهب بن منبه [1] : مر نبي من الأنبياء على عابد في كهف جبل فقال : السلام يا عبدالله منذ كم أنت ههنا ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قال : فمن أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر . قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون . قال : وأين تكون في الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل . قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : فكيف لا

---

(١) هو وهب بن منبه الأنباوي الصنعاني الذماري ، ابو عبدالله : مؤرخ ، كثير الاخبار عن الكتب القديمة ، عالم بأساطير الاولين ولا سيما الاسرائيليات . يعد من التابعين .
(٣٤ ــ ١١٤ هـ ــ ٦٥٤ ــ ٧٣٢ م) ــ الاعلام ــ

أصبر فإنما هو يومي إلى الليل فإذا أمسى فقد مضى ، وأما الغد فلم يأت فعجب النبي عليه السلام من حكم قوله إنما هو يومي إلى الليل .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

صبرٌ جميلٌ إذا نابتكَ نائبــةٌ ... وإن عتبت فلا عتبى على الزمنِ
هي المقادير فاحذرها فكم صرعت ... من وافرِ العقل ذي لب وذي فطنِ
وارض القناعة لا تبغي بها بدلا ... لو لم تنولك إلا راحةَ البدنِ
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راحَ منها بغير الزادِ والكفنِ
فإنما الغبن في يومِ النشور إذا ... تغابن الناس فيهِ أيمــا غــبنِ

قال إبراهيم بن أدهم : خرجت أريد بيت المقدس فلقيت سبعة نفر فسلمت عليهم . وقلت : أفيدوني شيئاً فقالوا أنظر كل قاطع يقطعك عن الله في الدنيا والآخرة فاقطعه . فقلت زيدوني . فقالوا : لا ترج أحداً غير الله ولا تخف غيره ، وانظر كل من يحبه فأحبه وكل من يبغضه فأبغضه ، وعليك بالتضرع والبكاء في الخلوات والتواضع والخشوع له حيث كنت والرحمة للمؤمنين والنصيحة لهم . قلت زيدوني رحمكم الله فقالوا : اللهم حل بيننا وبين الذي شغلنا ما كفاه هذا كله . قال : فلا السماء رفعتهم أم الأرض ابتلعتهم فلم أرهم ونفعني الله بهم . وأنشد أحمد بن حنبل رضي الله عنه :

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفــل ساعــةً ... ولا أن ما تخفي عليهِ يغيــبُ
لهينا عن الأعمالِ حتى تتابعتْ ... ذنوبٌ على آثارهنَّ ذنــوبُ
فيا ليتَ أنَّ اللهَ يغفرُ ما مضى ... ويأذنُ في توباتنــا فنتــوبُ

فصــل

ومن المنقول في تأليفنا تذكرة من اتقى : حدث سويد بن حارث الحارثي قال « دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا سابع سبعة من قومي فقال ما أنتم ؟ قلنا مؤمنون يا رسول الله . قال : ما حقيقة إيمانكم ؟ قلنا خمس عشرة خصلة يا رسول الله : خمسة أمرتنا رسلك أن نعمل بها ، وخمسة أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ، وخمسة كنا عليها في الجاهلية إلا أن تكون تكره منها شيئاً يا رسول الله . قال : ما الخمسة التي أمرتكم رسلي أن تعملوا بها ؟ قلنا : شهادة أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت مع الاستطاعة . قال : فما الخمسة التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها ؟ قلنا : نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . قال : فما الخمسة التي كنتم عليها في الجاهلية ؟ قلنا : الرضا بالقضاء والشكر عند الرخاء والصبر عند نزول البلاء والثبات عند اللقاء وترك الشماتة إذا نزلت المصائب بالأعداء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا لها من خمسة ما أجلها وما أجملها وما أحفلها احفظوا عني خمساً تكمل لكم عشرون خصلة : لا تأملون ما لا تدركون ولا تبنون ما لا تعمرون ولا تجمعون ما لا تأكلون ولا تشتغلون بما أنتم عنه راحلون واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون . فحفظنا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انصرفنا قال لأصحابه : تروتهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : حكماء علماء فهماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

توفي رجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان مسرفاً على نفسه ، فلما تضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه فقال لهما : ما يبكيكما ؟ قالا : نبكي لإسرافك على نفسك . قال : فلا تبكيا فوالله

ما سرني أن الذي بيد الله من أمري بأيديكما ، ثم مات فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أن فتى توفي اليوم فاشهده فإنه من أهل الجنة فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه عن عمله فقالا ما علمنا عنده شيئاً من خير يا رسول الله ؛ إلا أنه قال عند الموت كذا وكذا . قال : من ههنا أتى حسن الظن بالله تعالى من أفضل الأعمال عنده .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب مثلاً للدنيا ولابن آدم عند الموت : كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لأحدهم : قد كنت لي خلاً مؤثراً مكرماً وقد حضرني من أمر الله ما ترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبني عليك لا أستطيع أن أنفس كربتك ولكن هاأناذا بين يديك فخذ مني زاداً ينفعك . ثم يقول للثاني : قد كنت عندي آثر الثلاثة وقد نزل بي من أمر الله ما ترى فماذا عندك . قال : هذا أمر الله غلبني عليك ولا أستطيع أن أنفس كربتك ولكن سأقوم عليك في مرضك فإذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسمك وعورتك . وقال للثالث : قد نزل بي من أمر الله ما ترى وكنت أهون الثلاثة علي فماذا عندك قال : إني قرينك وحليفك في الدنيا والآخرة فأدخل معك قبرك حين تدخله وأخرج منه حين تخرج ولا أفارقك أبداً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأول ماله والثاني أهله والثالث عمله .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل أنه قال : ما من قوم يكونون في حيرة إلا استتبعها عبرة ، وكل نعيم زائل إلا نعيم أهل الجنة ، وكم هم منقطع إلا هم أهل النار فإذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحوها محواً سريعاً ، وأكثر صنائع المعروف فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وما

من عمل بعد أداء الفرائض أحب إلى الله عز وجل من إدخال السرور على المؤمن .

وقال علي رضي الله عنه : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد مسلم يذنب ذنباً ، ثم يقوم فيتوضأ ، ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له : ثم قرأ (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) [1] .

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه : ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما انتفعت بكلام بعثه إلي علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتب إلي :

أما بعد : فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من أمر دنياك . فلا تكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً وليكن همك ما بعد الموت .

وعن محمد بن علي بن الحسن رضي الله عنه قال : ما اغرورقت عين بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فإن سالت على الخدين يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شيء إلا له جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن باكياً بكى في أمة لحرم الله تلك الأمة على النار .

قال علي رضي الله عنه : خذوا عني هؤلاء الكلمات فلو رحلتم فيهن

(١) سورة النساء آية ١١٠

المطي حتى تنضوه ثم تبلغوه : لا يرجو العبد إلا ربه ولا يخشى إلا ذنبه ولا يستحي إذا كان لا يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا خير لجسد لا رأس له .

قال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم او خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً . ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً . ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً .

قيل للشافعي رضي الله عنه : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت تطالبني ثمانية : الله تعالى بالفرض ، ورسوله صلى الله عليه وسلم بالسنة والدهر بصروفه ، والعيال بقوتهم ، والحفظة بما ينطق لساني ، والشيطان بالمعاصي . والنفس بالشهوات . وملك الموت بقبض روحي .

ومن رقائق أبي عبدالله المغربي رحمه الله :

تطهر من أدناس هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقـم بمسجد انقطاعك على قدم شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نجواك تجد لحق عندك ، وليس بسواك .

قال الربيع بن خثيم : أقلوا الكلام إلا بتسع : تكبير ، وتهليل ، وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءة القرآن ، وأن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث أمرك .

أراد قوم سفراً ، فجادوا عن الطريق وانتهوا إلى راهب في صومعة فنادوه فأشرف عليهم ، فسألوه عن الطريق فقال ههنا وأشار إلى السماء

فعملوا الذي أراد . فقالوا : إنا سائلوك ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لا يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيث في طلبه . قالوا : علام الناس يوم القيامة ؟ قال : على نياتهم ، قالوا : فالام الموئل ؟ قال : إلى ما قد تم . قالوا : أوصنا . قال : تزودوا على قدر سفركم . فخير الزاد ما بلغ المحل ، ثم أرشدهم إلى الحجة وانقمع .

وقال بعضهم : أتيت الشام فمررت بدير حرملة . فإذا فيه راهب كأن عينيه مزادتان . فقلت له : ما يبكيك ؟ قال : يا مسلم أبكي على ما فرطت فيه من عمري ، وعلى يوم مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقيل لي أسلم وغزا مع المسلمين ، فقتل في بلاد الروم .

وقالت فيروز لزوجها مسروق بن الأجدع لما رأته لا يفطر من صيام ولا يفتر من صلاة : ويحك يا مسروق لقد ضررت ببدنك ! قال : كرامته أريد . قالت له : أما يعبد الله غيرك ! أما خلقت النار إلا لك ؟ قال لها : ويحك يا فيروز إن طالب الجنة لا يسأم ، وهارب النار لا ينام .

وروي أن رجلاً أتى ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه . فقال : يا أبا إسحق إني مسرف على نفسي فأعرض علي ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً قال : إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك المعصية ، ولم توبقك لذة . قال : هات يا أبا إسحق . قال : أما الأولى فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه . قال : فمن أين آكل وكل ما في الأرض رزقه ؟ قال : يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟ قال لا هات الثانية . قال : وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده قال الرجل : هذا أعظم من الأولى . يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن ؟ قال : يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه

وتسكن بلاده وتعصيه ؟ قال لا هات الثالثة . قال : وإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده ، فانظر موضعاً لا يراك فيه فاعصه فيه . قال يا ابراهيم : ما هذا وهو يطلع على ما في السرائر ؟ قال : يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تجاهره به ، قال لا هات الرابعة . قال : إذا جاءك ملك الموت لقبض روحك . فقل له أخرني حتى أتوب توبة نصوحا . وأعمل لله صالحاً قال : لا يقبل مني . قال : يا هذا فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب . وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟ قال : هات الخامسة . قال : إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النـــار فلا تذهب معهم . قـــال : إذن لا يدعوني ولا يقبلون مني . قال : فكيف ترجو النجاة إذن ؟ قال له ابراهيم : حسبي حسبي أنا أستغفر الله وأتوب إليه ، ولزم العبادة حتى فارق الدنيا رحمة الله عليه .

وروي أنه بنى جار لمالك بن دينار داراً ، فكان يتولى عطاء العمال بنفسه . قال : فتوضأ مالك بن دينار للمغرب ، والتف بعباءته ، ودخل مع العمال . قال : وكان الرجل يضع الكيس بالدراهم بين يديه فيعطي منه . قال فجاء مالك فأخرج يده من تحت العباءة ومدها إليه . قال فنظر إليه الرجل ، فقال : أي شيء عملت لنا ؟ قال مالك : ما عملت لكم شيئاً . قال : والله ما أعرف وجهك في عمالنا . قال : وما تعطي درهمك إلا لمن عرفت وجهه في عمالك ؟ قال نعم . قال مالك : فيعرف وجهك أنت في عمال الله . قال : هاه فترك الكيس وترك البناء ، وتعبد حتى مات .

دخل شبيب بن شبة على المهدي ، فقال يا أمير المؤمنين : إن الله عز وجل إذا قسم منازل الدنيا جعل لك أسناها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك

من الآخرة إلا بمثل ما رضي لك به من الدنيا ، فعليك بتقوى الله عز عز وجل ، فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم ترد .

عن بعض الصالحين أنه قال : وقف رجل على طبيب ، وحوله خلق كثير بأيديهم قوارير ، والطبيب يقابل كل علة بدوائها يعطى لهذا القابض ، ولهذا المسهل ، ولهذا الحار ، ولهذا الرطب . قال : فوقف الرجل وقال : أيها الطبيب أعندك دواء لداء الذنوب يرحمك الله ؟ قال : فأطرق الطبيب رأسه إلى الأرض ، ثم رفعه وقال : اسمع دواء إن عملت به رجوت لك الشفاء إن شاء الله : خذ عروق الفقر ، وزنجبيل الصبر ، واخلطهما بسفوف الذكر ، وامزجهما برقائق الفكر ، واجعل معه إهليلج التواضع والخشوع ، ودقه في مهراس التوبة والخضوع ، ولته بماء الدموع ،واجعله في طنجير التذلل ، وأوقد تحته نار التوكل ، وحركه بملعقة الاستغفار ، حتى يزيد زبد التوفيق والوقار ، ثم ضعه في آنية المحبة وبرده بمروحة المودة ، وصفه بمصفى الأحزان ، وصب عليه عصير الأجفان ، واجعل معه حقيقة الإيمان ، وامزجه بخوف الرحمن ، وتغذ قبل شربه بمر الصيام ، ودم على هذا ما عشت من الأيام ، وإياك أيها العليل أن تقرب في أيام دوائك شيئاً من الآثام ، فإنها تجدد عليك ما رجوت برءه من الأسقام ، وتجنب في دوائك العجب والرياء ، والبس لباس الحياء ، وشد على وسطك منطقة الصدق والوفاء ، وإياك أن تدخل بيتك إلا من باب التوبة والصفاء ، فإذا دمت على هذا الدواء ، صفا قلبك بين القلوب ، وزالت عنك أوجاع ألم الذنوب .

قال بعض العلماء : اعلم أن ما على الإنسان شيء أثقل ولا أصعب من معالجة اطراح حب الدنيا عن قلبه ، وأنى له بذلك ، ونحن قد خلقنا من تربها ، وجبلنا على حبها ، ودواعي حب الدنيا أكثر من أن تحصى وتحصر ، وأسباب الميل إليها ، والحرص عليها أظهر من أن تستر ،

وإنما تميزت عند ذوي الألباب ، وتبينت لأهل النظر ، فعاملوها بالرفض لها ، والاستجناب لما تأملوها ، فوجدوها لا توفي العاقل حقه ، ولا تبخس الجاهل حظه ، فنعيمها غير مقيم ، وبؤسها لا يدوم . قال أبو العتاهية :

هي الدارُ دارُ الأذى والقذى ... ودارُ الفناءِ ودارُ الغيرْ
فلو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطرْ
أيا منْ يؤملُ طولَ الخلود ... وطولُ الخلودِ عليه ضررْ
إذا ما كبُرتَ وبان الشباب ... فلا خير في العيشِ بعدَ الكبرْ

لما بلغ مراده من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه نبذها . وقال : هذا سرور لولا أنه غرور ، وملك لولا أنه هلك ، ومحمود لولا أنه مفقود ، وغني لولا أنه مني ، وارتفاع لولا أنه اتضاع . قال الشاعر :

إلا أن الركون إلى غرورٍ ... إلى دارِ الفناءِ من الشقاءِ
ودنيانا وإنْ ملنا إليها ... فطالَ بها الثواء إلى انقضاءِ

قال بعض الحكماء لصاحب له : يا أخي تنح عن الدنيا ، فلم تخلق فيها للبقيا ، وأنت فيها طالب مطلوب تطلب ما قد كفيته ويطلبك من لا تفوته كأنك لم تر حريصاً محروماً ، ولا عاجزاً مرزوقاً . وكأن الذي حجب عنك قد كشف لك والذي تفر منه قد لحق بك . قال أبو الطيب :

نحنُ بنو الدنيا فما بالنا ... نعافُ ما لا بدَّ منْ شربهِ
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمانٍ هي منْ كسبهِ
فهذهِ الأرواحُ من وجوهِ ... وهذهِ الأجسامُ من تربهِ
يموتَ راعي الشاة في جهلهِ ... ميتةَ جالينوس في طبهِ

وروي عن عيسى عليه السلام أنه مثلت له الدنيا في صورة عجوز

هتماء عليها من كل زينة . فقال لها : كم تزوجت من الخلق ، قالت لا أحصيهم عدداً ، قال أفكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت . قال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ؟

قال المأمون : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصف نفسها صفة أبي نواس في هذا البيت :

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ انكشفتْ ... لهُ عن عدوٍ في ثيابِ صديقِ

وفي كتاب الهند : مثل الدنيا وآفاتها ومخاوفها للموت والمعاد الذي إليه مصير الإنسان ما قال الحكيم . قال : وجدت مثل الإنسان المغرور بالدنيا المملوءة آفات مثل رجل ألجأه خوف إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين نابتين على شفير البئر ووقعت رجلاه على شيء عمدهما عليه فنظر فإذا بحيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من جحورهن ، وقد نزلت رجلاه عليهن ونظر أسفل البئر فإذا بثعبان فاغر فاه نحوه فرفع بصره إلى الغصنين اللذين تعلق بهما فإذا في أصلهما بجرذين أبيض وأسود يقرضك الغصنين دائبين لا يفتران فبينما هو كذلك مغتماً بنفسه وابتغى الحيلة في نجاته إذ نظر فإذا بجانب منه جحر نحل قد وضعن فيه شيئاً من العسل فتطاعم منه فوجد حلاوته فشغله عن الفكر في أمره والتماس النجاة لنفسه ولم يذكر أن رجليه فوق أربع حيات لا يدري متى تساوره إحداهن وأن الجرذين دائبان في قرض الغصنين اللذين تعلق بهما وأنهما إذا قطعاهما وقع في لهوات الثعبان فلم يزل لاهياً غافلاً حتى هلك .

قال الحكيم : فشبهت الدنيا المملوءة آفات ومخاوف بالبئر وشبهت الحيات الأربع بالأخلاط الأربع التي بني جسد الإنسان عليها من المرتين

والبلغم والدم ، وشبهت الغصنين اللذين تعلق بهما بالحياة . وشبهت الجرذين اللذين يقرضان الغصنين دائبين بالليل والنهار ودورانهما في إفناء الأنام والآجال وشبهت الثعبان الفاغر فاه بالموت الذي لا بد منه، وشبهت العسيلة التي تطاعمها وشغلت قلبه بهذه الحلاوة القليلة في الدنيا التي يرى الإنسان ويسمع ويطعم ويلبس فيلهيه ذلك عن عاقبة الإنسان ويسمع ويطعم ويلبس فيلهيه ذلك عن عاقبة أمره وما إليه مصيره .

قال ابن عباد المزاعي لبعض إخوانه : يا أخي اترك التعلق بالدار التي يبغضها الله عز وجل وخذ حاجتك منها على الكراهة والتثاقل والاضطرار والتحامل وحاسب نفسك باللحظة فما فوقها والخطرة وما دونها فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما أريد به وجهه ، وكأن الدنيا قد أسلتنا بما فيها ، وأقبلت علينا الآخرة بدواهيها فما ظنك : يا أخي بيوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، ولا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ، يوم يكون النبيون فيه خائفين وأولياء الله من دونهم مشفقين فكيف بمن أثقلته الذنوب وأوبقته المعاصي . قال الشاعر :

ألا إنّما الدنيا كأحلامِ نـــائمٍ   وما خير عيشٍ لا يكون بدائمِ
تأمل إذا ما نلت بالأمس لـــذة   فأفنيتها هـــل أنت إلا كحـــالمِ

قال بعضهم : إن المرء حقيق إذا طرقه ما يتحيف صبره ويضيق صدره أن يعود إلى علمه بالدنيا كيف نصبت على النقلة وجنبت طول المهلة وابتدأت للنفاد وشفع كونها بالفساد وأن الثاوي فيها راحل والأيام فيها مراحل موهوبها مسلوب وإن أرخى إلى مهل ، وممنوحها محروب وإن أرخى إلى أجل ولو خلد من سبق لما وسعت الأرض من لحق ، ولذلك جعلت الدنيا دار قلعة ومحل نجعة .

قال بعض الزهاد : يا ابن آدم ما لك لا تزهد في الدنيا ، وقد علمت يقيناً أنها فانية ، وما لك تصحب الأيام بآمالك ، وهي بك إلى أجلك ساعية ، تقطع بك المسافات وأنت لا تشعر ، وتوردك المهالك وأنت لا تنظر ، حتى تبلغك وقتاً تروم فيه استدراك أمرك فلا تقدر . قال الشاعر :

تروحُ لنا الدّنيا بغيرِ الذي غدت   وتحدث من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجزى الليالي باجتماعٍ وفرقةٍ   وتطلعُ فيها أنجمٌ وثغورُ
فمن ظنّ أن الدهرَ باقٍ سروره   فذاكَ محالٌ لا يدومُ سرورُ

قال بعض الحكماء : مما تطيب به النفس ويرفع به الحزن أن يعرف الرجل قدر الدنيا منه ، وقدره منها ، فقد قيل أن من أهانها أكرمته ، ومن أكرمها أهانته ، وإن غناها فقر ، وعزها ذل ، وصحتها سقم ، وإن الانسان فيها بمنزلة الثمرة إن لم يفسد بعضها ببعض الآفات فإنها تسقط إذا أدركت أو بمنزلة من احتاطت به السباع وسدت عليه كل مجاز فلما نجا من بعضها اعترضه بعضها حتى تفترسه كما قيل :

أصبحتُ في دارِ البليّاتِ   أدفعُ آفاتٍ بآفاتِ

وقال بعض المتكلمين : مما يؤدي إلى التسلي ، والراحة الكاملة ، والسرور الدائم ، أنا رأينا الله تبارك وتعالى خلق الدنيا للنقص والزوال ، ولم يخلقها للبقاء والدوام ، وجعل ذلك محنة للعباد ، فصرف أهلها فيها بالدول ، ورزق فيها الجهال ، والنوكى ما حرمه الأكياس والعقلاء ، ورزق من عصاه وخالف أحكامه وشرائعه ما حرمه كثير من أهل الطاعة ، فكان في هذا الذي ذكرنا وما يقاسي خيار الناس وأهل الفضل من نكرها وضيق معاشها وتصرف أحوالها ما يسليهم عن الرغبة فيها والحرص عليها ولو خلقها عز وجل للخلود ولم يأذن بالفناء لأهلها لقسم الأرزاق فيها على استحقاق كما فعل ذلك في المعاد ، فمن صبر فيها على الامتحان نال

الراحة العاجلة يترك الاغتمام على ما فات منها من لا ثقة عنده ببقائه فيها إن دام له ما يحب ولا أمان عنده من زوال ما حوى أن امتد به العمر . قال الشاعر :

ألا إنّما الدنيا على المرءِ فتنـــةٌ على كلِ حالٍ أقبلت أو تولت
فإن أقبلت فاستقبلِ الشكرَ دائمـــاً ومهما تولت فاصطـــبر وتثبت

قال بعض الحكماء : طالب الدنيا لا نهاية له ، ولا يبلغ منها إلى غاية إلا طلب ما وراءها . أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

إذا ما كنت قد أوتيتَ حـــالاً من الدنيا سعيت بنيل حـــالِ
فأنت بطولِ دهركَ في عناءٍ كثيرَ السيرِ في طلب المحالِ

وجد في بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا لك محسن . قال الشاعر :

النفسُ تكلف بالدنيا وقد علمت أن السلامةَ منها تركُ ما فيها
والله لو قنعتْ نفسٌ ، بما رزقت من المعيشةِ إلا سوفَ يأتيها
أموالنا لذوي الميراثِ نجمعهـــا ودورنا لخرابِ الدهـــرِ نبنيها

قال بعضهم : الدنيا دار تغرير وخداع ، وملتقى ساعة لوداع ، والناس متصرفون بين ورد وصدر ، وصائرون خبراً بعد أثر ، فابة كل متحرك سكون ، ونهاية كل متكون أن لا يكون ، وآخر الأحياء فناء ، والجزع على الأموات عناء ، وإذا كان ذلك كذلك فلم التهالك على هالك . واعلم أن الدنيا تطلب لثلاثة أشياء للغنى والعز والراحة ، فمن زهد فيها عز ، ومن قنع استغنى ، ومن قل سعيه استراح .

قال رجل من بني شيبان : نزلت على راهب فجادلته ، ثم قلت له :

يا راهب عظني . فقال : أأعظكم وفيكم القرآن ؟ ونبيكم محمد عليه السلام ؟ قال : قلت نعم . قال : فاتعظ ببيت شاعر منكم يكنى أبا العتاهية :

تجردْ منَ الدنيا فإنك إنما خرجتَ إلى الدنيا وأنتَ مجرد

قيل لبقراط : صف لنا الدنيا ، فقال : ضاحكة مستعبرة ، وكان بقراط يقول لتلاميذه : يا بني اعقلوا ما أنتم فيه ، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا فإن كنتم لا تحسنون الحذر منها ، فاجعلوها شوكاً . وانظروا حيث تضعون أقدامكم ، واجتنبوا جميع الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بالدنيا وشهواتها محجوبة عن الله عز وجل .

وفي صحف موسى عليه السلام : من أصبح حزيناً على الدنيا فكأنما أصبح ساخطاً على الله ، ومن كانت الدنيا أكبر همه نزع خوف الآخرة من قلبه ، ومن شكا مصيبة نزلت به فكأنما شكا ربه ، ومن لم يبال من أين دخل عليه رزقه لم يبال الله من أي باب أدخله النار ، ومن أتى خطيئة وهو يضحك أدخله النار وهو يبكي ، ومن جعل حاجته إلى آدمي جعل الله حاجته إليه ، فإن شاء قضاها ، وإن شاء لم يقضها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كانت صحف موسى كلها عبراً : عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن اليها » . قال الشاعر :

وقد بدا لي فيما قدْ هُديتُ له أنّ الحياةَ إلى دارِ البلى سفرُ
كيف البقاء وباب الموتِ منفتحٌ وليسَ يغلقُ حتى ينفد البشرُ

فصـــل

قال بعض العلماء : ركب الله تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب الآدميين من كليهما ، فمن غلب عقله شهوته تشبه بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله تشبه بالبهائم ، فالعاقل كل العاقل من ميز نفسه ، وعرف قدره ، ونظير بعين الحقيقة ، وأمعن الفكرة الصحيحة ، وعلم أن جوارحه قد ركبت فيها جميـــع الشهوات ، وأن طباعه قد حببت إليها صنوف اللذات ، فلا يقدر على قسرها ، ولا يتمكن من صرفها وقهرها إلا بالمجاهدة ، وملك الشهوة بخطام التقوى . وما أشد وما أصعب ! ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . قال الشاعر :

صبرتُ على الأيام حتى تولــت ... وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفــتى ... فإنْ أطعمت تاقت وإلا تسلت

وقال لقمان لابنه : يا بني أول ما أحذرك من نفسك ، فإن لكل نفس هوى وشهوة ، فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها ، فإن الشهوة كامنة في القلب ككمون النار في الحجر ،إن قدح أورى ، وإن ترك توارى .

قال أفلاطون : في الانسان أربع طبائع : العقل . والهوى . والشهوة. والعفة ، فالعقل يعاتب الهوى ، والهوى يقاتل العقل ، والعفة تعاتـــب الشهوة ، والشهوة تقاتل العفة ، والانسان مسلط على مشيئته ، فمن عمل خيراً جوزي به ، ومن عمل شراً كوفيء عليه .

وقال بعض الحكماء : أكمل الناس عقلاً أغلبهم للهوى ، وأملكهم للشهوة ولا يزال الانسان المطيع لهواه ، المهمل لصالح دينه ودنياه ، منتظر

الصلاح ، مرجو الخير والفلاح ، ما لم يتجاوز حد الفتوة إلى حد الاكتمال . فإن سلطان الهوى ، عند ذلك قوى ، وشيطانه غرى . فإن خرج عن سن الحداثة ، ولم يسلك سنن الصلاح والدمانة ، فقد قطع أسباء الرجاء منه ، ووصل علائق اليأس عنه ، وقد أعيا داؤه ، وتعذر شفاؤه .

قال بعض العلماء : ومن الواجب على من استفزه الشيطان وخدعه ، وأغراه بالعصيان وأقمعه ، ورجاه بالتوبة وأطمعه ، أن يستشعر هجوم المنايا ، ويتخيل وقوع النوب والرزايا ، إنها لا تحفر الصغير ، ولا تهاب الكبير ، ولا تنظر الغنى ولا الفقير ، إن وعدت أنجزت ، وإن طعنت أجهزت ، فلا يحدث نفسه بالامهال ، ولا يخادعها بالتسويف والمطال ، فإنه لا يؤمن هجومها ، ولا يستفيق سليمها ، ولا يدوى متى تصل اليه ، فتحول بينه وبين أمله ، وتقطعه عن استدراك عمله ، تصيره من الوجود إلى العدم ، فيندم حين لا ينفعه الندم ، فإن كان ذلك وقد زالت عنه أنعم خالقه ، وجردته عن ثوب عافيته ومرافقه ، وهي عادته فيمن عصاه من خلائقه ، فيكون قد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . ولله در القائل :

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعهـا فإن المعاصي تزيل النعم
وكم قدْ ترددتُ في مهلـةٍ ولم ترقبِ الموت حتى هجم

قال بعضهم : والانسان في أول خليقته يتضعف عن مصادمة الشهوة ويقصر عن صرف محاولة الارادة لنقصان القوة والعقل . وله ثلاث مراتب : فأولها عند الخروج إلى الدنيا الشره إلى الغذاء الذي لا بد منه ، ولا يستطيع الصبر عنه ، ولا له رغبة في سواه ، ثم ينتقل إلى المرتبة الثانية عند تمييز الأشياء ، وهي الالتذاذ باللعب واللهو ، وحب التزين ، والحرص على ما يتشهي من غير تدبير ولا نظر ، ثم ينتقل إلى المرتبة

الثالثة وهي : شهوة النكاح ، والالتذاذ بالمطاعم والمشارب ، وانتخاب الملابس والمراكب ، وسلطان الهوى عند ذلك قوي قادر ، وبجند الشهوات غالب ظاهر . فإن بلغ هذه المرتبة ، وقد حسن تمييزه للمعاني ، وقوي فهمه للأمور ، واستحكم نظره للحقائق ، وتمكن فكره في العواقب ، وقواه الملك الموكل بهدايته بفضل الملك المدبر له الذي يختص برحمته من يشاء ، فعلم المصالح التي يتعلق بها الثواب ، والمقابح التي يتعلق بها العقاب ، صرف نفسه عند ذلك عن مواقعة اللذات الممنوعة قاهراً ، ومنعها من متابعة الشهوات قاسراً ، فتميز بالخلائق الآدمية ، وانتقل عن الطباع البهيمة ، فإذا استنار بنور اليقين قلبه ، وتأيد بالتقي والإيمان جذبه ، فاستفتح بمفاتح النظر خزائن الفكر ، واستخرج منها لطائف المعارف ، وذخائر السرائر ، فلبس أبراد الاعتقاد ، وتحلى بقلائد الفوائد ، وركب جواد الاجتهاد ، فجرى في ميادين السابقين ، كان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ولئن صادف هذه المرتبة ، وقد قوي سلطان هواه ، وضعفت عن مصادمته قواه ، وتملكه شيطانه واستهواه ، فمكن نفسه من مرادها ، ولم يجاهدها حق جهادها ، فأرسلها على ما سولت ، وخلى بينها وبين ما أملت ، فاستفتح بمفاتح الشره خزائن الشهوات ، واستخرج منها مشاهر المناكر ، ولبس ثياب الارتياب ، وتوشح بوشاح الافضاح ، وركب جواد الحرص فجرى في ميدان البطالة ، ونام في مهاد الغفلة ، فغلب على قلبه سنة الرين ، كان من الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزى ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا من آثر المتاب ، وأسرع الاياب ، واتقى يوم الحساب ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . قال الشاعر :

ألا أيها المستطرفُ الذنبَ جاهداً ۝ هوَ اللهُ لا تخفى عليه السرائر
فإنْ كنتَ لم تعرفهُ حينَ عصيتهُ ۝ فإنَّ الذي لا يعرفُ اللهَ كافرُ

وإنْ كنتَ عن علمٍ ومعرفةٍ به عصيتَ فـأنتَ المستهينُ المجاهرُ
فأيةُ حاليكَ اعتقدتَ فإنــــهُ عليمٌ بما تطوي عليهِ الضمائرُ

قال بعض العلماء : جميع حالات الانسان راجعة إلى ثلاث منازل : عليا . ووسطى ، وسفلى ذكرها الله عز وجل في كتابه ، وجعلها مراتب لعباده ، فقال عز من قائل (وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة . والسابقون السابقون. أولئك المقربون في جنات نعيم) ثم قص الله تعالى أحوالهم ، وقص مآ لهم ، فقال سبحانه (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وإما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) وقال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) .

قال بزرجمهر : اجتهدوا في الخير ، واقتصدوا في المعيشة ، وارضوا من المطعم والملبس بأدناهما ، فإن أشد الناس اجتهاداً في الخير ، وأحسنهم اقتصاداً في المعيشة سيتمنى أنه كان زاد في العمل ، ونقص في المعيشة ، ولا يثبت دين الرجل على حال واحدة إما في زيادة أو في نقصان ، فإن كان غالباً للشيطان كان زائداً ، وإن كان الشيطان غالباً عليه في الشهوات كان ناقصاً .

وقال الأسود بن يزيد : والله لأجتهدن في العبادة ، فإن يكن الأمر عسيراً كما أخاف في الآخرة كنت قد اجتهدت وأخذت بالحزم ، وإن يكن يسيراً كما أرجو كان عملي درجات .

فصـــل

قال بعض العلماء : الناس في الأوامر والنواهي أربعة أصناف : صنف استجابوا للطاعات ، وكفوا عن المعاصي ، وهم أكمل الناس . وصنف لم يستجيبوا للطاعات ، ولا كفوا عن المعاصي ، وهم سر الناس . وصنف استجابوا وأقاموا على المعاصي فهم يستحقون عقاب المجترئين على المعاصي . وصنف لم يستجيبوا للطاعات ، وكفوا عن المعاصي ، فهم يستحقون عقاب اللاهي عن دينه .

وللانسان فيما كلف به من الأعمال ثلاثة أحوال : أن يستوفيه ، وأن يزيد فيه ، وأن يقصر فيه .

أما استيفاء العمل من غير زيادة ولا تقصير فحال الاعتدال ، وخير لأمور أوسطها . وأما التقصير في العمل ، فعلى أربعة أحوال :

إحداها : العذر من مريض أو غيره ، فيلحق صاحبه بالعاملين لسقوط المؤاخذة بما دخل تحت العجز .

الثانية : الاغترار ورجاء العفو ، والرجاء شاغل عن خوف الله .

الثالثة : أمل الاستيفاء فيما يستقبل ، وذلك لا ينتهي إلى غاية . وما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل .

الرابعة : استثقال الاستيفاء كمن يفعل الواجب ، ويخل بالمسنونات ، فهو مسيء إساءة لا يستوجب بها عقاباً ، لأن أداء الواجب يسقط الواجب للعقاب ، والاخلال بالمسنون يمنع من كمال الثواب ، ومن تهاون بالدين هان . وأما الزيادة في العمل فعلى ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون الزيادة رياء ، وأفضل الزهد إخفاء الزهد .

الثاني : أن تكون الزيادة اقتداء بأحد الأماثل، ولولا اقتداء الناس بالناس في الخير لهلكوا .

الثالث : أن تكون الزيادة ابتداء يلتمس بها الثواب . وذلك من أعلى رتب العابدين . والاقتصاد في الزيادة مع المداومة أحمدمن الاستكثار دون مداومة ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها « أيها الناس اكلفوا من العمل ما تطيقون . فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه » وللأعمال كلها آفتان :

إحداهما تكسب الوزر والأخرى توهن الأجر فالمكسبة للوزر الإعجاب بالعمل لأن المعجب ممتن على الله ومجترىء عليه والممتن على الله جاحد لنعمته والمجترىء على الله عاص لأمره ونهية والموهنة للأجر الثقة بالعمل لأنها أمن والآمن غير خائف . ورياضة النفس للعمل تترتب على أحوال ثلاث .

إحداها : الزهد لقوله عليه السلام « من أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها إلتاط منها بشغل لا يبلغ عناه ويأمل لا يبلغ منتهاه » .

الثانية : توطين النفس على ذهاب ما في اليد وبقاء حسابه . قال عليه الصلاة والسلام « لا تزول قدما ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شبابه فيم أبلاه وعمره فيم أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » .

الثالثة : قصر الأمل . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكيس الناس . قال « أكثرهم ذكراً للموت ، وأشدهم استعداداً له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

الناس في الخير على أربعة أنحاء : منهم من يفعله ابتداء وهو الكريم ومنهم من يفعله اقتداء ، وهو الحكيم . ومنهم من يتركه استجماماً ، وهو الرديء ، ومنهم من يتركه حرماناً . وهو الشقي .

ومن الواجب على الإنسان أن لا يجسر على نفسه بالعنف عليها ولا يضادمها بالقهر لها وأن يأخذها أولاً بالمنع عن يسير الشهوة والكف عن قايل الهوى مما لا ترى النفس في تركه كبير صعوبة ولا تنال بالامتناع منه شديد مشقة، ثم لا يزال ينقلها من حال إلى حال أقواها ويرفعها من درجة إلى أعلاها كما يفعل الطبيب الماهر من تدريج التعليل بتلطف المعاناة وتحسين المداراة حتى يزيل المحدث للعلة وهو حب الدنيا فإذا أزاله قوي بعد على قلع العلة ووجدها متأتية الزوال بزوال الدواعي المولدة لها الباعثة عليها فظهر النجع ، ونجح السعي ، وليس الزهد في الدنيا بإهمال النفس وإضعاف الجسم وإدخال الضرر بتقتير العيش والتعرض للمعاطب والتصدي إلى المهالك فإن استعمال ما تصح به القوى ويعين على الطاعة والتصرف في جميع أعمال البر صلاح بين وواجب متعين ، كما أن الزيادة على قدر الحاجة ممنوعة في الشرع والعقل يمنع منهما جميعاً .

فصل

كان عبدالله بن المبارك [1] يقول : الرجاء يورث الشوق والشوق يورث الاجتهاد ، والاجتهاد يورث الفكر في النعم ، والفكر في النعم يورث الشكر ، والشكر يوجب معرفة المنة، ومعرفة المنة تورث محبة الله ومحبة الله تورث الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا يورث الرغبة في الآخرة والرغبة في الآخرة تورث الاشتغال بالطاعة ، والاشتغال بالطاعة يورث النعيم الدائم .

---

(١) هو عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي ــ التميمي ــ (١١٨ ــ ١٨١ هـ = ٧٣٦ ــ ٧٩٧ م) الحافظ ، شيخ الاسلام ، المجاهد ، التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات . افنى عمره في الاسفار حاجا ومجاهدا وتاجرا . وجمع الحديث والفقه والعربية . له كتاب في الجهاد . ــ الاعلام ــ

قيل : أن سبب توبة عبدالله بن المبارك وزهده أنه كان من أصنع الناس في الألحان وضرب العود ، فبينما هو يغني ذات يوم :

ألم يأن لي منـكَ أن ترحمـا وتعصي العـواذلَ واللوما
وتـرثي لصب بكـم مغـرم أقـام لهجرانكـم مأتمـا

إذا سمع من جوف العود هاتفاً يقول (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) [1] فكسر العود وساح في البرية .

وقيل لبعض العلماء : ما علامة الإيمان ؟ قال : حسن الخلائق ، واتباع الحقائق ، وبذل المرافق ، وحفظ العهود والمواثق ، والتسليم للقدر السابق . قيل فما علامة النفاق ؟ قال : نقض العهد ، وخلف الوعد ومنع الرفد والكذب في الهزل والجد . قيل ففيم النجاة ؟ قال : عمـل مبرور ، وقلب صبور ، ولسان شكور ، وإدخال سرور ، والرضى بالمقدور . قيل ففيم الهلكة ؟ قال : كثرة الفجور ، واقتحام الشرور ، ومطاوعة الغرور ، وعصيان الغفور .

وقيل لبقراط : ما أقرب الأشياء ؟ قال : الأجل . قيل فما أبعدها ؟ قال : الأمل . قيل فما أنفسها ؟ قال : الصاحب المؤاتي . قال : فما أوحشها ؟ قال : الموت . قيل فما أحمدها عاقبة ؟ قال الصبر . قيل فما أذمها عاقبة ؟ قال : المعاصي .

قالت هند : الطاعة مقرونة بالمحبة ، فالمطيع محبوب ، وإن نأت داره وقلت آثاره ، والمعصية مقرونة بالبغضة ، فالعاصي مبغوض وإن مسك رحمه ونالك معروفه . قال الشاعر :

أزالكَ امرأ ترجو من اللهِ عفوهُ وأنتَ على ما لا يحبُّ مقيـمُ

(١) سورة الحديد آية ١٦ .

فحتى متى تعصي وتهفو إلى متى　　تباركَ ربي إنــهُ لرحيــمُ

قال بعض الحكماء : التسويف لمن يعلم أن المنية تأتيه بغتة غرور ، وترك مجالسة الحكماء حمق ، وطلب الحاجة من غير الله ذل ، وقلــة معرفة الإنسان بعيوب نفسه أكثر ذنوبه .

روي : أن ناساً مدحوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه . فقال : الله أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منكم ، فأستغفر الله مما لا تعلمون وأسأله أن لا يؤاخذني بما تقولون .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله متى يعرف الإنسان ربه ؟ قال إذا عرف نفسه . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني . قال الشاعر :

ابدأ بنفسكَ وانهها عنْ غيهــا　　فإذا انتهتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ
فهناكَ تعذر وإن وعظت ويقتدي　　بالقولِ منكَ وينفعُ التعليمُ
لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلــهُ　　عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيــمُ

روي عن الحسن أنه قرأ (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)[1] فقال : هذه موعظة وعظ الله بها المسلمين .

قال بعضهم : السنون مراحل ، والأنفاس خطوات ، والطاعات رؤوس الأموال ، والمعاصي قطاع الطريق ، والربح الجنة ، والخسران النار . قال الشاعر :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨١ .

لله ساهرُ ليلهُ ما يهجعُ — وجلَ الفؤاد منَ الذنوبِ مصدم
يبكي بدمعٍ ساكبٍ هفواته — والليلُ في جلبابه متبرقعُ
ندما على ما كانَ من عصيانه — ملكاً تذل له الملوكُ وتخضعُ
يارب ما للذنبُ غيركَ غافرٌ — وإليكَ منهُ يا إلهي المفزعُ
يا رب عبدك ضارعٌ فاغفر لهُ — ما لم يزل يدعوكَ فيه ويضرعُ

حكي عن بعض الأشياخ أنه رأى الله تعالى في النوم . فقال له : يا عبدي بم جئتني ؟ فقال : يا رب جئتك بما ليس في خزائنك . فقال ! وما هو . قال : الذل والانكسار ؟ فقيل له : نعم الزاد زادك ، فقد رحمناك .

وحكي أن حاتماً الأصم قال لأولاده : إني أريد الحج ، فبكرا وقالوا إلى من تكلنا ، وكان له بنت لها سبع سنين . فقالت : ما يبكيكم دعوه يذهب فليس برازق . فخرج فباتوا جياعاً فجعلوا يوبخون تلك تلك الصبية فقالت : اللهم لا تخجلني بينهم فجاز أمير البلد عليهم ، فقال لبعض أصحابه : إطلب لي ماء فناولوه كرزاً جديداً ، وماء بارداً فشرب وقال : دار من هذه ؟ فقالوا : دار حاتم الأصم فرمى فيها منطقة من ذهب ، وقال : من أحبني وافقني فرمى العسكر كله ، فجعلت الصغيرة تبكي . فقالت : أمها يا بنية ما يبكيك ؟ وقد وسع علينا . فقالت : يا أماه أبكي لأن مخلوقاً نظر إلينا نظرة فاستغنينا ! فكيف لو نظر إلينا الخالق .

فصل

عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ؛ ومن أحب

أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه ، ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قال من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم ، قال : من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنباً ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم . قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى عليه السلام قام في بني إسرائيل ، فقال : يا بني إسرائيل لا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم عند ربكم ، يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين عليه فاجتنبوه وأمر تبين رشده فاتبعوه وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله ، يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

قال عبدالله بن مسعود : إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ،وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم » وخير الهدى هدى الأنبياء ، وأصدق الحديث ذكر الله . وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة القيامة ، وشر الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى وخير ما ألقي في القلب اليقين ، وشر العمى عمى القلب ، والريب من الفكر ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون . والنوح من عمل الجاهلية ، وأعظم الخطايا الكذب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يغفر يغفر الله له ، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله خيراً ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمه ، وإنما يكفي أحدكم ما يقيم به نفسه ، وإنما يصير إلى أربعة

أذرع ، والأمر إلى آخره ، وملاك العمل خواتيمه ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، ومن يستكبر يضعه الله ، ومن يطع الشيطان يعص الله ، ومن يعص الله يعذبه ، ومن عرف الدنيا يفر عنها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

قال عبد الواحد بن زيد : جالسوا أهل العلم والدين فإن لم تقدروا عليهم فجالسوا أهل المروآت من أهل الدنيا فإنهم لا يرفثون في مجالسهم فمجالسة أهل العلم تنتج ذكاء القلوب ، ومجالسة أهل الدين تجلو عن القلوب صدأ الذنوب ، ومجالسة ذوي المروءة تدل على مكارم الأخلاق .

أتى رجل إلى ربيعة الرأي فشكا إليه صعوبة دهره وتصرفه . فقال ربيعة إكتب :

أليس الزمان كما قد علمتَ	فما لكَ تحزن من صرفهِ
وعندكَ علمٌ به ثاقبٌ	وعينٌ تدلُّ على وصفهِ
وأيامهُ دولٌ والنفوسُ	رهون الحوادث من حتفهِ
فأين المعافى من النائباتِ	ومنْ صحبَ الدهرَ لم يعفهِ
ومنْ صحبَ الدهرَ لاقى الذي	ينالُ على الرغمِ من أنفهِ
فكنْ حازمَ الرأي واصبرْ لهُ	فللحرِّ صبرٌ على صرفهِ
ولا تخضعنَّ إلى ساقطٍ	ولو كانت الأرض في كفهِ
وصن حر وجهكَ عن بذله	بتلميسك الترب أو سفهِ
فإن اللئيمَ وإنْ خلتهُ	كريماً يذودك عن عرفهِ
ويرجعُ محصول أخلاقه	إلى أصلهِ وإلى صنفهِ
فلا تسألِ الناسَ ما يملكو	ن ولكن سلِ اللهَ واستكفهِ
فكلٌّ مقلٍ وذي ثروةٍ	فإن المنيةُ منْ خلفهِ
ومن يقض رزق له يأتهِ	بكلِّ مكانٍ ويستوفهِ
ولو جهدَ الناس لم يقدروا	على دفعِ ذاكَ ولا صرفهِ

قال بعضهم : إذا رضي الله عن العبد حمله ما يطيق ودون ذلك ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووفقه لفعل الخير ، ولم يكله إلى نفسه ، واستنقذه من الشدائد ، وإذا سخط على العبد حمله ما لا يطيق ، وأبلاه لا يجد قضاءه ، وأغراه بعداوة من هو أقوى منه على دنياه ، وأولعه بمطامع كاذبة ، وأوفله إلى نفسه ، وأسلمه في الشدائد .

قال وهب بن منبه [1] : كان في بني إسرائيل عابد ، فلبث سبعاً لم يطعم هو وعياله شيئاً ، فقالت له امرأته : لو خرجت فطلبت لنا شيئاً فخرج فوقف مع العمال ، فاستؤجر العمال وصرف الله عنه الرزق ، ولم يستأجره أحد . فقال : والله لأعملن اليوم مع ربي ، فجاء إلى ساحل البحر ، فاغتسل ولم يزل راكعاً وساجداً حتى أمسى وأتى أهله ، فقالت امرأته : ماذا صنعت ؟ قال : قد عملت مع أستاذ لي ، وقد وعدني أن يعطيني ، ثم غدا إلى السوق فوقف مع العمال ، فاستؤجر العمال ،وصرف الله عنه الرزق ، ولم يستأجره أحد . فقال : والله لأعملن اليوم مع ربي فجاء إلى ساحل البحر فاغتسل ، ولم يزل راكعاً وساجداً حتى إذا أمسى أقبل إلى منزله ، فقالت له امرأته : ماذا صنعت ؟ قال : إن أستاذي قد وعدني أن يجمع لي أجرتي ، فخاصمته امرأته وبرزت عليه ، ولبث يتقلب ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، وصبيانه يتضاغون جوعاً ، ثم غدا إلى السوق فاستؤجر العمال ، وصرف الله عنه الرزق ولم يستأجره أحد فقال : والله لأعملن اليوم مع ربي ، فجاء إلى ساحل البحر فاغتسل ، ولم يزل راكعاً وساجداً حتى إذا أمسى . قال : إلى أين أمضي ؟ وأنا قد تركت العيال يتضاغون من الجوع ! ثم تحامل على جهد منه . فلما قرب من باب داره سمع ضحكاً وسروراً ، وشم رائحة قديد وشواء

---

(1) راجع ص ١٨٥ .

فأخذ على بصره ، فقال : أنا نائم أم يقظان ! تركت أقواماً يتضاغون جوعاً ، وأشم رائحة قديد وشواء ، وأسمع ضحكاً وسروراً ! ثم دنا من باب داره فطرق الباب ، فخرجت امرأته حاسرة قد حسرت عن ذراعيها ، وهي تضحك في وجهه ، ثم قالت : يا فلان قد جاءنا رسول أستاذك ، فأتانا بدنانير وكسوة وودك ودقيق ، وقال : إذا جاء فلان فأقرءوه السلام ، وقولوا له : إن أستاذك يقول لك : قد رأيت عملك وقد رضيته ، فإن أنت زدتني في العمل زدتك في الأجرة . قال الشاعر :

عليكَ إذا ضاقت أمورك والتوتْ بصبرٍ فإن الضيقَ مفتاحهُ الصبرُ
ولا تشكونَّ إلا إلى اللهِ وحدهُ فمن عندهِ تأتي الفوائدُ والنصرُ

قال سفيان الثوري : دخلت على جعفر الصادق رضي الله عنه ، فقلت له : يا ابن رسول الله ما لي أراك سكنت دارك ، ولا تخالط الناس ؟ فقال : نعم يا ابن سعيد إن في العزلة دعة ، وفي الدعة القناعة ، وما قدر لك يأتيك . يا سفيان فسد الزمان ، وتغير الأخوان ، فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد .

قال بعضهم : ولفساد الزمان ، وقلة من يسكن إلى موْدته ، ويؤمن من خلته آثر أهل الفضل مجالسة الكتب ، وجعلوها عوضاً مما فاتهم من مجالسة الأصحاب ووصفوها ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها ، ومن ذلك قول الشاعر :

لم يبق شيءٌ منَ الدنيا تسر بهِ إلا الدفاترَ فيها الشعر والسمر
مات الذين لهم فضل ومكرمة وفي الدفاتر من إحسانهم أثر

قال بعض الحكماء : العزلة عن الناس تصون العرض ، وتستر الفاقة وتبعث على السلامة ، وترفع مؤنة المكافأة في الحقوق اللازمة ، وتورث

الراحة ، وتبقي حسن الذكر ، وتقصر الأمل ، وتؤمن من الملل ، وتولد الفكرة في الآخرة . قال الشاعر :

الحمدُ للهِ لا شريكَ لهُ ... في صبحه دائماً وفي غسلهِ
لم يبقَ لي مؤنسٌ فيؤنسني ... إلا أنيس أخافُ من أنسهِ
فاعتزل الناسَ ما استطعتَ ولا ... تركن إلى من يخافُ من دنسهِ
والمرءُ يرجو ما ليسَ يدركهُ ... والموتُ أدنى إليهِ من نفسهِ

فصل

عن ابن عباس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن فلو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئاً لم يكتبه الله لك ، لم يقدروا عليه أو على أن يمنعوك شيئاً كتبه الله لك . لم يقدروا عليه ، فاعمل لله بالرضى في اليقين .

واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

وروي عن أبي الدرداء « أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني . قال له : إكتسب طيباً ، واعمل صالحاً ، وسل الله رزق يوم فيوم ، واعدد نفسك من الموتى » .

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني . قال له « اتق الله حيث كنت . قال : زدني . قال : اتبع السيئة الحسنة ، قال : زدني قال : خالط الناس بخلق حسن » .

ودخل رجل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال له : أوصني قال له : أوصيك بثلاث أن تحفظ آلاء الله عليك في كل حالة كنت ، وأن تذكر اطلاع الله عليك في كل حالة كنت ، وأن تذكر الموت ودخول القبر على أي حالة كنت .

ودخل أبو جعفر محمد بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، على عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه وقد ولاه . فقال له أبو جعفر : أوصني ، فقال له : أوصيك بثلاث أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً وأكبرهم أباً ، فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبر والدك ، وإذا صنعت معروفاً فربه .

وقال أبو جعفر المذكور : أدبني أبي بثلاث خصال ، ونهاني عن ثلاث . قيل له : وما هن يا ابن رسول الله ؟ فقال : من يصحب صاحب السوء لا يسلم . ومن يدخل مداخل السوء يتهم ، ومن لا يملك لسانه يندم . ثم أنشد :

عوِّد لسانكَ قولَ الخيرِ تحظ به | إن اللسانَ لما عودتَ معتادُ
موكلٌ بتقاضي ما سننت . له | في الخيرِ والشرِ فانظرْ كيفْ ترتاد

قيل له صدق رضي الله عنه فما الذي نهاك عنهن ؟ فقال : لا تعاشر حاسد نعمة ، أو شامتاً بمصيبة ، أو حاملاً لنميمة . وأنشدني في ذلك :

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانهِ | وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل
فعثرتهُ من فيهِ ترمي برأسهِ | وعثرتهُ بالرجلِ تبرا على مهلِ

وأوصى أبو بكر لعمر رضي الله عنهما . فقال : يا عمر إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله تعالى : إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنه لا يقبل نافلة حتى

تؤدى الفريضة . فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينة يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم فإذا سمعت بهم قلت إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم ، وأمسك عن حسناتهم ، فإذا سمعت بهم قلت أنا خير من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، وهو آتيك . وإن ضيعت وصيتي ، فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه .

وقال سعيد بن جبير لإبنه : يا بني إني أوصيك بوصية إن لم تحفظها منيَ كنت جديراً أن لا تحفظها من غيري : يا بني أظهر للناس الجميل وإياك وطلب الحاجة فإنه فقر حاضر ، وإذا صليت فصل صلاة مودع . وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً ، وإن استطعت أن تكون غداً خيراً منك أمس فافعل . إياك أن تيأس عن شيء أتى الله منه خيراً .

وعن عمر بن عتبة قال : قال لنا أبونا عتبة يا بني إنكم صغار قوم لا يحتاج إليكم ، ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين لا يستغنى عنكم فعليكم بالعلم والدين تنتظم لكم الدنيا ، واجعلوا أموالكم واقية لأديانكم يكن الله جاراً لكم ، فإن الموت في طاعة الله حياة ، والفقر في رضوانه غنى ، واذكروا ما خلقتم له وخلق لكم فإنه لا ينساكم من وكل بكم وإياكم والعقوق فإنه يثمر العقوبة .

وأوصى بعض الحكماء إبنه . فقال : يا بني إنك لن تنال ما تحب

حتى تصير على كثير مما تكره ، ولن تنجو مما تكره حتى تصير على كثير مما تحب ، وقليل من الذل يدفع كثيراً من الهوان .

وأوصى آخر ابنه . فقال : يا بني نزه نفسك وسمعك عن استماع الخنا كما تنزه لسانك عن القول بالخنا ، فإن السميع شريك القائل ، وإنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك ، ولو ردت كلمة حاسد وناطق بالأذى في فيه لسعد رادها كما شقي قائلها .

وأوصى آخر ابنه . فقال : يا بني إذا كنت في نادي قوم فحدث القوم ما حاذوك بآذانهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا وجدت فترة منهم فأمسك وكف عن الشتم فإنه أسلم للأعراض ، ومن سب سب . وأحسن جوارك يحسن ثناؤك ، وامنع ضيم الغريب من القريب ، وإذا حدثت فع ، وإذا حدثت فأوجز ، فإن مع الإكثار يكون الاهذار . ولا خير فيمن لا روية له مع الغضب ، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب .

وقال سليمان بن عبد الملك لمؤدب أولاده : ليكن أول صلاح بني أول صلاح نفسك . فإن عيوبهم مصروفة . فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت . علمهم كتاب الله ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أخفه ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه فإن ازدحام العلوم مضلة للفهم ، وجنبهم مجالس السفلة والنساء ، وعلمهم سير الحكماء ، وهددهم بي وأدبهم دوني ، وكن كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعلم موضع الداء ، فقد اتكلت على أمانتك .

وقال أبان بن ثعلب : شهدت أعرابية وهي توصي ابنها وقد أراد سفراً ، وهي تقول له : يا بني إجلس حتى أوصيك ، وبالله توفيقك . إن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك . قال أبان : فوقفت أسمع كلامها فإذا هي تقول : يا بني إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين

المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً وخليق أن لا يثبت الغرض على كثرة السهام من الناس ، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهين ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز لئيماً فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يدري عيب نفسه . ومن كانت مودته لا يصدقها فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها واعلم يا بني أن الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع العلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

وأوصى رجل ابنه فقال له : يا بني إبذل المودة الصادقة تستعبد إخواناً ، وتتخذ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيدة ،والصداقة مستعذرة بعيدة ، وجنب كرامتك اللئام فإنهم إن إحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت معضلة لم يصبروا ، واعلم أن الحسد ما حق للحسنات ، والزهو جالب لمقت الله عز وجل ومقت عبـاده ، والعجب صارف للازدياد من العلم ،داع إلى الجهل والتخبط ، والبخل أذم الأخلاق وأجلبها لسوء الأحدوثة .

وأوصى رجل صديقاً له . فقال : آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك،وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك إلى الهدى ويعصمك من الردى ، ألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه في المكارم ، فإنك تبر بذلك سلفك ، وتشيد به شرفك .

وقال بعض العلماء وصية : لا يحملنك ما ترى من إقبال النعمة على الجاهل على الرغبة في الجهل ، ولا إدبارها عن العالم رغبة عن العلم ،

فإن إقبالها على الجاهل اتفاق ، وإقبالها على العالم استحقاق ، وليس مستحق النعمة ومستوجبها كحاملها بغير استحقاق .

وقال بعض الصالحين لإبنه : يا بني نفسك مسترهنة بأعمالك ، والأيام مقربة لآجالك ، فاشتر نفسك ما دامت السوق قائمة ، والثمن موجوداً والربح مضموناً ، ولا تسوفها لوقت تكون السوق فيه كاسدة ، والآمال منقطعة متباعدة ولا سبيل إلى استدراكها ، وقد حيل بينك وبين الثمن وهو العمل ، وما أحسن قول القائل :

إذا أنتَ لم تزرع وأبصرتَ حاصداً ندمتَ على التفريط في زمنِ البذرِ

فالنجاة النجاة قبل حلولِ الوفاة ، والعجل العجل قبلَ هجومِ الأجل فالويل كل الويل لمن فرط حتى تورط ، وآثر الإمهال حتى صار في حيز الإهمال ، ثم هجم عليه مفرق الأحباب ، فحينئذ تنقطع به الأسباب ويسد دونه طريق الإياب ، ويندم يوم لا ينفع الندم ، حين تأخر ولم يتقدم ، وانظر إلى قول بعض الشعراء :

قلتُ للنفسِ إن أردتِ رجوعاً فارجعي قبلَ أن يُسدَّ الطريقُ

وقال نعمان لابنه : يا بني جالس قوماً يذكرون الله بطاعته ، فإن كنت عالماً نفعك علمك ، وإن كنت جاهلاً علموك ، وإن نزلت عليهم رحمة أو رزق كان لك فيه معهم حظ ، ولا تجالس قوماً لا يذكرون الله فإن كنت عالماً لم ينفعك علمك ، وإن كنت جاهلاً زادوك جهلاً وإن نزلت عليهم لعنة أو سخط شاركتهم فيه .

وقال بعض الحكماء لصاحب له : إرض بالقضاء ، واصحب الدنيا على علاتها ، فإنك لا ترى إلا أحد رجلين : متقدماً أخره حظه أو متأخراً قدمه حظه ، فإن لم ترض بالحال التي أنت فيها وإن كانت دون أملك

واستحقاقك اختياراً ، وإلا رضيت بها اضطراراً . قال الشاعر :

إصبرْ على القدر المحتوم وارضَ به   وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

وقال آخر لصاحب له : إياك أن تدنس عرضك بالمعاصي فإن الماء يغسله ولا تستغفر لذنبك إلا ربك فإن سواه لا يغفره ، وأخلص لله عملك لعله سيقبله . وفي مثل هذا يقول الشاعر :

الماءُ يغسلُ ما بالجسمِ من دنسٍ   وليسَ يغسلُ قلبَ المذنبِ الماءُ

وقال بعض العلماء : إذا ابتليت فثق بالله ولا تجزع ، وإذا عوفيت فاشكر الله ولا تقطع . وإذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع ، وفوض أمرك إلى الله فنعم الملجأ ونعم المرجع ، فإذا فعلت فقد فزت بخير الدارين أجمع . قال الشاعر :

إذا ابتليتَ فثقْ بالله وارضَ به   إنّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ
إذا قضى اللهُ فاستسلم لقدرته   ما لامرىء حيلة فيما قضى اللهُ
اليأسُ يقطعُ أحيانـاً بصاحبه   لا تيأسنّ فنعمَ القـادرُ اللهُ

وقال بعض العلماء لإبنه : يا بني إياك والجزع على ما فات ، والطمع فيما لا يرجى ، وما اشتد خطب إلا وأعقبه فرج ، ولا انسد باب إلا سوف ينفرج ، فإن الله عز وجل قد جعل مع العسر يسرين ، وجعل في الصبر خير الدارين ، وما زال مع الصبر الظفر والأنس ومع الجزع الكدر واليأس ، فاختر لنفسك ما يدنيك إلى الله ويقربك ، واطرح عنها ما يحزنك ويكربك . قال الشاعر :

لا تجزعنّ إن مضت للخطب أيام   فربّما ساعدت للسعدِ أعوامُ
وإن تعرض عسرٌ فانتظرْ فرجاً   صرف الليالي كذا بؤس وإنعام

ولما حضرت الوفاة هرم بن حيان . قيل له أوص . قال : ما أدري

بما أوصي ، ولكن بيعوا درعي واقضوا ديني ، فإن لم تف فبيعوا فرسي فإن لم تف فبيعوا غلامي ، وعليكم بخواتم سورة النحل .

قال قتادة : أوصى والله بجماع الأمر ، وبما أوصى به الله عز وجل ومن أوصى بما أوصى به الله فقد أبلغ .

وقال بعض العلماء : لا أحد أجمع من السفيه للخلال المذمومة ، وأبعد منه من الخصال المحمودة ، فإنه لا يستحي من المحال ، ولا يرى العار في حال فاحذره جهدك ، وباعده عمرك ، فإن اضطرك الدهر الى الجمع به ، فأعد له حلماً تدفع به شره ، وصبراً تقمع به ضره ، ولا تبتئس بما أعلق بك ، ولا تبال عما أصاب إليك ، وكن معه كمن مر بروضة شوك يسعى في تخليص جسده عنها ، ولم يسأل عما تعلق بثيابه منها .

وقال رجل لبعض الصالحين : أوصني . فقال له : إتق الله في سرك وعلانيتك ، وافعل الخير ما أمكنك . ولا تضيع أمانة من ائتمنك ، واصدق الحديث ساءك أو أحزنك ، فإن فعلت ذلك فقد استعدت السياسة رسنك ، وأرحت من المكاره قلبك وبدنك .

وقال بعض الصالحين لبنيه : يا بني لا تبخلوا برزق الله على عباد الله تفوزوا بالشكر ، وتحصلوا على الأجر ، ويوسع عليكم في الرزق ، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة فإنها صدقة ، وإن مر بكم ذو فاقة فلا تحوجوه إلى السؤال فإنه مقام إذلال ، فإن لم تقدروا فتحية مباركة فإن فيها أنساً .

وقالت أعرابية لابنها : يا بني عليك بحسن الخلق ، وجميل العشرة ولطف الموافقة ، ولين الجانب ، والاحتمال للصاحب ، وكف الأذى والمقاسمة في العزاء ، فإنك تستميل القلوب ، وتنال كل مرغوب ، ويحفظك علام الغيوب .

وأوصى طاوس رجلاً فقال له : إني أجمع لك العلم كله في ثلاث كلمات : خف الله حتى لا يكون أحد أخوف لك منه ، وارج الله حتى لا يكون أحد أرجى عندك منه ، وأحب الله حتى لا يكون أحد أحب إليك منه ، فإذا فعلت ذلك فقد علمت علم الأولين والآخرين .

وأوصى بعض الملوك إبنه . فقال : يا بني كن بما علمت عمولاً وعما جهلت سئولا ، وافحص الأمر يتجل لك ، واستبطن أهل التقوى وذوي الأحساب تزن نفسك وتحكم أمرك ، ولا تخص بسرك من لا يكتمه ولا تول أمرك من لا يفهمه ، ولا تثق برجل تتهمه ، ولا تعود لسانك الخنا وكثرة التألي ، ولا تكلف نفسك ما لا تقدر عليه ، وإذا هممت بأمر خير فعجله ، وإذا هممت بأمر شر فتأن فيه ، وإياك وقبول التزكية فيما لا تشك فيه أنك مكذوب فإنها خدعة تتبعها ضرعة .

وقال بعض الحكماء : ذللوا أخلاقكم للمحاسن ، وقودوها إلى المحامد ، وعلموها المكارم ، وعودوها الجميل ، واصبروا على الإيثار على أنفسكم ، وتكرموا بالغنى عن الإستقصاء ، وعظموا أقداركم بالتغافل عن دنى الأمر وامسكوا رمق الضعيف بالمعونة ، وصلوا من رغب إليكم بجاهكم إن لم يكن بمالكم . ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم ، وأصلحوا ما بدر منكم ولو بالتخلق إن لم تكن حشمة . وإياكم والكبر فإنه رأس المقت وثوب البغضة عند الله والناس .

وقال بعضهم : أكثر من مخالطة أهل الأدب ، فإن صلاح الأخلاق وفسادها كثيراً ، ما يكون ذلك على قدر أخلاق الذين تطيل صحبتهم وتواظب على معاشرتهم ،وكثيراً ما يفسد الطبع الحسن معاشرة أهل الجهل والريب ، فانظر من تصحبه فإنك موسوم بسيما من صحبت فتحفظ من دخلاء السوء ، وأظهر مجانبة أهل الريب،وإذا نظرت فيمن ترتاد لاخائك

فإن كان من أهل الدين فليكن فقيها غير مراء ولا حريص ، وإن كان من اخوان الدنيا فليكن حيياً غير جاهل ولا كذاب ولا شرير ، فإن الجاهل أهل أن يفر عنه أبواه ، وإن الكذاب لا يصدق في مودته ، وإن الشرير إن سلمت من شره أكسبك شر غيره .

وأوصى سفيان الثوري [1] بعض إخوانه . فقال : اطلب العلم للعمل به ولا تطلبه لتباهي به العلماء ، وتماري به السفهاء ، وتأكل به الأغنياء وتستخدم به الفقراء ، فقد بلغنا أن من طلب الخير صار غريباً في زمانه فلا يستوحش واستقم على سبيل ربك فإنك إذا فعلت ذلك كان مولاك الله وجبريل وصالح المؤمنين ، واشتغل بذكر عيوب نفسك عن عيوب غيرك ، واحزن على ما مضى من عمرك في غير طلب آخرتك ، وأكثر من البكاء على ما أوقرت ظهرك به من الذنوب لعلك تخلص منها ، وإن أردت اللحاق بالصالحين فاعمل بأعمالهم ، واكتف بما أصبت من الدنيا ولا تنس من لا ينساك ، ولا تغفل عمن قد وكل بك من يحصي أثرك ويطلب عملك ، وراقب الله في سريرتك وعلانيتك فهو رقيب عليك ، واستحي ممن هو معك وهو أقرب إليك من حبل الوريد ، واعرف من فاقة نفسك وحقارة منزلتها فإنك إن لم ترحمها لم ترحم ، ولا تغشها ولا توردها الموارد ، وخذ منها لك ، وأكثر البكاء على نفسك ، فإنك لست من الضحاك بسبيل .

وأوصى بعض أئمة الصوفية ولده . فقال : يا بني عليك بالسيرة الجميلة والهمة الجليلة ، والسير على الطريقة ، والجمع بين الشريعة

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور (٩٧ – ١٦١ هـ = ٧١٦ – ٧٧٨ م) امير المؤمنين في الحديث كان سيد اهل زمانه في علوم الدين والتقوى . ولد ونشأ في الكوفة . له من الكتب : الجامع الكبير والجامع الصغير وكلاهما في الحديث وكتاب الفرائض وكان آية في الحفظ من كلامه : ما حفظت شيئا فنسيته .

– الاعـلام –

والحقيقة ، ولا يظهر عليك إلا سر مخزون ، وأمر موزون ، وفكر يجول فيما هو كائن ويكون ، واجعل الشرع في يمينك ، والعقل في شمالك ، والتفويض بينهما ، واحكم في شأنك كله بالكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، وعامل نفسك وغيرك بالمعروف ، وعليك بالتجلي والتحلي ، وبالبسط عند القبض ، وبالشكر لله على كل حال ، وورِدك لا تغفل عنه إن فاتك بالليل فاخلفه في النهار أو فاجعله في الذكر . واعلم أن بالعلم يصعد السعداء إلى المراتب العليا ، وبالعمل الصالح يثبتون عليها ، وقد صح أن العلم شفيد الكمالات كما أن العمل الصالح يحفظها ، ولا تعاشر أحداً غير إخوانك ، واهجر منهم من أهمل الأدب حتى يستغفر الله ، وعليك باحترام كل مسلم ، ولا تسمح في قليل من المنكر ولا كثيره ، وصم الليالي البيض ،وتصدق كل يوم ولو بتمرة أو بصلة ، وحسن ظنك بأولياء الله فهم أبواب الخير . وصل الصلوات الخمس في جامع خطبة .

فصل

من المنقول في تأليفنا تذكرة من اتقى

قال لقمان الحكيم لابنه : يا بني لا تركن إلى الدنيا ، ولا تشغل قلبك بحبها فإنك لم تخلق لها ، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها لأنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ولا عقوبة للعاصين . يا بني إن الدنيا بحر عرض قد هلك فيه بشر كثير ، فإن استطعت أن تجعل سفينتك الإيمان بالله وعدتك التوكل على الله ، وزادك التقوى ، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك . يا بني لا تضحك من غير عجب . ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك . يا بني لا تضيع مالك ولا تصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بني إن من يرحم يرحم . ومن يصمت يسلم . ومن يقل الخير يغنم . ومن يقل الشر ومن لا يملك لسانه يندم . .

وأوصى شهاب الدين السهروردي بعض أصحابه . فقال : يا أخي إذا نزل بك أمر من الله فاستعمل الرضى فإن الله مطلع عليك يعلم ما في ضميرك فإن رضيت فلك الثواب الجزيل ، وأنت في رضاك أو سخطك لست تقدر أن تزداد في الرزق المقسوم والأمر المكتوم، فإن لم تجد إلى الرضى سبيلاً فاستعمل الصبر فإنه رأس الإيمان ، فإن لم تجد فعليك بالتجمل ، ولا تشك من ليس بأهل أن يشكى وهو أهل الشكر والثناء فإذا اضطررت وقل صبرك فالجأ إليه بهمك ، واشك إليه بثك ، واحذر أن تستبطئه ، وتسيء به ظناً ، فإن كل شيء بسبب ، ولكل سبب أجل ولكل أجل كتاب ، ولكم هم من الله فرج ، ومن علم أنه بعين الله تعالى استحى أن يراه يرجو سواه ، ومن أيقن بنظر الله إليه ، أسقط اختيار نفسه ، ومن علم أن الله الضار النافع أسقط مخاوف المخلوقين فراقب الله ، واطلب الأمور من معادنها ، واحذر أن تعتمد على مخلوق أو تفشي له سراً ، فإن غنيهم فقير وفقيرهم ذليل ، وعالمهم جاهل ، وجاهلهم حائر في فعله إلا القليل ممن عصم الله سبحانه ، فاتق الفاجر من العلماء ، والجاهل من العباد ، فإنهم فتنة لكل مفتون .

وأوصى رجل من الحكماء بنيه . فقال : يا بني إياكم والجزع عند المصائب فإنه مجلبة للهم ، وسوء ظن بالرب ، وشماتة للعدو . وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ولها آمنين ، فإني والله ما سخرت من شيء إلا نزل بي مثله فاحذروها وتوقعوها . فإنما الإنسان في الدنيا غرض تتعاوره السهام فمجاوز له ومقصر عنه وموقع عن يمينه وشماله حتى يصيبه بعضها واعلموا أن لكل شيء جزاء ولكل عمل ثواباً . وقد قالوا : كما تدين تدان . ومن يبر يوماً بر به .

وأوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنه عبدالله . فقال : يا بني إتق الله فإن من اتقى الله وقاه ، ومن اتكل عليه كفاه ، ومن شكر الله

زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا خير لمن لا خشية له .

وأوصى عبد الملك بن مروان بنيه . فقال : يا بني كفوا أذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتم ، ولا تلحفوا إذا سألتم فإنه من ضيق ضيق الله عليه ، ومن أعطى أخلف الله له .

وقال بعض السلف الصالح في وصية : تفقه في الدين ، وعود نفسك المكروه ، وكل نفسك في أمورك كلها إلى الله ، فإنك تكلها إلى كاف حريز ، ومانع عزيز ، وأخلص المسئلة لربك فإن في يده العطاء والحرمان وأكثر الاستخارة له والاستخارة به ، واعلم أن من كان مطيته الليل والنهار يسار به وإن كان لا يسير ، وأن الله تبارك وتعالى قد أبى الاحزاب الدنيا وعمارة الآخرة ، فإن تزهد فيها زهدك كله ، فافعل ذلك تفز وإن كنت غير قابل لنصيحتي إياك ، فاعلم علماً يقيناً أنك لن تبلغ أملك ولن تعدو أجلك ، وإنك في ديوان من كان قبلك ، فأكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى رغب فإنك لا تعتاض بما ابتذلت من نفسك وإياك أن توجف بك مطايا الطمع ، وتقول متى أجرمت نزعت فإنه هكذا هلك من هلك قبلك ، وأمسك عليك لسانك ، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك ، واحفظ ما في الوعاء ، وشد الوكاء ، فحسن التدبير مع الإقتصاد أكفى لك من الكثير مع الفساد ، والعفة مع الحرمة خير من السرور مع الفجور ، والمرء أحفظ لسره ، ولربما سعى إلى ما يضره ، وإياك والاتكال على الأماني ، فإنها بضائع النوكى ، وتثبط عن الآخرة والدنيا ، ومن خير حظ قرين صالح فقارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم ولا يغلبن عليك سوء الظن فإنه لن يدع بينك وبين خليل صالح صلحاً : واعلم أن مالك من دنياك إلا ما أصلحت به مثواك فأنفق من خيرك ، ولا تكن خازناً

لغيرك ، لم يهلك امرؤ اقتصد ، ولم يفتقر من زهده رأس الدين اليقين . وتمام الاخلاص اجتناب المعاصي ، وخير المقال ما صدقه الفعال .

وقال أبو نصر الكاتب في وصية : راقب الرقيب فإنه قريب ، واحفظ الأوقات فإن الشهيد هو الحسيب ، ولا تغفل عن مولاك فإنه دائم الشهود عليك ، وطهر الأفكار والسرائر فإنه يعلم البواطن كما يعلم الظواهر » وارفض الأسباب فإن بضاعتك هو الفقر ، ولا تساكن الدنيا فإن مسكنك هو القبر ، واحفظ الصبر فإن عدمت الرضى كفاك الصبر .

وأوصى علي بن أبي طالب للحسن والحسين رضي الله عنهم . فقال : تنافسوا في المعالي ، وسارعوا إلى المكارم ، واكتسبوا الحمد بالجود . ولا تكتسبوا بالبخل ذماً ، ولا تعدوا معروفاً لم تعجلوه ،ومهما تكن لأحدكم عند أحد نعمة لم يبلغ شكرها ، فالله أحسن لردها أجرا ، وأجزل عليها حظاً . واعلموا أن أفضل المال ما أكسب حمداً وأعقب أجرا . وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما عظمت نعمة الله تعالى عند أحد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن مل تلك الحوائج فقد عرض تلك النعمة للزوال » .

قال ابن العربي . قلت لبعض أشياخي : أوصني . فقال : اقطع علائق الدنيا عنك إلا ما لا غنى لك عنه ، وتأهب لأمر لا بد لك من المصير إليه ، واعرف الحق لغيرك يعرفه لك ، ولا يقف بك التخير عن أمرين إلا أخذت أقربهما إلى التقوى .

فصل

من المنقول في تأليفنا مقالات الأدباء

قال بزرجمهر لإبنه : يا بني كن من الكريم على حذر إن أهنته ، ومن اللئيم إن أكرمته ، ومن الفاجر إن عاشرته ، ومن الأحمق إن

مازحته ، ومن العاقل إن أحرجته ، وكن حذراً كأنك غر ، وكن فطناً كأنك غافل . وكن ذاكراً كأنك ناس .

وقال بعض الحكماء في وصية : لا تطلب من صاحبك خلقاً واحداً وهو ذو طبائع أربع . فإن في تكليف هذا خروجاً من العدل . ألا ترى أن الله سبحانه شوق الجنة إلى خلقه بضروب متفاوتة ، وأشياء متباينة فقال عز وجهه (فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى) [١] وقال (فيها فاكهة ونخل ورمان) [٢] وقال (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون [٣]) فوصف جل ثناؤه ضروباً مختلفة مما فيها ليميل كل فريق لما اشتهى منها .

وقال بعض الحكماء في وصية : إذا أعجبك ما تواصفه الناس من محاسنك فانظر فيما بطن من مساويك ، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح الناس لك .

وأوصى الأشعث بن قيس لبنيه . فقال : يا بني ذلوا في أعراضكم وانخدعوا في أموالكم ، ولتخف بطونكم من أموال الناس وظهوركم من دمائهم ، فإن لكل امرىء منكم تبعة ، وإياكم وما يعتذر منه ويستحي فإنما يعتذر من ذنب ويستحى من قبيح ، وأصلحوا أموالكم بجفوة السلطان وتغير الزمان ، وكفوا عند حاجة أو مسئلة فإنه كفى بالرد منعاً ، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدراً .

وقال بعضهم في وصية : غافص الفرصة عند إمكانها ، وكل الأمور إلى وليها ، ولا تحمل على قلبك هم يوم لم يأت بعد إن يكن من

---

(١) سورة محمد آية ١٥ .

(٢) سورة الرحمن آية ٦٨ .

(٣) سورة الواقعة آية ٢٢ .

أجلك يأتك الله فيه برزقك ولا تجعل سعياك في طلب المال أسوة المغرور فرب جامع لبعل حليلته . واعم أن تقتير المرء على نفسه هو توفير منه على غيره .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصية : من علم من أخيه مروءة فلا يقبل فيه أقاويل الرجال ، ومن حسنت علانيته فنحن لسريرته أرجى . ألا لا يردن أحدكم يقينه شكا . فقال له المسيب بن نجية : ومن ذا الذي يرد يقينه شكا ؟ فقال : هو من إذا علم من أخيه المروءة الجميلة ثم قيل فيه أقاويل الناس ، ألا وقد يرمي الرامي ، وقد تزل السهام ، ويحال الكلام على طريق الشنآن ، والباطل يبور ، والله شهيد ، ألا وإن بين الحق والباطل أربع أصابع ووضع يده بين أذنه وعينه . وقال : الحق هو أن تقول رأيت بعيني ، والباطل هو أن تقول سمعت بأذني .

وأوصى أزدشير لإبنه . فقال : يا بني إن الملك والعدل أخوان لا غنى لأحدهما عن صاحبه ، فالملك أس والعدل حارس ، فما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع . يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد ، وبشرك لأهل الدين ، وبرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول .

وقال المنصور لولده : يا بني لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه ، وإني والله ما رأيت أحداً

أسعفته في حاجة إلا أضاء ما بيني وبينه ، ولا رأيت أحداً رددته عن حاجة إلا أظلم ما بيني وبينه .

وقال الأصمعي : قال لي الرشيد أول يوم عزم فيه على تأنيسي : يا عبد الملك أنت أحفظ منا ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا في ملاء ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلاء ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزد ، وإياك والبدار إلى تصديقنا وشدة العجب بما يكون منا ، وعلمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر وفي فواصل المخاطبات ، ودعنا من رواية حوشي الكلام ، وغرائب الأشعار ، وإياك وإطالة الحديث إلا أن نستدعي ذلك منك ، ومتى رأيتنا صادفين عن الحق فأرجعنا اليه من غير تقرير بالخطأ ولا إضجار بطول الترداد . قال الأصمعي فقلت له : يا أمير المؤمنين إنا إلى حفظ هذا الكلام أحوج مني إلى كثير من البر .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصية : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر له فضة ولا ذهباً ، وليعلم أن الله عز وجل يرزق العباد بعضهم من بعض .

وقال محمد بن حازم الباهلي لابنه : يا بني إذا سألت الحوائج فتأمل بها الصباح الوجوه من ذوي العناصر السنية ، والشيم المرضية ، واحذر ذوي الوجوه العابسة ، والأكف اليابسة ، أصحاب القراريط ، وكسبة الدوانيق ، المعروفين بالضيق ، المنسوبين إلى التدقيق ، الذين إن سئلوا ضنوا ، وإن أعطوا منوا فلا تخلقن بالطلب اليهم وجهك ولا تدنس بالسعي اليهم عرضك وعليك بمن أنعم الله على وجهه بالصباحة ، وعلى كفه بالسماحة ، فأولئك هم المعروفون بالصبر على ما ينوبهم من ملمات الرجال .

وقال الشعبي في وصية : عليك بالصدق حيث تظن أنه يضرك فإنه ينفعك ، وإياك والكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك . واعلم أنــه لا جنة أوقى من الصدق ، ولا شيء أقوى من الحق ، ولاسبيل أخوف من الكذب ، ولا حادث أقبح من الزور ، وقد ينتج الله للصادق النجاة العظيمة وإن لم ينوها ، والخلاص من النازلة وإن لم يتوهمها .

وأوصى رجل ابنه . فقال له : يا بني إذا كنت في قوم فدار بينهم تدبيراً فلا تعجل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم ، ولا تتكبر عن متابعتهم إذا ظهر لك الحق ، فإن المتابعة على الصواب أحسن من الابتداء بالخطأ . واعلم يا بني أن إصابتك الرأي بعد خطأ القوم أحمد لك من إصابتك قبل كلامهم ، فإنه لا يعرف فضل رأيك على غيره إلا بعد المعرفة بما عندهم ، فعند ذلك يستبين القول السديد من السفيه ، والرأي الرشيد من الكريه ، ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضع الخطأ .

ومن وصية بعض الحكماء : طلب في الحياة العلم والمال ، تحز الرئاسة على الناس لأنهم بين خاص وعام ، فالخاصة تفضلك بالعلم ، العالى تفضلك بالمال . التمس الرفعة بالتواضع ، والشرف بالدين . واستقبل من صلاح نفسك ما يستقبلك فساده إن لم تصلحه . صن عقلك بالحلم ، ومروءتك بالعفاف ، ونجدتك بمجانبة الخيلاء ، وخلتك بالاجمال في الطلب ، إن أردت أن لا يصل إليك من أحد شر فلا تعتقد الشر بقلبك ولا تطو عليه سرك » وقلل التفقد لعيوب الناس يقل تفقد الناس لعيبك . تجنب القول في أخيك لخلتين : أما الواحدة فلعلك أن تعيبه بشيء هو فيك . وأما الأخرى فإن يكن الله تعالى عافاك مما ابتلاه فلا يكن شكرك الله على العافية تظبيراً لأخيك على البلاء . احذر منزلك من الفساد عند سلطانك بمثل ما اكتسبتها به من الجد والمناصحة ، واحذر أن يحطك التهاون عما رقاك إليه التحفظ ، احذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً كما تحذر عداوة الجاهل إذا كان غاشاً

فيوشك أن يورطك الجاهل بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتورط الجاهل . لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد عمله ، ومن كانت غايته لاحتيال على مالك وإطرائك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب سريعاً إلى الذم . اجعل اختيارك للانسان من أفعاله خصوصاً لا من أقواله ، فإن كثيراً من الناس أفعالهم ردية ، وأقاويلهم سديدة . طهر قلبك من دنس البخل بمجانبته ، وارفع نفسك عن مصاحبة أهله . ونزه سمعك عن قبيح ذكره ، فلا داء أدوأ من البخل ، ولا حال أنكر من مصاحبة أهله ، ولا محطة أوضع من الارتسام به ، إذا أنعم الله عليك بعمة فيها فضل عنك ، فاعلم أن فيها نصيباً لغيرك فتسرع إلى إخراجه تأمن بغتة الاستدراك .

فصــل

لما حضرت يونان الوفاة أوصى ابنه . فقال له : يا بني إني قد وافيت الأجل ، وقربت من الحتم ، وإني راحل عنك ومفارقك ، ومفارق أهل بيتك وإخوتك ، وقد كانت أحوالكم حسنة النظام ، وكنت لكم كهفاً في الشدائد وعوناً على المحن ، ومجناً في الرايا ، فعليك بالجود فإنه قطب الملك ، ومفتاح السياسة ، وباب الرئاسة ، ودرج السيادة ، وكن حريصاً على اقتناء الرجال بالانعام عليهم تكن سيداً رشيداً . وإياك والحيدة عن الطريقة المثلى التي عليها مبنى العقل ، فإن من ترك رأي اللب ، وثمرة العقل تورط في المهالك ، ووقع في مغائص التعب .

وأوصى لقمان ابنه ، وقد أراد سفراً . فقال : يا بني إذا سافرت فلا تنم على دابتك ، فإن كثرة النوم عليها يسرع في دبرها ، وإذا نزلت بأرض مكلئة فاعطها حظها من الكلأ ، وابدأ بعلفها وسقيها قبل نفسك ، فإذا بعدت عليك المنازل فعليك بالدلج فإن الأرض تطوى بالليل ، وإذا أردت

النزول فلا تنزل على قارعة الطريق فإنها مأوى الحيات والسباع ، وعليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً ، وألينها تربة ، وأكثرها كلأ فانزل بها ، وإذا نزلت فصل ركعتين قبل أن تجلس ، وقل (رب أنزلني منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين)[1] وإذا أردت قضاء حاجة فابعد المذهب ، وعليك بالسترة ، وإذا ارتحلت من منزل فصل ركعتين وودع الأرض التي ارتحلت عنها ، وسلم عليها وعلى أهلها فإن لكل بقعة أهلاً من الملائكة ، وإذا مررت ببقعة أو واد أو جبل فأكثر من ذكر الله فإن البقاع والجبال تنادي بعضها بعضاً : هل مر بكم اليوم ذاكر لله ؟ وإن استطعت أن لا تطعم طعاماً حتى تتصدق منه فافعل وعليك بذكر الله ما دمت راكباً ، وبالتسبيح ما دمت صائماً ، وبالدعاء ما دمت خالياً . وإياك والسير في أول الليل ، وعليك بالتغليس والدلجة من وسط الليل إلى آخره . وإياك ورفع الصوت في سيرك إلا بذكر الله ، وسافر بسيفك وقوسك ، وتزود معك الأدوية تنتفع بها ومن معك من أصحابك المرضى والزمني ، وكن لأصحابك موافقاً في كل استغاثوك فأغثهم ، وإذا استشهدوا بك على الحق فاشهد لهم ، واجهد رأيك ، فإذا رأيتهم يمشون فامش معهم أو يعملون فاعمل معهم ، وإن تصدقوا بصدقة أو أعطوا شيئاً فأعط معهم ، واسمع ممن هو أكبر منك ، وإن تحيرتم في طريق فانزلوا ، فإن شككتم في القصد فتثبتوا وتأمروا . فإن رأيتم خيالاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم فإن الشخص الواحد في الفلاة هو الـذي حيركم ، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فإن العاقل إذا أبصر الشيء عرف الحق بقلبه .

وأوصى بعض الحكماء ابنه . فقال : يا بني إني أراني أنقص في كل يوم والنقص مرقاة للفناء ، وإنك لتشتمل بعد ذلك على أمري فتعمر منزلي

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٩ .

وتتغنى بهديي ، وفي ذلك الوقت تحتج إلى مجاهدة ظن الحاسد ، وإجحاف القاصد ، ورأي المعيب ، وإطراء المتملق ، وكذب المحروم ، فإن صبرت لها وقابلتها بحسن الروية ، وسداد التدبير . قهقرت هذه الجماعة منك حسيرة مدحورة ، وابعد عن الفادح أن يقدح في شيء من أمرك .

واعلم أن مالك أكثر ما أحرز لك المكانة في أهل طبقتك . فاقعد مقام الشريك الذي تثق بسرعة إجابته ، وتحمد حسن صحبته ، ويرى زيادة جاهك ، ونقصانه بزيادته ونقصانه ، فلا تسعفن فيه رأياً تصدى لك فإنه أجرى عليك منه ، ولا تجمح بك الرغبة في الازدياد منه إلى الطلب المحظور عليك ، فإن قليل ما خبث من المال يمحق كثير ما طاب منه .

واعلم أن الشهوات حلوة الموارد ، مرة المصادر ، وأن طاعة الرأي مرة المورد حلوة المصدر ، فتحمل ما في يديها لما في غيها ، ولا تنس أن التضامن لمن فوقك والرأفة بمن دونك أكبر من صبرك على استعتاب من فوقك ، واحتمالك لمن ضعف عنك أزيد من احتمالك لمن قوي عليك .

اعلم أن أضر من عاشرته مغريك مطريك ، من قصرت همته عن همتك .

واعلم أنك إن ظننت بالشيء أكثر مما فيه قعد بك أحوج ما كنت اليه ، وإن ظننت به دون ما هو فيه تظلمت منك قواه ، فناسب بعملك طبيعة الزمان ما لم يقدح ذلك في مروءتك ودينك وأخلاقك . فإذا بلغ إلى هذه الثلاثة فخل عنه ، ولا تستهين بصغير الخطأ في كبير العمل . واحذر أن تستصغر لك عدواً فيقتحم عليك مكروهه من زيادة مقداره على تقديرك فيه .

واعلم أن الزمان الرديء يقلب أعيان المنعمين إلى المنع والإساءة بما يظهر فيه من كفر الاحسان ، ومقابلة الجميل بالقبيح ، وينبغي للعاقل ان

يخدم في شبيبته زمان الشيخوخة قبل مجيئه ، كما يخدم في الصيف زمان الشتاء قبل هجومه ، فإنه يجمع الحطب وما لا يصل اليه في ذلك الوقت لصعوبته عليه ، واجعل حذرك من الناس أكثر من رجائك لهم ، وتحرزك منهم أكثر من استنامتك اليهم ، وإذا ضاق عنهم وفرك فليسعهم بشرك .

واعلم أن تكبر الحر على من فوقه ، وتكبر النذل على من دونه ، وينبغي أن تخاف الضعيف إذا كان تحت راية الانصاف ، أكثر من خوفك القوي إذا كان تحت راية الجور ، فإن النصر ربما أتاه من حيث لا يشعر .

واعلم أن احتمال المكاره في هذا العالم ، والصبر على المحن كراء للمحياء ، وخرج يلتزمه العاقل لأيام البقاء .

واعلم أن من غلب الشباب ومساعدة الحظ ، ولم يثنياه عن الأمور الفاضلة فهو القوي ، ومن تصور صدره في ورده ، وجعله نصب عينه ، ونجي فكرته ، فهو السعيد النجيب ، ومن قضى ما أسلف اليه من الاحسان فهو تام الحرية .

واعلم أن الميل إلى الراحة غفلة عن عدو لا يغفل ، وأن من ضعف لسره لم يقو لشيء من أمره ، وأن الأحرار تخاف التبكيت كما تخاف العبيد الضرب .

واعلم أن أعظم الفاقات فاقة الرجل إلى حاشيته ، وأن الخيار يرغبون عند الحاجة ، والشرار يرغبون في الحاجة والشهوة ، وأن سياسة الغني للفقير أشد من سياسة الملك للرعية ، وأن الجدة لا تكاد تهدى إلى صاحبها صديقاً فيه خير ، والشدة لا تكاد تهدي إلى صاحبها صديقاً فيه شر .

واعلم أن المعروف ذخيرة لا يحتاج إلى حراس ، فعاشر الشكس بالتواضع ، والمهين بالتآمر ، والبخيل بالمسامحة ، والسخي بالرغبة اليه . ولا تغفلن في كل الأحوال عن ثمرة حسن المداراة .

واعلم أن أضيق المشاهد مكان لم تجد فيه معيناً لك ، ولا مشيراً عليك ، وأخوف المسالك حال حسنت فيها مفارقة حريتك ، وجميل أوصافك، وتعبدت فيها لرذائلك ، وأسوأ المجاورين لك مخالط يحرف حسنك ويحسد فضلك ، وتتبع غوائلك ، واذا حاولت أمراً فلا تجمح اليه ولا ترمه ، فأكثر جهدك ، وكن فيه مثل الملاح في قطع عرض البحر يسرق له الرياح والجرية . واستعمل الاخلاص لله تعالى فيما عجزت عنه لأنه ربما كان الاعراق في الأمر سبباً لفواته ، والاخطار بصاحبه فيه .

واعلم أن للجاه زكاة تجب على صاحبه وهي : السعي في إنصاف المظلوم ، وقضاء حاجة المستور ، وتقريب النجح ممن عجز جاهه ، وعزت عليه مطالبه وهذه تربية وتزيد فيه .

واعلم أن الدهر حاملك على طبقات : منها حال السخاء حتى تدنو من السرف . ومنها حال الاقتصاد حتى تدنو من البخل ، ومنها حال الأناة حتى تدنو من البلادة، ومنها حال المناهزة للفرصة حتى تدنو من الطيش ، ومنها حال الذلاقة في اللسان حتى تدنو من العي ، ومنها حال الأخذ بحكم الصمت حتى تدنو من اللعي ، وأنت جدير أن تبلغ في كل طبقة حدها في محاسنها . فإذا وقفت على الحدود التي لا تجازى معها منعت نفسك ما وراء ذلك .

واعلم أنك بعين الله في تصرفك وتقلبك . وأنه مطلع على خائنه قلبك ، وما عقدت عليه نيتك . فخف خلافه . واجر إلى طاعته يجمع لك بين إحسانه لك في الدنيا ، ورضاه عنك في الآخرة . وأنا أسأل الله أن يرشد سعيك . ويحسن الاختيار إنه سميع الدعاء قريب الاجابة .

وأوصى بعض العلماء ابنه . فقال له : اعلم يا بني أن الأدب أفضل الأثاث وأن المروءة أفضل الميراث . والأدب زينة الحسب . وصلة في

المجالس . وأنس في الوحدة . وعون في المروءة . وإنما المرء بمروءته ، وأصل المروءة : اجتناب المرء مايشينه . واختياره ما يزينه ، ولا مروءة لمن لا أدب له ، ولا أدب لمن لا عقل له . قال الشاعر :

وما أدّبَ الانسانُ شيء كعقلهِ ... وما عقلهُ إلا بحسن التأدبِ

فواظب يا بني على طلب الأدب جهدك ، واشغل به عقلك ، وتدبر منه في الملا ما يزينك في الملا . قال الشاعر :

تَعلم فليسَ المرءُ يولــد عالماً ... وليسَ أخو علمٍ كمَنْ هوَ جاهلُ
وان كبير القوم لا علــمَ عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

وقد رسمت لك : يا بني رسماً إن لزمته أجلك الملوك ، وانقاد لك السوقة والصعاليك ، يا بني أول ما أوصيك به تقوى الله تعالى والشكر له ، في السر والعلانية ، وامتثل قول الشاعر :

ليس الظريفُ بكاملٍ في ظرفــهِ ... حتى يكونَ عن الحرامِ عفيفا
فإذا تورّعَ عــن محارمِ ربــهِ ... فهناكَ يدعى في الأنامِ ظريفا

واعلم : يا بني أن الشكر مزاد ، والتقوى خير زاد . قال الشاعر :

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكن التقي هو السعيــد
فتقوى الله خير الزادِ ذخــراً ... وعنــد الله للأتقى مــزيــد
وما لا بد أن يــأتي قــريب ... ولكــن الذي يمضــي بعيــد

يا بني إذا اجتمعت عليك أشغال جمة ، فابدأ بأحبها إلى الله عز وجل وأحمدها عاقبة ، ففي ذلك قال الشاعر :

اعمل وأنت من الدنيا عــلى حذرٍ ... واعلم بأنكَ بعد الموتِ مبعوثُ
واعلم بأنكَ ما قدمتَ من عملٍ ... محصى عليكَ وما خلقت موروثُ

واعلم : يا بني أن الصبر أفضل الأعمال وأحصن المعاقل ، فعليك بالصبر على طاعة الله عز وجل على ما أحب الناس أو كرهوا . فقد قال الشاعر :

صبرت ومن يصبر يجد غب صبره ألذ وأحلى من جنى النحل في الفم

يا بني : استغن عن الناس جهدك ، يحتاج الناس اليك ، واعلم أن أغنى الناس عن الناس من أفرد الله بحاجته ، وما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس اليه . قال الشاعر :

اضرعْ إلى اللهِ لا تضرعْ إلى الناسِ واقنعْ بيأسٍ فإن العزّ في الياسِ
واستغنِ عن كل ذى قربى وذى رحم إنّ الغنى من استغنى عن الناسِ

يا بني : لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف ، فكم من طالب كان مطلوباً اليه ، وراغب صار مرغوباً ما لديه . واعلم أن الزمان ذو الوان ، ومن يصحب الزمان يرى الهوان ، وكن كما قال الشاعر :

وعد من الرحمن فضلاً ومنة عليكَ إذا ما جاءَ للعرف طالبُ
ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغباً فإنك لا تدري متى أنتَ راغبُ
رأيت التوا هذا الزمان بأهلهِ وبينهم فيهِ تكونُ العجائبُ

يا بني : إذا فعلت معروفاً فلا تمن به فإن المنة تهدم الصنيعة ، وتحبط الأجر ، وتسقط الشكر ، ولذلك قال الشاعر :

فلا تك منانـاً بخـير فعلتـه فقد يفسد المعروف بالمن صاحبه

وكن يا بني أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، أقل ما تكون في الباطن مآلا . واعلم أن الكريم قد كرمت عند الحاجة طبيعته ، وظهرت عند الافتقار نعمته ، قال الشاعر :

ولا عار إن زالتْ عنِ المرءِ نعمـةٌ ولكن عاراً أن يزولَ التجمل

يا بني : عليك بالوفاءِ فإنهُ يدعو إلى التقى ، واعلم أنهُ لا يتم كرمُ المرءِ إلا بحسنِ وفائه ، ولذلك قال الشاعر :

إن الوفاءَ بعهـدِ اللهِ عـادتنا ولا يفي بعهودِ الله كـذابُ

يا بني : إذا وعدت أحداً عدة فتسمها وعجل بها ، وإياك أن تقول لا فيما قلت فيه نعم ، وامتثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

ولا أقولُ نعم وأتبعهـا بلا يومـاً ولو ذهبت بالمـالِ والولـدِ

يا بني : خذ في أمورك بالأناة وحسن التثبت تسلم من عتاب الاخوان عند عواقبها ، كما قال الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجتـهِ وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

يا بني إذا ائتمنك أحد على أمانة فاله عن ذكرها حتى تسلمها مصونة إلى أهلها ، ففي ذلك قال الشاعر :

وإذا اؤتمنتَ على الأمانـة فارعها إن الكريمَ إلى الأمانةِ راعي

يا بني : الق صديقك وعدوك بوجه الرضى ، وكف الأذى من غير ذلة لهم ولا هبة منهم ، وكن في الأمور متوسطاً ، فإن خير الأمور أوساطها وكن للاخوان في الحضر ، وللرفقاء في السفر . قال الشاعر :

كنت إذا صحبت رجالَ قوم صحبتهـم شيمتي الوفـاءُ
فأحسن حين يحسن محسنوهـم واجتنب الإساءةَ إنْ أساءوا
أشاء سوى مشتهـم فـآتـى مشئيتهـم وأتـرك ما أشاءُ

يا بني : أكرم عرضك صنه جهدك ، اجعل مالك قاية لعرضك ، اجعل عرضك قاية لدينك ، كن كما قال الشاعر :

أقي بمـالي عرضي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المالِ

أحتال في المال إن أودى فأكسبه ولست للعرض إن أودى بمحتال

يا بني : كن حذراً كأنك غر ، وكن ذاكراً كأنك ساه ، وكن فطناً كأنك غافل ، فإن اللبيب للعاقل هو الفطن المتغافل . وإذا اعتذر اليك أحد من قول بلغته عنه أو سمعته منه فاقبل معذرته ولا تدع صلته فتكون قد جعلت صديقاً عدواً ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ومن لا يُغمض عينهُ عنْ صديقهِ وعن بعضِ ما فيه يمت وهو عاتبُ

يا بني : كن جواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالسر على جميع الخلق ، فإن من تمام كرم الحر القيام بالبر ، والبخل بمكتوم السر ، كما قال الشاعر :

أجودُ بممنوعِ البــلادِ وإنني كتومٌ لأسرارِ العشير أمينُ
وعندي له يوماً إذا مــا اؤتمنته مكانٌ بسوداء الفؤاد كنينُ

يا بني : إذا التبس عليك أمر فشاور لبيباً ، وإذا أرسلت رسولاً فليكن حليماً ، فإن لم يكن حليماً فكن رسول نفسك ، فإن مشاورة اللبيب قوة لرأيك ، وحلم رسولك جزم في أمورك ، وفي ذلك قال الشاعر :

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلاً فارسل حكيماً ولا توصهِ
وإن باب أمر عليكَ التــوى فشاور لبيباً ولا تعصــهِ

يا بني : إذا استشارك عدو أو صديق فامنحه النصيحة ، فإن فعلت قلت بالحكمة وبرئت من التهمة ، وفي ذلك قال الشاعر :

أشر اليوم علينا بالهــدى فمــتى يستأشر الحر يشر

ولا تدع يا بني مواصلة الكريم ، وفر الفرار كله من اللئيم فإنــه لا يستقيم لك وده إلا من حاجته إليك ، أو فرق منك ، فإن استغنى عنك كان عليك ، وإذا احتجت اليه هنت عنده . قال الشاعر :

إن منْ أحوجكَ الدهرُ اليهِ وتعلقتَ بهِ هنتَ عليــهِ
ليسَ يصفو ودٌ من واخيتــهُ إن تعرضتَ لشيءٍ في يديهِ

يا بني : عليك بالصدق ، فإنه زين في الدنيا ، ونجاة في الآخرة ، وصدق يعطب صاحبه خير من كذب ينجو به كاذبه ، وقد قال الشاعر :

إن خيرَ المقالِ ما وافقَ الحقَ وإن قط فيه حبل الوريــدِ
ولقط الوريد في الحقِ خــيرٌ من دراك المنى على التفنيــدِ

وجنب الكذب فإنه شين في الدنيا ، ووبال في الآخرة ، والكذوب يرد صدقه كما يرد كذبه ، وعليك بالسخاء ، واكتساب الحمد ، والمداراة عن العرض ، وخذ بقول زهير :

ومن يجعل المعروف من دونِ عرضه يفرهُ ومن لا يتق الشتمَ يُشتمِ

واعلم يا بني أن برَّ الوالدين حيين : الطاعة لهما ، وبرهما ميتــين الترحم عليهما ، والكف عن أعراض الناس صيانة لأعراضهما . قال الشاعر :

وما عق مولود من الناس والــدا عقوق الذي يجنى لوالده شتما

يا بني : لا تستخف بحقوق الرجال فيستخفوا بحقك ، واقبل منهم الجميل وكافئْ عليه ، فإنك إذا فعلت ذلك دام لك حمدهم وصفاً لك ودهم ، وخذ بقول الشاعر :

خذِ العفوَ واصفحْ عن أمورٍ كثيرةٍ ودع كدرَ الأخلاقِ واعمد لما صفا
وبغى عدوٌ كاشحٌ قــدٌ علمتهُ فكنتَ كمن أغضى بعينٍ على قذى

يا بني : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط ، وقد قال الشاعر :

وأحببْ إذا أحببتَ حباً مقاربـاً فانكَ لا تدري متى أنتَ قاطعُ
وأبغضْ إذا أبغضتَ بغضاً مقاربـاً فانكَ لا تدري متى أنتَ راجعُ

يا بني : وإن سمعت كلمة حاسد فكن كأنك غير شاهد . قال الشاعر :

أعرضْ عن العوراءِ إن أسمعتهـا واقعدْ كأنكَ غافل لا تسمـعُ
ودع السؤالَ عـن الأمورِ وبحثها فلرُبَّ حافرُ حفرةٍ هو يصرعُ

يا بني : إذا نازعتك نفسك إلى أمر هو لك شائق ، فخوفها المقت ، وعاتبها على ما به طالبتك ، فإن لم ينفعها كتابك ، فكيف ينفعها كتاب غيرك ؟ وفي ذلك قيل :

وليس عتاب الناسِ للمرءِ نافعاً إذا لم يكنْ للمرءِ لبٌ يعاتبهُ

يا بني : إياك والبخل فإنه لوم ، وصاحبه مذموم ، وإياك والمطل فإنه أجلب للذم من البخل . قال الشاعر :

إذا اجتمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل
فلا خير في وعد إذا كان كاذبـاً ولا خير في قول إذا لم يكن فعل

يا بني : لا تنقل نميمة ، فتكسب بها شتيمة مع أن من عرف بهـا تحفظ من مجالسته وزهد في مواصلته . قال الشاعر :

إنَّ الكريمَ الذي تبقى مودتـهُ ويحفظ السرَّ إن صافا وإن صرما
ليسَ الكريمَ الذي إنْ زلَّ صاحبهُ بثَّ الذي كانَ من أسرارهِ علما

يا بني : لا تعب أحداً بما يبدو لك من عيوبه ، فإذا هممت بذلك فاذكر عيوب نفسك ، فإنك ترى ما يشغلك عن عيوب الناس ، فإن عبت أحداً بما فيه كان ذلك قبيحاً ، وأقبح منه أن تعيبه بما فيك ، وفي ذلك قال الشاعر :

إذا ما ذكرتَ الناسَ فاتركْ عيوبهم　　فلا عيبَ إلا دونَ ما منك يذكرُ
فإن عبتَ قوماً بالذي هــو فيهــم　　فذلك عندَ اللهِ والناسُ منكرُ
وإن عبتَ قوماً بالذي فيكَ مثلــهُ　　فكيفَ يعيب العورُ من هو أعورُ

يا بني : إياك وقرين السوء ، فإنما صلاح أخلاق المرء بمقارنة الكرام ، وفسادها بمحادثة اللئام ، وإنما يعرف المرء بقرينه وخدينه . قال الشاعر :

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ　　فكلُّ قرين بالمقارنِ مقتــدي

يا بني : إياك وكثرة الكلام والمزاح والضحك ، فإن مع كثرة الكلام الزلل ، والمزاح يورث البغضاء ، وكثرة الضحك يذهب البهاء ، فأقلل من الكلام ، وأفش السلام ، وليكن ضحكك تبسماً ، ولا تمازح شريفاً فيحتمد عليك ، ولا وضيعاً فيجترئ عليك . قال الشاعر :

وإيــاكَ إياكَ المــزاحَ فإنــهُ　　يجري عليكَ الطفلَ والرجلَ النذلا
ويذهبُ ماءُ الوجهِ بعد بهائهِ　　ويورثُ بعــد العزِّ صاحبهُ ذلا

والزم الصمت ، وليكن كلامك بتقدير ، وصمتك في تفكير ، وحصل القول ، وترسل فيه ، ومن أكثر أهجر . قال الشاعر :

وأقللْ إذا ما قلتَ قولاً فــإنــهُ　　إذا قلَّ قولُ المرء قلَّ خطاؤه

يا بني : لا تمازح حليماً ولا سفيهاً ، فإن الحليم يقليك ، والسفيــه يؤذيك .

واعلم أن المراء يمرض قلبك ، ويضعف رأيك ، ويزرى بمروءتك عند جلسائك ، ويفسد الصداقة القديمة ، وفي ذلك قال الشاعر :

فإيــاكَ إيــاكَ المراء فإنــهُ　　إلى الشرِ دعاء وللشرِ جالبُ

واعلم يا بني أن من الكلام ، ما هو أحر من الجمر ، وأمر من الصبر ، وقد قال الشاعر :

النارُ أبلغ أوجــاع سمعت بها   والقولُ أبلغ من كي المساميرِ

يا بني : إن لكل مقام مقالاً ، ولكل كلام جواباً ، وكل كلام منكر إلا وجوابه أنكر ، وقد قال الشاعر :

ما أحر الكلام يرحمــك الله   ولكن أحر منه الجواب

يا بني : لا تغتر بالمال فإنه كالمسافر يحل ويرحل .

واعلم أن العقل مقيم لا يبرح ، ومثل من له مال ولا عقل له كرجل له نعل ولا رجل له ، ومثل من له عقل ولا مال له كرجل له رجل ولا نعل له ، فإن أتاه الله بالنعل فالرجل مهيأه له ، وإن أتى بنعل من لا رجل له فإنما هي أعجوبة في الناس . قال الشاعر :

إذا كنتَ ذا عقلٍ ولم تكُ ذا غنىً   فأنتَ كذي رجلٍ وليسَ له نعلٌ
وإن كنتَ ذا مالٍ ولم تكُ عاقـلاً   فأنتَ كذي نعلٍ وليس له رجلُ

يا بني : إذا أتيت بلد أهلها على غير ما تعرف ،فاترك كثيراً ممـا كنت تعرف ، وخذ بما يعرفون فإن ذلك من حسن المداراة ، وكثير من دارى فلم يسلم فكيف بمن لم يدار ؟ قال الشاعر :

يا ذا الذي ليسَ لــهُ والدٌ   يمشي على الأرضِ ولا والده
قد ماتَ من قبلهمــا آدمٌ   فأي نفس بعــدهُ خالــده
إن جئتَ أرضاً أهلها كلهم   عورٌ فغمض عينكَ الواحدة

يا بني كن من الحليم على حذر إن أحرجته ، ومن اللئيم إن أكرمته، ومن الأحمق إن مازحته ، ومن الفاجر إن عاشرته .

واعلم أن من الناس من يقول ويفعل ، ومنهم من يقول ولا يفعل ، ومنهم من لا يفعل ولا يقول ، وهو خير منهم ، وشرهم الذي يقول ولا يفعل يا بني : غض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ، ولا تحدث

أحداً إعجابك بولدك وزوجتك ، ولا عجابك بسيفك ولا فرسك . وإياك وأحاديث الرؤيا فإنها تطمع فيك السفهاء ، فيولدوا لك الأحلام ، ويفسدوا في عقالك ولا تلبس من الثياب مشهوراً ، ولا تتخذ من الذواب مبطوراً، ولا تتصنع تصنع المرأة ، ولا تتبدل تبذل العبد . وتوق الكحل الكحل ، والإسراف في الدهن ، ولا تلح في الحاجات ، ولا تخضع في الطلبات . وإياك أن تعلم أهلك وولدك كثرة مالك أو قلته ، فإنهم إن علموا قلته هنت عليهم ، وإن علموا كثرته لم تبلغ به رضاهم . يا بني أخف أهلك وولدك في غير عنف ، وارفق بهم في غير ضعف ، ولا تر زوجتك حب الافراط فتتجبر عليك ، ولا ترها بغضاً فتنفر منك، وأحبب ولدك وأحسن أدبه ، ولا تهازل أمتك ولا عبدك . يا بني إذا خاصمت فدع الحدة ، وفكر في الحجة ، واصبر لمن خصمك ، ولا تغضب فتذهل عن حجتك ، وأر الحاكم بينكما حلمك ، ولا تكثر الاشارة بيدك . وإن قربك سلطان فكن منه على حد السنان ، وإن أمن اليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهي . وإياك أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وحشمه وغلمانه . وإن كان لقولك فيهم مطيعاً فإن أهل الملوك أصحاب خلوئهم وبطانتهم يحضرون لك في موضع يشربونه الوقيعة فيك ، ويولدون في صدره ما يغيره عليك ، وإن الدخول بين السلطان وأهله زلة لا تقام . يا بني إذا ركبت فلا تكثر من ضرب دابتك ، ولا تخفق بقدميك في ركابك ، وإذا سايرت موكباً فكن في وسطه ، ولا تكن أمام القوم فتثير الغبار عليهم ، ولا خلفهم فيثيروا الغبار عليك . يا بني لا تفرش عرضك لمن هو دونك ، ولا تنقض عهداً فتحمل بذلك حقداً ، وأقلل الكلام على الطعام إلا بالحمد لله ، وكذلك عند الخلاء. يا بني اتق الله يكفك ما تخافه وتتقيه ، واحذر أن تعصيه فإنه ليس لك من ورائه وزر ، ولا من دونه معتصم . وإياك والفجور بحرم الناس فإنه ما انتهك امرؤ حرمة إلا ابتلي في حرمة بمثله .

وإياك والخمر فإنها متلفة ، طلابة لما لا ينال ، وفيها مفسدة للعقل وسقوط الهيبة والبهاء ، وإياك والاختلاف ، فإنه ليس معه ائتلاف ، ولا يكن لك جار السوء جاراً ، ولا خدين السوء زواراً .

فصل

كان مما حفظ من مكاتبة أزدشير بن بابك إلى خواص رعيته وعماله : من أزدشير بهمن ملك الملوك إلى الكتاب الذين هم تدبير المملكة ، والفقهاء الذين هم عماد الدين ، والأساودة الذين هم حماة الحرب ، والحراث الذين هم عمدة البلاد : سلام عليكم نحن بحمد الله صالحون ، وقد رفعنا أتاوتنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا ورحمتنا ، ونحن كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها : لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو ، ولا تحبوا الاحتكار فيشملكم القحط ، وكونوا لأبناء السبيل مأوى ، تأووا غداً في المعاد ، وتزوجوا في الأقارب ، فإنه أمس للرحم ، وأقرب للنسب ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها لم تدم لأحد ولا تهتموا بها فلن يكون إلا ما شاء الله ، ولا ترفضوها مع ذلك فإن الآخرة لا تنال إلا بها .

وكتب ملك الروم إلى سابور بن أزدشير : أما بعد فقد بلغني من سياستك لجندك ، وضبطك ما تحت يدك ، وسلامة أهل مملكتك بتدبيرك ما أحببت أن أسلك فيه طريقتك ، وأركب مناهجك .

فكتب اليه سابور : نلت ذلك بثمان خصال : لم أهزل في أمر ولا نهي قط ، ولم أخلف وعداً ولا وعيداً ، وجازيت للغنى لا للهوى ، واجتلبت قلوب الناس مقة بلا مقت ، وخوفاً بلا جرأة ، وعاقبت للذنب لا للغضب ، وعممت بالقوت ، وحسمت الفضول .

وكتب سابور إلى بعض عماله : إذا استكفيت رجلاً فأسن رزقه

وشد بصالح الأعوان عضده . وأطلق بالتدبير يده . ففي إسناء رزقه حسم طمعه ، وفي تقويته بالأعوان ثقل وطأته على أهل العدوان ، وفي إطلاق يده بالتدبير ما أخافه عواقب الأمور ، ثم قف من أمره على ماله ندبته ليمتثله إماماً ، ويحفظه كلاماً . فإن وقع أمره بما قد وسمت ، فاجعله غرضك . وأوجب زيارته عليك . وإن حاص عن أمرك ، علقته حجتك وانطلقت بالعقوبة يدك .

وكتب هرمز بن سابور إلى بعض عماله : إنه لا يصلح لسد الثغور وقود الجيوش ، وإبرام الأمور ، وتدبير الأقاليم إلا رجل تكاملت فيه خمس خصال : فهم يتيقن به عند موارد الأمور حقائق مصادرها ، وعلم يحجبه عن التهور في المشكلات إلا عند تجلي فرصها ، وشجاعة لا تنقضها الملمات بتواتر حوائجها . وصدق الوعد والوعيد ليوثق بوفائه بهما وجود يهون عليه تبذير الأموال في حقها .

كتب حكيم إلى حكيم :

أما بعد : فإني سائلك عن ثلاثة إن أجبت عنها تلمذت لك ، فكتب إليه : سل وبالله التوفيق ، فكتب إليه : أي الناس أولى بالرحمة ، ومتى تضيع أمور الناس ، وبم تتلقى النعمة من الله عز وجل ؟

فأجابه : أولى الناس بالرحمة الرجل البر يكون في بلد الأمير الجائر فهو خائف حزين لما يرى ويسمع ، والعاقل في تدبير الجاهل فهو الدهر متعب مغموم . والكريم يحتاج إلى اللئيم فهو الدهر خاضع ذليل. وتضيع أمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه . وتتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته . واجتناح معصيته ، فأقبل عليه ذلك الحكيم فتلمذ له حتى مات .

وكتب أيضاً حكيم إلى حكيم يشكو إليه دهره . فأجابه :

أما بعد : فإنه ليس من أحد أنصفه زمانه فتصرفت به الحال حسب استحقاقه وإنك لن ترى من الناس إلا أحد رجلين : إما متقدم أخره حظه أو متأخر قدمه حظه ، فارض بالحال التي أنت عليها وإن كانت دون أملك فإن رضيت بحالك اختياراً وإلا رضيت بها اضطراراً ، وفي مثل ذلك قال الشاعر :

لقد غرت الدنيا رجالاً فأصبحوا ... بمنزلةٍ ما بعدها متحـــول
فساخط عيش لا يبدل غـــيرهُ ... وراضٍ بعيشٍ غيره سيبـــدل
وبالغ أمر كانَ يأمـــل دونــهُ ... ومختلج من دونِ ما كانَ يأمل

وكتب ملك هجر إلى بعض الحكماء أن اكتب لي بأشياء أنتفع بها وأوجز فكتب إليه : أوفق الأمور ترك الفضول ، والتحفظ من السقوط ولزوم الصواب . وأصل المعيشة : إصلاح المال بالتقدير ، فإن التبذير مفتاح الفقر ، ومن العجز والتواني تنبعث الهلكة ، وأحوج الناس إلى الغنى من لم يصلحه إلا الغنى ، وفي المشورة والعدل صلاح الرعية ، ورضى الناس غاية لا تدرك ، والبر أجمعه في حسن الخلق ، والنجح مع الصبر والنجاة مع الإيمان والعفو يوجب المحبة ، والحلم قائد القلوب ، والرفق بالرعية يوجب الطاعة ، والفتنة ينشئها الضغائن ، والنعمة تستدام بلزوم الشكر مع إطراح الهوى والمعاصي .

وكتب أكثم بن صيفي [1] في وصية لطي : أوصيكم بتقوى الله ،

(١) هو اكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن ابن معاوية التميمي : حكيم العرب في الجاهلية واحد المعمرين . عاش زمنا طويلا ، وادرك الاسلام ، وقصد المدينة في مئة من قومه يريدون الاسلام ، فمات في الطريق ، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، واسلم من بلغ المدينة من اصحابه وهو المعني بالآية : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » — الاعلام —

وصلة الرحم : وإياكم ونكاح الحمقاء ، فإن نكاحها غرر ، وولدها ضياع . وعليكم بالخيل فأكرموها فإنها حصون العرب ، ولا تضعوا رقاب الإبل إلا في حقها ، فإن فيها ثمن الكريمة ، ورقوم الدم ، وبألبانها يتحف الكبير ويغذي الصغير ، ولو أن الإبل كلفت السحن لطحنت ، ولم يهلك امرؤ عرف قدره ، والعدم عدم العقل ، والرجل خير من ألف رجل ، ومن عتب على الدهر طالت معتبته ، وآفة الرأي الهوى ، والعادة أملك ، والحاجة مع المحبة خير من البغضة مع الغنى ، والدنيا دول فما كان لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك ، والحسد داء ليس له دواء ، والشماتة تعقب البكاء ، ومن بر يوماً بربه ، وقبل الرمي تملأ الكنائن ، والندامة مع السفاهة ، ودعامة العقل الحلم ، وخير الأمور مغبة الصبر ، وبقاء المودة عدل التعاهد ، ومن يزر غباً يزدد حباً والتغرير مفتاح البوس ، ومن التواني والعجز نتجت الهلكة ، ولكل شيء ضراوة ، فوضر لسانك بالخير ، وعي الصمت أحسن من عي المنطق ، والحزم حفظ ما كلفت ، وترك ما كفيت ، وكثير النصح يهجم بك على كثير الظنة ، ومن ألحف في المسئلة ثقل ، ومن سأل فوق قدره استحق الحرمان ، والرفق يمن ، والحرق شؤم ، وخير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو ما كان بعد القدرة .

وقيل : إن زبيدة زوجة هارون الرشيد كتبت إلى منصور بن عمار : أما بعد . فكيف يقف ذو اللب على ما ينفعه ، وكيف يجتنب ما يضره ، فكتب إليها :

أما بعد : فمن أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن تعرى عن لباس التقوى لم يستتر من اللباس ، ومن رضي برزق الله تعالى لم يحزن على ما في يدي غيره ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن احتفر بئراً لأخيه وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيعته

ومن نسي زلته استعظم زلة غيره ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن فجر عليهم قصم ، ومن سفه عليهم شتم ، ومن خالط الأرذال حقر ، ومن خالط العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن تهاون بالدين ارتطم . ومن اغتنم أموال الناس افتقر ، ومن انتظر العاقبة اصطبر ، ومن خشي الله فاز ، ومن لم يجرب الأمور قتل ، ومن صارع دهر الحق صرع ، ومن احتمل ما لا يطيق عجز ، ومن كثر غلطه كثر سقطه ، ومن عرف أجله قصر أمله ، ومن استفاد الجهل فقد ترك طريق العدل .

فكتبت إليه :

أما بعد : فإنا قد وقفنا على عيوب النفس ، فكيف لا نقف على عيوب الدنيا ؟

فكتب إليها :

أما بعد : فإن الدنيا من طلبها طلبته ، ومن داهنها كلمته ، ومن صادقها قتلته ، ومن اطمأن إليها خذلته ، ومن رفضها رفضته ، ومن تركها ولم يخدمها خدمته ، استحسنها من جهلها ، واستنكرها من عرفها نجا الناجون عند إدبارها ، وهلك الهالكون عند إقبالها ، فالعاقل يجعل الزهد حسامه ، والحق سهامه ، والورع قوسه ، والنصيحة درعه ، والقنوع رمحه ، وكتاب الله عز وجل حماه ، والرفق مركبه ، والعقل تجافيفه والعمل عدته ، والآمال بأسه ، والنية جنته ، والصمت ترسه ، والتقوى طليعته ، وخشية الله تعالى حصنه والسلالم .

وكتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي :

أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والمراقبة

حيث لا يراك إلا الله ، والاستعداد لما ليس لأحد فيه حيلة ، ولا تنفع الندامة عند نزوله ، وأحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الموتى ، وشمر للسباق غدا فإن الدنيا ميدان المتسابقين ، ولا تقتد بمن أظهر النسك وتشاغل بالوصف وترك العمل بالموصوف .

واعلم يا أخي أنه لا بد لي ولك من المقام بين يدي الله تعالى فيسألنا عن الدقيق والخفي ، وعن الجليل والجافي ، ولست آمن أن يسألني وإياك عن وساوس الصدور ، ولحظات العيون ، والاصغاء إلى الاستماع وما عسى يعجز مثلي عن وصف مثله .

واعلم يا أخي أن ما وصف به منافقو هذه الأمة أنهم خالطوا أهل الدنيا بأجسامهم ، وطابقوهم عليها بأهوائهم ، وخضعوا لما طمعوا في نائلهم ، وسكتوا على ما سمعوا من باطلهم ، وفرحوا بما رأوا من زينتهم وظاهر بعضهم بعضاً بالقول والفعل ، ولهم من الظاهر وأعمال السر المحامد والرياء فقد صرنا في زمان هذه صفة أهله إلا من شاء الله وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى والسلام .

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء .

أما بعد : فإنك لن تنال ما نريد إلا بتركك ما تشتهي ، ولن تدرك ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره ، فليكن كلامك ذكراً ، وصمتك فكراً ونظرك عبرة ، فإن الدنيا تنقلب ، وبهجتها تتغير فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد والسلام . فأجابه أبو الدرداء .

أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ، وأن تأخذ من صحتك لسقمك ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين إما في الجنة وإما في النار ، فإنك لا تدري إلى أيهما تصير والسلام .

وكتب بعض الزهاد إلى أحمد بن حنبل .

أما بعد فمن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته ، ومن أصلح دنياه أصلح الله آخرته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيا للناس بما ليس في نفسه أساء الله به ظنهم ، ومن خاف الله خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله وكله الله إلى نفسه وإليهم ولن يغنوا عنه من الله شيئاً ، فالهرب الهرب ، والنجاء النجاء . وإياك أن تقنع بما نوه باسمك في الخلق ، فإنك لن تنجو من الله إلا بأداء فرائضه ، ولا تقرب ولا تحبب إليه بمثل النصح ، فعليك بالنصح له ، وقل الحق ، فإن الحق قديم ، ولا تدع أن تصلني منك موعظة يجلى بها قلبي ويقشعر منها جلدي وتذرف بها عيناي فلست بمستغن عن علمك ورأيك ، فختم الله لنا ولك بخير ، وما ترك عبد شيئاً من مخافة الله إلا عوضه الله خيراً منه ، وفي الله خلف من كل هالك ، وعوض من كل فائت ، وأنس من كل وحشة ، وغنى من كل عدم ، وعزاء من كل مصيبة ، فبالله نثق ، وعليه نتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

كتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى ولده الحسين : من عبدالله علي أمير المؤمنين ، الوالد الفاني ، المقر للزمان ، المستسلم للحدثان ، المدبر العمر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى إلى الولد المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، عرضه الأسقام ، ورهينة الأيام ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وأسير المنايا ، وقرين الرزايا ، وصريع الشهوات ، ونصب الآفات ، وخليفة الأموات .

أما بعد : يا بني فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني وإقبال الآخرة إلى وصنو الدهر علي ما يزعني عن ذكر من سواي والاهتمام بما

ورائي غير أنه حيث تفرد بي هم نفسي دون هم الناس ، وصدقني هواي صرح بي محض رأيي فأفضى بي إلى جد لا يزري به لعب وصدق لا يشوبه كذب وجدتك يا بني من بعضي بل وجدتك من كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني عناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي كتبت إليك كتابي هذا . يا بني إن بقيت أو فنيت فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله فإن الله يقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله عز وجل ، أحي قلبك بالموعظة ونوره بالحكمة وقوه بالزهد ، وذلله بالموت ، وقرره بالفناء ، وحذره صولة الدهر ، وتقلب الليالي ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر ما فعلوا ، وأين حلوا ؟ فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ، ونزلوا دار الغربة ، وكأنك عن قليل يا بني قد صرت كأحدهم فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف والأمر فيما لا تكلف ومر بالمعروف بيدك ولسانك ، وكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله ،وخض الغمرات إلى الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، واحفظ وصيتي ، ولا تذهب عنك صفحاً ، فلا خير في علم لا ينفع . واعلم أنه لا غنى بك عن حسن الارتياد ، مع بلاغك من الزاد ، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحتمل عنك زادك فيوافيك به في معادك ، فاغتنمه فإن أمامك عقبة كئودا ، لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً ، وأجمل في الطلب وأحسن في المكتسب فرب طلب قد جر إلى حرب ، وإنما المحروب من حرب دينه ،والمسلوب من سلب يقينه . واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ، ولا فقر يعدل النار ، والسلام عليك ورحمة الله .

وقال رضي الله عنه :

صُنْ النفسَ واحملها على مايزينها ... تعش سالماً والقولُ فيكَ جميلُ
ولا ترين الناسَ إلا تجمــلاً ... نبا بكَ دهرٌ أو جفاكَ خليلُ
فإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ ... لعلّ صروفَ الدهرِ عنكَ نزولُ
ولا خيرَ في ود امرىءٍ متلونٍ ... إذا الريحُ مالتْ مالَ حيثُ تميلُ
جوادٌ إذا استغنيتَ عنهُ بماله ... وعندَ احتمالِ النائباتِ بخيلُ
فما أكثرَ الأخوانَ حينَ تعدهم ... ولكنهم في النائبــاتِ قليــلُ

قال كميل بن زياد أخذ علي رضي الله عنه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ، ثم قال : يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها ، يا كميل إحفظ عني ما أقول ، الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، لكل ناعق أتباع يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولن يلجئوا إلى كل وثيق ، يا كميل العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، يا كميل محبة العلم دين يدان به يكسبه العلم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، ومنفعة المال تزول بزواله ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، يا كميل مات خزان المال والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة . ثم قال : ها إن ههنا علمــاً ، وأشار إلى صدره لو أصبت له حملة بلى أصيبه لفتى غير مأمون يستعمل آية الدين في طلب الدنيا ويستظهر بحجج الله على أوليائه وبنعم الله على معاصيه ، أو منقاداً لحملة العلم لا بصيرة له في أنحائه يقدح الشك في قلبه بأول ناعق من شبهة ألا لاذا ولا ذاك أفمن هو منهوم بالذات سلس القياد إلى الشهوات ومغرم بالجمع والادخار وليس من دعاة الدين أقرب شبهاً به الأنعام ، كذلك يموت العلم بموت حامليه ، ثم قال : اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم

بحجة إما ظاهراً منشوراً وإما خافياً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وميثاقه وكم وأين أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً ، بهم يحفظ الله حججه حتى يودعها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقائق الأمور ، فباشروا روح اليقين.واستلانوا ما استوعر المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالمحل الأعلى : يا كميل أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه ، هاه هاه شوقاً إليهم وإلى رؤيتهم وأستغفر الله لنا ولهم ، انصرف إذا شئت .

وإذ قد تضمنت هذه الوصية ذكر العلم وتعليمه وحملته ، فلنذكر العلوم الضرورية على الانسان وما يلزم تبديته وتقديمه منها في تعلمه لها وأجعل ذلك خاتمة كتابي هذا تيمناً وتبركاً بذكرها وتحريضاً على تعلمها ونشرها لتعظم بها الفائدة ، وتكمل فيها العائدة .

وإلى الله سبحانه أبتهل في حسن العون والتأييد ، والتوفيق والتسديد .

فصل

قال الإمام أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن اسحق الحافظ رحمة الله عليه : اعلم أن أحق ما يلزم المرء تبديته وتقديمه تعلم القرآن . فإن الله تعالى يقول (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين) الآية . وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقال (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) في كثير من الآيات يكثر تعدادها ، ففيه والحمد لله الهدى الساطع ، والنور اللامع وشفاء الصدور ومراهم القلوب ، سراج لا يخبو ضياؤه ، وشهاب لا يخمد نوره وسوءه ، وبحر لا يدرك غوره ، المانع من الهلكة والبوار ، والدال على سبيل الجنة والنار . من رزق علمه استغنى به عن

كل علم ، ومن علمه وتعلمه تعلم خير العلوم وأفضلها ، وهو أقرب ما يتقرب به العباد إلى ربهم عز وجل .

عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال « قيل لرسول الله صه الله عليه وسلم : إن أمتك ستفتن من بعدك فسأل رسول الله أو سئل ما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من ابتغى العلم في غيره أضله الله ومن ولى هذا الأمر من جبار فحكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، وهو الذي سمعته الجن ، فلم تتناه أن قالوا (إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به) [1] لا يخلق على طول الرد ولا تنقضي عبره لا تفنى عجائبه » ، ثم قال للحارث : خذها يا أعور فمن تعلمه فليصبر على ما يعرض له دون تعلمه ، ولا يكن همه في تعلمه إقامة حروفه دون القيام عند حدوده ، وليحذر من أن يتكبر فيه أو يأكل به ولا يترك قراءته ودرسه ليبقى له حفظه ولا يغفل عن القيام به في الليالي ويستعين على تحفظ القرآن بقراءته دوراً مع الأصحاب والرفقاء ، ثم ليبحث عن علومه ومعانيه ، وليحذر الكلام فيه بغير علم ، وليحذر أن يتوانى فيه وينساه .

عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من رجل يتعلم القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم » .

قال الحسن : قراءة القرآن ثلاثة أصناف : صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به . وصنف أقاموا حروقه وضيعوا حدوده واستطالوا به على أهل بلادكم واستدروا به الولاة ، كثر هذا الضرب من حملة القرآن ،

---

(1) سورة الجن آية ١ .

لاكثرهم الله . وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فركدوا به في محاربهم ، وحنوا به في برانسهم ، واستشعروا الخوف ، وارتدوا الحزن . فأولئك الذين يسقي الله بهم الغيث . وينصر بهم على الأعداء . والله لهذا الضرب في حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر .

ثم الذي يتلو القرآن من العلوم سنن الرسول صلى الله عليه وسلم فإنها الحكمة . قال تعالى (وما ينطق عن الهوى) [١] وقال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [٢] فمن أراد حفظ الأحاديث التي في الأصول الصحاح فليكن في طلبه للحديث محتسباً صادق النية فإن أهل الحديث خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته من بعده .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « اللهم ارحم خلفائي . قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلمونها الناس » .

فإذا أحرز صدراً من عم سنن الرسول صلى الله عليه وسلم فليأخذ في علم الفرائض فإنه ثالث علوم الدين ، وعليه المعول في قسمة المواريث بين المسلمين ، والمختار من علم الفرائض مذهب زيد بن ثابت الأنصاري.

عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلم ثلاثة فما سوى ذلك فضل آية محكمة ، وسنة قائمة ، وفريضة عادلة » .

فإذا أحكم على الفرائض فليأخذ في الفقه فإنه علم الحلال والحرام وهو عصمة في الدين ، وزينة في الدنيا . وبحسب الفقيه من المدحة قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) [٣] والذي

---

(١) سورة النجم آية ٣ . (٢) سورة الحشر آية ٧ .

(٣) سورة التوبة آية ١٢٢ .

يستحب للمتعلم من مذاهب الفقهاء مذاهب أهل المدينة والحجاز .

عن معاوية بن أبي سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخير عادة ، والشر لجاجة ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ثم يتلوا الفقه من العلوم علم العربية والنحو لأنه آلة لجميع العلوم لا يجد أحد منه بدا ليقيم به تلاوة كتاب الله ورواية كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لكيلا يخرجه جهل الاعراب إلى اسقاط المعاني .

عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رحم الله امرأ أصلح من لسانه » وليأخذ بحظ من علم الغريب ، ومعرفة اختلاف اللغات . ففيه إذراب اللسان ، وفصاحة المنطق ، ومعرفة المشكل ، وبيان الغامض .

عن عطية السعدي قال « قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من بني سعد بن بكر فأتيته . فقال : ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئاً فإن اليد العليا هي المعطية ، وإن اليد السفلى هي المعطاة ، وإن مال الله مسئول ومعطى » فبكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا . ثم ليعرف طرفاً من الشعر فإنه ديوان العـــرب وموروث في الأعقاب ، والأخلاف باق مدحه وذمه ، لازم خيره وشره ، وفيه الشاهد الحاضر والمثل السائر ، والذم والامتداح ، والشرح والافصاح ، وبيان غريب القرآن ، ومعاني سنن الرسول عليه الصلاة والسلام .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » ثم ليتعلم طرفاً من الأنساب لما في علمه من اتصال الإنسان ، ومعرفة الأسلاف ، وفضائل الأشراف ، وبه تواصل الأرحام ويتوارث بنو الأعمام .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلموا

من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر » . ثم يتلو ما ذكرنا من معرفة علم الأنساب علم الطب فإنه علم الأبدان ، وجوامع الطب حفظ الصحة ، وتدبير الأمراض وشفاء الأسقام ، قد نطق به القرآن ، ودلت عليه السنة ، وافتقر إلى أهله جميع الأمة .

عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما أنزل الله من داء إلا أنزل معه دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » . ثم يتلو الطب الخط والكتابة فإنه سفير العقل ، وبه كمال الفضل ، ورباط علوم الدين والدنيا ، وبه تحفظ الآثار ، وتنفسح الأبصار .

عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيدوا العلم بالكتابة » ثم ليتعلم عبارة الرؤيا فإنه علم نبوي وبشرى علوى .

عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ثم ليتعلم الحساب لأنه علم لا غنى عنه ، فيه خير الدنيا والدين ، ثابت الدلائل ، واضح البراهين ، به تحفظ الأموال ، وتقسم المواريث .

عن العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . ثم الذي يتلو الحساب الذرع والمساحة ، وهما من نتائج الحساب .

عن أبي سعيد الخدري : « أن قتيلاً أو ميتاً وجد بين قريتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيسوا فانظروا إلى أيهما أقرب ، فكأني أنظر إلى شبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقاه إلى أقربهما » فإذا تعلم ما ذكرنا من العلوم فلا بأس أن يتعلم من جليل علوم النجوم ، ومعرفة أعيان الكواكب ما به يعلم عدد السنين والشهور ، وأوقات الصلاة

ومجاري الأهلة ، وساعات الليل والنهار ، والبراري والبحار . قال الله تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون)[1] وقال سبحانه وتعالى (الشمس والقمر بحسبان)[2] وقال (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)[3] وقال (كل في فلك يسبحون)[4] وقال (والسماء ذات البروج)[5] وقال (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[6] .

وعن عبدالله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله » .

قالت الحكماء : العلم كثير ، والعمر قصير ، فاطلب منه دعاك إلى خير ، وحملك على بر .

وقالوا : أقصد من أصناف العلم ما هو أشهى إلى نفسك ، وأخف على قلبك ، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له ، وسهولته عليك .

وقالوا : الماء ألين من القول ، والحجر أشد من القلب ، والماء إذا كثر انحداره عليه ، لم يلبث أن يؤثر فيه .

فصل

وما ذكرنا قبل فهي من أصناف العلوم التي هي من حيز الدين ، ونتائج العقول . وأما العلوم المكتسبة التي هي من محاسن الأفعال وتلبس

---

(١) سورة النحل آية ١٦
(٢) سورة الرحمن آية ٥
(٣) سورة يس آية ٣٩
(٤) سورة الانبياء آية ٣٣
(٥) سورة البروج آية ١
(٦) سورة يونس آية ٥

أصحابها ثوب الجمال ، وهي أيضاً مستحسنة في الدنيا والدين ، فكالرمي والسباحة ، والفروسية والثقافة ، والعلم في المحاربة . فأما الرمي فالتشاغل به من التجارات المربحة المنجحة .

ومن المنقول في تأليفنا « تحفة الأنفس »

اعلم أن الترغيب في الرماية روي عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه أن يكون الرجل رامياً فارساً سابحاً .

وقال عليه الصلاة والسلام « علموا أبناءكم الرمي فإنه نكاية للعدو » وقال عليه الصلاة والسلام لقوم من الأنصار رآهم يرمون « إرموا يا بني اسمعيل فقد كان أبوكم رامياً » وقال عليه الصلاة والسلام « من رمى بسهم في سبيل الله مخطئاً أو مصيباً كان له من الأجر كرقبة أعتقها من ولد إسمعيل » وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله تعالى ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير . والرامي له ، والمعد به » .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى أحداً غير سعد بن أبي وقاص فإنه قال له يوم أحد : إرم فداك أبي وأمي » وفي ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد ولأبي طلحة وقتادة وغيرهم من الرماة « أثبتوا فلن يزال النصر معنا ما ثبتم » وكان عدد الرماة في ذلك اليوم خمسة عشر رامياً. والأحاديث في هذا المعنى أكثر من أن تحصى . ولله در الشاعر إذ يقول :

فمنْ شاءَ يسلك سبل العنايـة ويحصل من عزِّهـا في نهايـة
ويحظى بكلِّ ثـوابٍ جزيـلٍ فلا يتعـدَّ طريـقَ الرمايـة

فـإن بهـا في الدنـا رفعـةٌ ونصرُ الدينِ نبـي الهدايـة

وقد فضل الله تعالى القوس على جميع الأسلحة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما مد الناس أيديهم إلى شيء من السلاح إلا وللقوس عليه فضيلة » .

وقال عليه الصلاة والسلام « من اتخذ في بخيته قوساً نفى الله عنه الفقر ما دامت في بيته » وكان صلى الله عليه وسلم يخطب عند الحرب وهو متكيء على قوسه . وقال عليه الصلاة والسلام « منتهى المؤمن القوس والنبل » والقسي جنسان : قوس اليد وهي العربية وتنقسم على أنواع . وقوس الرجل وهي الافرنجية . وتنقسم كذلك على أربعة أنواع : فالقوس العربية أنسب للفارس لأنها أسرع ، وأقل مؤنة ، والقوس الافرنجية أنسب للرجال لأنها أبلغ وأكثر معونة ، ولا سيما في الحصار والمراكب البحرية وشبه دلك ، وهي خاصة بأهل الأندلس بها يصيدون ، وعنها يرمون ، وفيها يتنافسون ، وعليها يعتمدون فرساناً ورجالاً .

وأما السباحة فهي من الخصال المحمودة .

نقل الامام أبو نعيم بسنده إلى أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حق الولد على الوالد أن يعلمه كتاب الله والسباحة والرمي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم لهو المؤمن الرمي والعيامة ومن تركها كانت نعمة جحدها » .

وقال عليه الصلاة والسلام « كل شيء من لهو الدنيا باطل ، إلا ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه عن قوسه ، وتعلمه السباحة » .

قال بعض الحكماء : من تمام ما يجب للأبناء على الآباء تعليمهم الكتابة والحساب والسباحة .

وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : علم ولدي السباحة قبل تعليم الكتابة فإنهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم .

وأما الفروسية فهي من أفضل الأعمال وأشرفها .

ومن المنقول في تأليفنا « تحفة الأنفس » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خير معاش الناس لهم رجل يمسك عنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغي الموت مظانه » .

قال عليه الصلاة والسلام . طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إرموا واركبوا » وعرضت عليه صلى الله عليه وسلم الخيل وعنده عيينة بن حصن الفزاري .فقال عليه الصلاة والسلام لعيينة : أنا أفرس بالخيل منك .

وقال عليه الصلاة والسلام « لو أن هذه الأمة انتهت عندما أموت لأكلوا غير زارعين لأن الله تعالى جعل أرزاقها في سنابك خيلها وأسنة رماحها »

وقال عليه الصلاة والسلام « جعل رزقي تحت ظل رمحي . وجعل الصغار والذلة على من خالف أمري » .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل حمص : علمـــوا أولادكم السباحة والرماية والفروسية ، واخشوشنوا ، واتزوا على الخيل تزوا .

ويروى عنه أنه قال : لن تزالوا أصحاء ما نزعتم ونزوتم ، يعني نزعتم بالتمسي ونزوتم على ظهور الخيل .

وقال أسلم مولاة : رأيت عمر رضي الله عنه يمسك بأذن نفسه ، ثم يمسك بأذن فرسه فينزو عليه ، وكان يقال قديماً : العز في صدور الصفوف . وقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف » والفروسية أفضل مدارجها . وأكرم معارجها » وارتباط الجياد أعز اعتداداً ، وأقوى لك استنجاداً ، فيها تشن الغارات ، وتدرك الثارات فيجب على الفارس أن يشمر عن ساق الجد والعزم ، ويكشف عن ساق الحذر والحزم ، فيأخذ نفسه في كل حين بالاستعداد ، والتأهب للجهاد وينظر قول من غرف الحرب ، وباشر فيها الطعن والضرب فقال :

وأعـــددت للحرب أوزارهـــا رماحاً طوالاً وخيلاً ذكـــورا

قال بعض السلف : غزا المسلمون أرض الروم فمر فارس منهم إلى جانب صومعة راهب . فقال الراهب : يا صاحب الفرس أمن المتطوعة أنت أم من أهل الديوان . فقال : بل من المتطوعة . قال له : ومالك والديوان ؟ فأنا نجدهم في بعض كتبنا أنهم عدة الله في الأرض .

عن ابن عباس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل وينفقونه على عدوهم كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » .

قال ابن محيريز : أصحاب العطاء أفضل من المتطوعة لما يروعون .

وقال مكحول : روعات البعوث تقي روعات يوم القيامة .

قال الطرطوشي : اعلم أن الجندهم عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده . وهم حماة البيضة ، والذابون عن الحوزة ، والدافعون عن العورة ، وهم جنن الثغور ، وحراس الأرض ، والعدة للحوارث ، وإمداد المسلمين ، والجهد الذي يلقي العدو والشوكة عليه ، والسهم

الذي يرمى به والسلاح المدفوع في نحره وبهم يذب عن الحريم ويؤمن السبيل وتسد الثغور . قال : أبو ذر الخشني .

بقـــاء الدينِ والدنيــا جميعــاً بكلِّ مقاتلٍ ثبــت الجنــان
إذا شهدوا الحروبَ رأيتَ أسداً تهش كرامــة نحو الطعــان
هم بيض وفي الإيمانِ بيــض فما تدري مــن السيفِ اليماني

وأما الثقافة والعلم في المحاربة فمن الواجب المؤكد تعلمها .
من المنقول في تأليفنا « تحفة الأنفس » :

اعلم أن الحرب معالمها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد وثقافها الأناة ، وزمامها الحذر ، ولكل شيء من هذه ثمرة ، فثمرة الصبر التأييد ، المكر الظفر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن وثمرة الحذر السلامة .

وقالوا : جسم الحرب الشجاعة ، وقلبها التدبير ، وعينها الحذر ، وجناحها الطاعة ، ولبانها المكيدة ، وقائدها الرفق ، وسائقها النصر ، فإذا قاتلت فلا تبذل مهجتك وقوتك من أول وهلة ، لئلا يأتي معظمها فتعجز وتكل ، ولا تنشب في حرب وإن وثقت بشدتك حتى تعرف وجه التخلص منها ، فمن استضعف عدوه فقد اغتر ، ومن اغتر بقوته فقد وهن ، والحازم يحذر عدوه على كل حال ، المواثبة إن قرب ، والغارة إن بعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولى .

وقد قالوا : لتكن أشد ما تكون من عدوك حذراً ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعدداً ، فليس من القوة التورط في الهوة . قال هدبة العذري :

ولا أتمنى الشــر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب
ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلــب

وقد جمع الله سبحانه تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه العزيز فقال : (يأ أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) [1] وقال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) [2] فقوله عز وجل ما استطعتم مشتمل على ما في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي وقد تقدم ذلك عن أسامة ابن زيد الليثي . قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقاً ، وهو يريد أخرى ويقول الحرب خدعة »

وكان المهلب يقول لبنيه : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها أبلغ من النجدة وفسر بعضهم النجدة ، فقال : النجدة هي الجرأة على الإقدام عند ازورار الأقدام .

وعن الحسن بن السائب ، قال : لما كانت ليلة العقبة أو ليلة بدر قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه « كيف تقاتلون فقام عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، فأخذ القوس وأخذ النبل فقال : أي رسول الله إذا كان القوم قريباً من المائتي ذراع أو نحو ذلك كان الرمي بالقسي ، وإذا دنا القوم حتى تنالنا أو تنالهم الرماح كانت المداعسة بالرماح حتى تقصف ، فإذا تقصفت وضعناها وأخذ السيف فتقلده واستله فقال وكانت المجالدة بالسيوف . قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا أنزلت الحرب : من قاتل فليقاتل قتال عاصم » .

قال عتبة بن عبدة السلمي : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً قصيراً . فقال : إن لم تستطع أن تضرب به ضرباً فاطعن به طعناً .

---

(١) سورة الانفال آية (٤٥ ـ ٤٦) . (٢) سورة الانفال آية ٦٠ .

قال بعضهم : ومن شرط السيف ألا يسل إلا عند الضرب به وإن سل قبل ذلك أورث الجبن ، وليس في السلاح ما يجب أن يحذر عند العمل به كالسيف فقد وجد كثير ممن عمل به بغير حذر ولا دربة أصاب أذن فرسه أو عضده وربما أصاب أذن نفسه أو رجله فقطعها أو أثر فيها فينبغي للفارس أن يتمرن في الضرب به حتى يخف عليه العمل به .

وأما الرمح فينبغي للفارس أن يخففه ما قدر فإنه على الخفيف أقوى وله أضبط ، وبه أحكم ، وليكن بين الدقيق والغليظ قدر ما لا يعجز عنه الكف ولا تلتقي عليه الأنامل ، فالتوسط هو المحمود بحسب قدر اليد والتمكن من ذلك .

قلت : وأحكام العمل بالسلاح لا يتساوى الناس فيه به التفاوت بينهم في ذلك شديد ، والتباين فيه بعيد ، فيجب على العاقل أن يشاهد من أهلها الأعمال ويحاضر بها الرجال ويأخذ بحظ من التمرن فيه مع من يراه أهلاً لذلك ممن يصطفيه حتى يعرف كيفية الطعن والضرب والثقافة في السلاح بالحرب ووجوه العمل في الكر والفر والامتناع ، والدخول على المبارزين، والخروج عنهم في المطاعنة والمصارع وملاحظة مواقع السهام وأوقات الاقدام والاحجام ، واستراق الأرض في المبارزة ، واستدبار الشمس عند اللقاء ، والمناجزة ، والمراوغة ، والعطف في القتال ، ودقائق ذلك ، ولواحقه عند النزال ، وترصد غرة العدو في حال الحركة ، والهدو ، من الختل ، وفي تعطيل الرمح عليه أو ملكه على ربه ، أورده إليه ، أو خلع عذار الفرس أو قطع عنانه ، ليشتغل الفارس بأمر فرسه وشأنه ، فيتمكن منه في الحين ، وتظهر الفرصة فيه وتستبين ، ومن لم يتمرن في ذلك فلا تغره نفسه بأن تسلك به هذه المسالك ، ففي معرفة ذلك كله ، وإمعان النظر فيه يتفاضل الفرسان ، مع الإستثبات وجرءة

الجنان ، وشدة الحذر عند منازعة الأقران ، ومنازلة الميدان ، والله جل وعلا في كل حال هو المستعان . قال أبو الطيب المتنبي :

إن السلاح جميع الناس يحملـــه   وليس كل ذوات المخلب السبع

فهذا ما كتبه قلم الاستعجال على ضيق المجال ، إذ الخاطر منقسم بين مراوضة طبع ، ومحافظة على أصل وفرع ، ونظر في أمر دين ، ومسالمة قرين ، ومداراة حاسد ، ومدافعة معاند ،وتأديب ولد ، وملاحظة عادة بلد ، وسياسة أهل في استصحاب العلم ، وعدل وتدبير معاش ، وإعداد رياش ، وإصلاح حال ، وفكرة في مآل ، ومعاناة دهر في صروف عام وشهر وفي هذا كله عذر إن وقع تقصير ،ولا ينفرد بالكمال إلا العليم الخبير . سبحانه وتعالى لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه الطيبـــين الطاهرين . وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

الفهرس

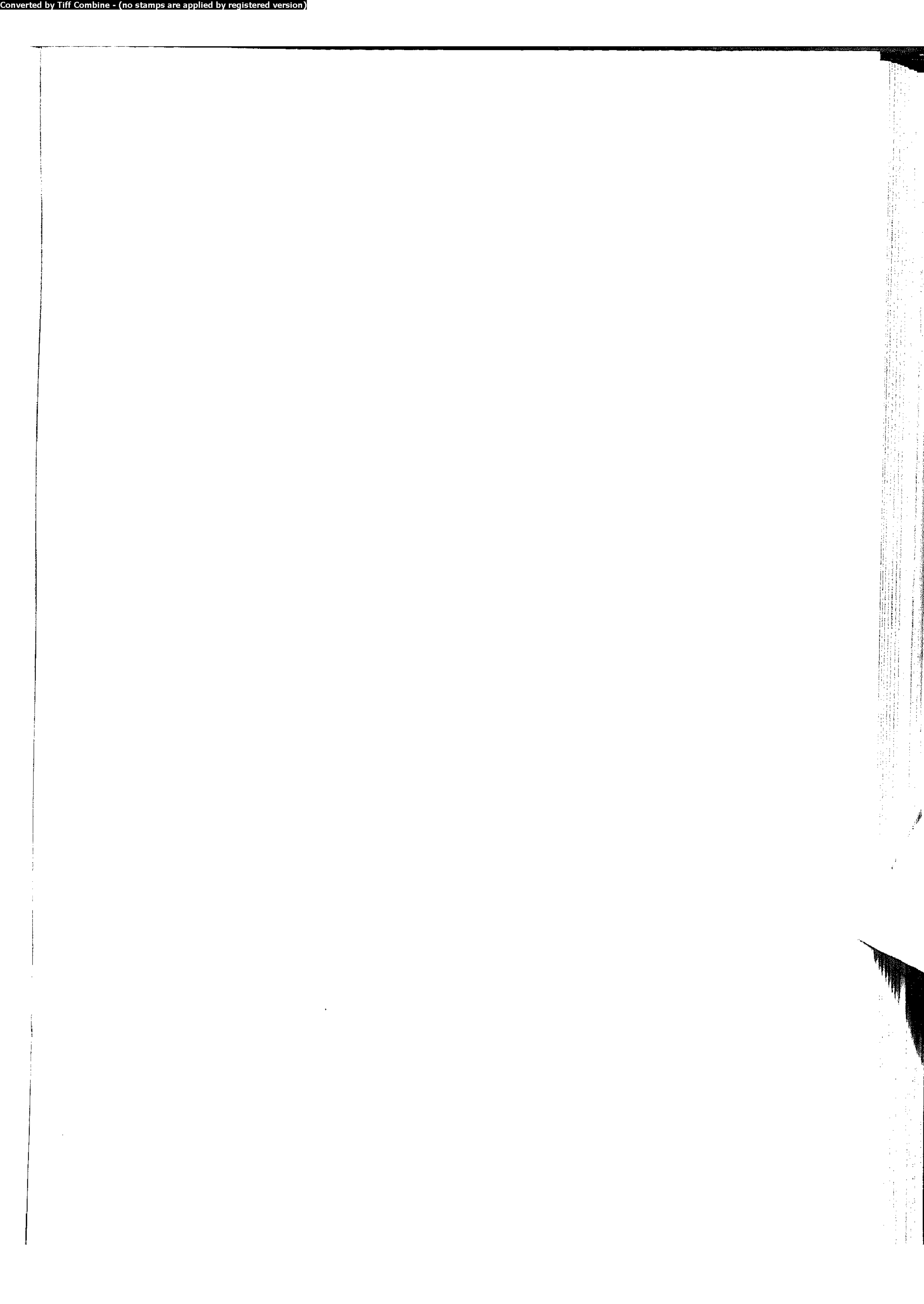
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
فصل : فيما قاله بعض العلماء	٢٣٥
فصل : فيما قاله بعض العلماء أيضاً	٢٣٩
فصل : فيما قاله عبدالله بن المبارك	٢٤١
فصل : فيما رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من الصحابة	٢٤٤
فصل : في وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس وغيره	٢٤٩
فصل : في ما نقل من « تذكرة من اتقى » من المواعظ والحكم	٢٥٩
فصل : في المنقول من مقالات الأدباء من الحكم والمواعظ	٢٦٢
فصل : في وصية يونان لإبنه حين حضرته الوفاة	٢٦٧
فصل : في بعض ما حفظ من مكاتبة أزدشير بك إلى خواص رعيته وعماله	٢٨١
ما كتبه بعض الحكماء إلى بعض	٢٨٢
ما كتبته زبيدة زوجة هارون الرشيد إلى منصور بن عمار وما كتبه إليها	٢٨٤
ما كتبه يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي	٢٨٥
ما كتبه سليمان الفارسي إلى أبي الدرداء	٢٨٦

الموضوع	الصفحة
ما كتبه سيدنا علي بن أبي طالب إلى ولده الحسين رضي الله عنهما	٢٨٧
ما قاله الإمام أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن إسحاق الحافظ وغيره من العلماء الأعلام	٢٩٠
فصل : في الترغيب في الرماية والسباحة والفروسية والثقافة والعلم في المحاربة	٢٩٥



بحمد الله وحسن توفيقه تم طبع كتاب « عين الأدب والسياسة » لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل مصححاً بمعرفة لجنة من العلماء بدار الكتب العلمية ببيروت .

